عدد ١

سبتمبر واكتوبر ١٩٤٣



المقتطف

رواد الشرق العربي

في العصور الوسطى

تأليف

نقولا زيادة

خريج جامعة لندن

هدية المقتطف السنوية

سنة ١٩٤٣

الطبعة الاولى

سنة ١٣٦٢ هـ — ١٩٤٣ م

اهداء الكتاب

الى

مرغريت

بين يدي الكتاب

هذا الكتاب الذي أضعهُ بين يدي القارىء الكريم هو دراسة سريعة لمشاهير الرحالين الذين زاروا الشرق العربي في العصور الوسطى وعرض لبعض صور الحياة كما وصفوها

وقد كنت أود ان يكون الكتاب أكبر حجماً وان تزينه الصور والخرائط ؛ لكن الاحوال الحاضرة حالت دون ذلك

وأنا إذ أعرض هذا الكتاب أقدّم الشكر الجزيل لصديقي محرّر المقتطف الأستاذ فؤاد صرّوف الذي أتاح لهُ أن يرى النور في هذه الايام الحالكة السواد

الكلية العربية — بيت المقدس
٤ تموز (يوليو) ١٩٤٣

نقولا زيادة

المقدمة

الشرق العربي في العصور الوسطى

— ١ —

امتدت الفتوح العربية الاسلامية قرناً وبعض القرن بعد وفاة النبي وكانت متعددة النواحي منوعة النتائج . فقد كانت فتحاً عسكريًّا امتدّ الى الهند والصين شرقاً وبحر الظلمات غرباً . وكانت فتحاً عنصريًّا بمعنى ان الجنس العربي تغلب على الاجناس الاخرى وتمثلها في بعض الاقطار دون الاخرى ، وكلما قرب القطر من بلاد العرب نفسها كان استيطان العرب فيه اكثر وتأثره بالعنصر العربي اكبر . وكانت فتحاً لغويًّا : فقد انتشرت اللغة العربية في الاقطار المفتوحة انتشاراً سريعاً . واذا كان ثمة من يجب ان يذكر بالخير في هذه المناسبة فالفضل يعود الى عبد الملك بن مروان والمأمون . فالاول عرّب الادارة فجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية . والثاني نقل العلوم الى العربية فعرّب الحركة الفكرية والعقلية . على انهُ يجب ان نذكر فتحاً رابعاً تمّ في هذه الفترة . هو الفتح الديني . فقد انتشر الاسلام في الاقطار المفتوحة لأسباب كثيرة لا يتسع المجال لبحثها الآن

وهذه الامور هي التي عينت اتجاه الامم والشعوب التي خضعت للعرب : فتلك التي خضعت لسلطان العرب السياسي وحده حاولت الثورة او الخروج ، فلما واتتها الظروف استردت حياتها الاولى . وبعض هذه الشعوب استقلت سياسيًّا لكنها احتفظت من الفتوح العربية بالفتح الديني ، اذ كان الاسلام قد تغلغل فيها . اما البلاد التي اصبحت عربية دماً ولغة وفكراً وعقلاً فهي التي تحدها جبال فارس شرقاً وجبال

طوروس شمالاً ثم تمتد غرباً فتشمل مصر وشمال افريقيا كله . وهذه الحدود اللغوية تتفق مع حدود طبيعية كان اجتيازها صعباً على عدد كبير من العرب، فلم يقطنوا وراءها جماعات كبيرة ، ولذلك اقتصر تأثيرهم فيها على الدين او السياسة

واذا نحن عرضنا لتاريخ العرب الى نهاية العصر العباسي الاول ألفيناه وحدة زمانية يصح ان ينظر اليها نظرة واحدة . فقد تمّ فيها الفتح الذي ذكرناه . واتجهت شؤون الامبراطورية الاسلامية نحو الاستقرار. ولقد كان يغلب على فترة منهـا دون الاخرى رأي أو تسيطر عليها فكرة خاصة ، ولـكنّ الوحدة هي الرابط الرئيسي بينها . فقد كان دور الخلفـاء الراشدين يغلب عليه الدين لقرب عهد الناس بالبعثة ولتأثرهم بحياة الرسول والصحابة . وكان عهد الامويين تغلب عليه العروبة . وعهد العباسيين الاول سيطرت عليه نزعة فارسية في ادارته . لـكن في كل حال كان الخليفة مصدر السلطان الحقيقي ، واليه يرجع في حل المعضلات ، وشخصيته هي التي تفرض ارادتها على شؤون الدولة وتلوّنها بلونها . ولا ريبة عندنا في ان انتقال عاصمة الخلافة من المدينة الى دمشق ثمّ الى بغداد كان له دلالة كبيرة . ففي الحالتين الاوليين كانت الدولة العربية تتجه الى بلاد العرب نفسها وترتكز عليهـا ، أما في الحالة الثالثة فقد اعتمدت العاصمة على جبال فارس وارتكزت عليها . لـكنّ خلفاء العصر العباسي الأول كانوا على درجة من قوة الشخصية وعلوّ الهمة تجعل السيطرة الاجنبية تقف عند حد

على اننا نلحظ ان هذه الوحدة السياسية لم تلبث ان تضعضعت . ولم يمضِ قرن من الزمان حتى كانت الرقعة التي رفرف عليها علم العروبة والاسلام قد تجزأت . وقد أكثر المؤرخون من التحدث عن هذه الناحية من التاريخ الاسلامي وأفاضوا في معناها ودلالتها . ولـكننـا نعتقد انهُ لم ينظر اليهـا بعد بنظرة صحيحة بعيدة عن الهوى . فالواقع أن هذا الانقسام السياسي كان أمراً طبيعيـًّا ونتيجة محتومة ، فقد كانت رقعة العالم العربي عندئذٍ واسعة شاسعة متباعدة الاطراف ، وكانت المسافة بين جزئها الشرقي وطرفها الغربي يحتاج في قطعها الى عشرة اشهر على ما قدرهُ المقدسي . وما كان من الميسور ان تدار هذه الرقعة كلها من مركز واحد في القرن الثالث او الرابع للهجرة ، وقد كانت المواصلات على ما نعرف . ومن ثمّ فقد كان من الطبيعي ان تتخذ الشكل السياسي الذي اتخذته في تلك الايام . وكان انقسامها الى ثلاث وحدات — تتمركز احداها حول العراق . وأخرى حول مصر . والثالثة حول الاندلس — حلاًّ لمشكلاتها . لـكنّ

الذي نأسف له ؛ ونحن نشير الى هذا الامر ، هو ان هذه الوحدات السياسية لم تلبث ان وقع بينها الخلاف واستحكمت بينها العداوة ، فاختصمت واحتربت وكان بعضها عوناً للاجنبي على البعض الآخر . وثمة أمرٌ آخر يؤسف له هو التجزؤ الموضعي لهذه الوحدات الكبيرة

ولسنا نطمع في ان نؤرخ للعالم العربي في هذه العجالة ، ولكننا نريد ان نضع بين يدي القارىء صورة موجزة لما كان عليه الشرق العربي في العصور الوسطى ، تمهيداً للتحدث عن الرحالين الذين زاروه . ومن ثمّ فنحن مضطرون الى قصر حديثنا على جزء صغير يشمل مصر وسوريا والعراق في الدرجة الأولى ، ونحن مضطرون الى عرض الأمور عرضاً سريعاً

ونحن واجدون إن دولة الطولونيين ٢٥٤ — ٢٩٢ ، ٨٦٨ — ٩٠٥ كانت أولى الدول التي انسلخت عن الخلافة العباسية في الجهة الغربية من المنطقة التي نريد أن نشرف عليها الآن . أنشأها احمد بن طولون وأدارها عشرين سنة ثم ولي شؤونها ابنهُ خمارويه . وفي عهدها ازدهرت شؤون مصر ، لكنّ الضعف تسرّب الى الدولة فعادت مصر الى الخلافة . ولعلّ السر في انحلال هذه الدولة يرجع الى أن مؤسسها كان غريباً عن مصر ، وكذلك ظلت أسرته من بعده

وقد ضمّ احمد بن طولون سوريا الى ملكه إذ حمل عليها سنة ٨٧٧ — ٨٧٨ م فسلمت دمشق والمدن السورية الكبيرة حتى طرسوس . وقاومت انطاكية لكنهُ تغلب عليها في النهاية ، ووصل ملكه الى حدود الفرات . والى هذه المدة يرجع اهتمامه ببناء ميناء عكاه . وأرسل ابن طولون حملتين ضد البزنطيين من طرسوس كان النصر حليفه فيهما سنة ٨٨١ و ٨٨٣ م ثم سار بنفسه لمعاقبة قائده خلف لما عصي عليه واستأثر بالأمر . ولما مات ابن طولون وخلفه خمارويه اتفق حاكما الموصل والانبار على ردّ سوريا لسلطة الخلافة ، فحملا على سوريا واحتلاّ دمشق سنة ٨٨٥ م لكنّ خمارويه عاد بعد أقل من عام واستردّ البلاد ودخل دمشق سنة ٨٨٦ م . وتدخل في شؤون حكام شمال العراق وأقام سنة في تلك الجهات بسبب حروب الامراء . وانتهى الامر بخمارويه أن حسنت علاقته بالمعتضد العباسي ، فتزوج هذا ابنة حاكم مصر

على ان الدولة انحلت بعده كما ذكرنا قبلاً ، ولم تلبث أن شقت مدن سوريا الشمالية عصا الطاعة وهاجم القرامطة سوريا سنة ٨٩٨م وأنزلوا بالجيوش المصرية خسائر فادحة .

ولم تلبث دولة ابن طولون حتى انتهى أمرها بعد ذلك ببضع سنوات

على ان ابن طولون لهُ في مصر آثار عمرانية منها الجامع المنسوب اليهِ. ومنها الطرق. ومنها مدينة القطائع والبيمارستان والقناطر المعروفة باسمه . وقصر ابنه خمارويه يدل على درجة كبيرة من الترف

ومرت على مصر ثلاثون سنة وهي تابعة للخلافة العباسية مباشرةً حتى جاء الاخشيد فأعاد اليها استقلالاً انفصاليًّا على نحو ما فعل ابن طولون . والدولة الاخشيدية ٣٢٣ — ٣٥٧ هـ ، ٩٣٥ — ٩٦٩ م أنشأها محمد بن طغج ، ولم يلبث أن تلفت نحو سوريا وكان يعتبرها تابعة له ، على غرار ما فعلهُ ابن طولون من قبل . وكان مزاحمه في شؤونها ابن رائق حاكم حلب فهاجم هذا حمص ودمشق واحتلهما ، فجاء الاخشيد يقود جيشاً للدفاع عن البلاد ، وبعد معارك دامية اتفق الاثنان سنة ٩٤٠ م على أن تكون البلاد الى الشمال من الرملة لابن رائق . ولما توفي الاخير بعد نحو سنتين استردَّ الاخشيد سوريا بأكلها، ثم منحهُ الخليفة ولاية مكة والمدينة ، فعظم شأنه واشتدَّ نفوذه

وهناك شخص آخر يستحق الذكر في هذه الدولة هو ابو المسك كافور صاحب المتنبي

على ان الدولة الاخشيدية لقيت في سوريا خصوماً أشداء في الدولة الحمدانية ٣٣٢ — ٤٠٧ هـ ، ٩٢٩ — ١٠١٦ م نشأت هذه الدولة التغلبية العربية في الموصل ، لكن في سنة ٩٤٤ م تقدم سيف الدولة الى حلب فاستخلصها من أيدي الاخشيديين ثم أتبعها بحمص ، واتخذ الاولى عاصمة لهُ وأنشأ هذه الدولة الضخمة في شماليّ سوريا ، التي عرفت عزها في أيام سيف الدولة نفسه ، وخليفته سعد الدولة . أما بعد هذا فقد كانت الدولة كلها تابعة للفاطميين ، ذلك لأن الحمدانيين كانوا شيعة ، ولأنهم فضلوا محالفة الفاطميين والخضوع لهم على الخضوع للبزنطيين الذين كانوا يغيرون على شمالي سوريا غارات قوية آنئذٍ

كان بلاط سيف الدولة ملتقى جماعة من رجال الشعر والادب والعلم . فالمتنبي وابو فراس والفارابي وابو الفرج الاصفهاني وابن نباته كانوا في بطانته ، هذا الى عدد كبير من الأطباء .

لكنَّ شهرة سيف الدولة ترجع من ناحية أخرى الى الحملات التي شنها ضد البزنطيين عشرين سنة متوالية منذ ٩٤٧ م . احتل سيف الدولة مرعش ، ولكنَّ

الحرب كانت سجالاً ، فقد حاصر نقفور حلب واستولى على انطاكية (بقيت بأيدي البزنطيين من ٩٦٩ الى ١٠٨٤م) . ومع ان الحمدانيين خسروا كيليكيا وانطاكية فان قيامهم في تلك الفترة وقف تقدم البزنطيين عند حد ، مع انهم كانوا في هذه الفترة ينعمون بقيادة ادارية وعسكرية حازمة على يد نقفور ويوحنا تسيمسكز وباسيل الثاني ٩٦٣ — ١٠٢٥م . وهذا هو فضل الحمدانيين على الوطن العربي

أما الجزء الشرقي من المنطقة التي نعني بها فقد حكمها البويهيون ٣٣٤—٤٤٧هـ ، ٩٤٥ — ١٠٥٥م ، الذين كانوا حكام الدولة العباسية الفعليين ، فكانوا يولون الخلفاء ويخلعونهم كما يشاءون . والبويهيون كانوا شيعة. وقد اعتنوا بالحياة العلمية فازدهرت في ايامهم حلقات الدرس الفلسفية . والى عصرهم ترجع « رسائل اخوان الصفا »

على ان الدولة التي تولت شؤون الدولة العباسية بعد البويهيين والتي قيض لها أن يغزو الغرب سوريا في ايامها كانت دولة السلاجقة ٤٤٧ — ٦٥٦هـ (١٠٥٦ — ١٢٥٨م) . وقد كان الثلاثة الاوائل من السلاجقة عظاماً بالمعنى الواسع للكلمة وهم طغرل (١٠٣٧— ١٠٦٣ والب أرسلان ١٠٦٣ — ١٠٧٢ وملكشاه ١٠٧٢ — ١٠٩٢ . ولم يقم من هؤلاء في بغداد الا الاخير وكان ذلك في السنة الاخيرة من سلطنته

ونحن نسمح لانفسنا بأن نتناول هؤلاء السلاجقة العظام والأسر المحلية التي تفرعت عنهم ونشأت منهم بشيء من التفصيل لان هذه الفترة كبيرة الشأن في تاريخ العالم العربي الاسلامي . فان الب أرسلان استولى سنة ١٠٦٤ م على ارمينيا ، التي كانت ولاية بزنطية ، وضمها الى سلطنته . وفي سنة ١٠٧١ م تغلب على جيش بزنطي في معركة ملازكرد . (منزيكرت) شمالي بحيرة ڤان. ونقل جماعة من قومه الى آسيا الصغرى . وولى امر هذه المنطقة سليمان بن قطلمش الذي أنشأ فيما بعد ١٠٧٧ م سلطنة عرفت باسم سلاجقة الروم وفي سنة ١٠٩٤م) أنشأ ططش بن الب أرسلان دولة السلاجقة السورية واتخذ حلب[1] عاصمة له

ويعد زمن ملكشاه دوراً من ادوار الرخاء الاقتصادي والامن الداخلي والعمران في الطرق والتقدم العلمي . فقد كان من الميسور ان يسافر المرء من تركستان الى سوريا

---

(١) احتل الب ارسلان حلب سنة ١٠٧٠م واتخذها قاعدة لصد تقدم الفاطميين في الشمال. وقد دامت دولة السلاجقة السورية الى سنة ١١١٧م

دون ان يحتاج الى حماية او حراسة . وقد أعانهُ في اعماله نظام الملك مؤسس المدارس في الاسلام . وهذا العصر هو الذي ظهر فيه ناصري خسرو الرحالة والشاعر عمر الخيّام

وقد اقتسم موالي السلاجقة وقوادهم سلطنتهم بعد موت ملكشاه. فتفرقوا وذهبت ريحهم . ومن ثمّ كانت سوريا لقمة سائغة للجموع الصليبية التي دهمتها بعد ذلك ببضع سنوات

وفي الوقت الذي كان فيه البويهيون يتخلون عن دولتهم للسلاجقة ويؤسس فيه هؤلاء سلطنتهم كانت مصر قد أصبحت مركزاً لخلافة لها في تاريخ الاسلام السياسي وتاريخ الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية خطرها وقيمتها . تلك هي الخلافة الفاطمية

بدأ الفاطميون ملكهم في المهدية، وفي سنة٣٥٨ هـ—٩٦٩ م انتزع جوهر الصقلي مصر من بني الاخشيد وأنشأ القاهرة، التي أصبحت عاصمة الفاطميين . وقبلت مكة والمدينة سلطان الخليفة الفاطمي (المعز) (١) ودعي له على المنابر فيهما ، وكذلك دخل الحمدانيون (في حلب) في طاعته . أما جنوب سوريا فقد كلف الفاطميين حملة بقيادة جعفر بن فلاح لحارب حسن (وكيل الاخشيديين) الذي كان عاصياً بالرملة فانتصر عليه ثم اتجه نحو دمشق واحتلها ٩٦٩ م . لكن قبل ان يتيسر لجعفر أن ينظم شؤون دمشق جاءها حسن القرمطي فاحتلها وأخرجه منها ، وقد أعانته على ذلك قبائل العرب السورية مثل طي وعقيل . وتوجه حسن الى الرملة وحصر جيشاً فاطميًّا في يافا ثم هاجم مصر وحاصر القاهرة واخترق خنادقها لكنه صد عنها وهزم ففر من حيث أتى حتى وصل الى دمشق وهناك أخذ يجمع أموره من جديد. وكانت هذه الحادثة كافية لحمل المعز على المجيء الى القاهرة ٩٨٣ م . وفي السنة التالية عاد القرمطي الى مصر ، لكن المعز كان مستعدًّا فرده، بعد أن فرق بني طيِ عنه، واتبعه بجيش تغلب على فلول جيش حسن . واحتل قائد الفاطميين طرابلس وبيروت من البزنطيين ، لكن دمشق صمدت لان افتكين كان قد نظمها . وتعاهد هذا مع تسيمسكز البزنطي الذي جاء ليستعيد الميناءين ، لكن جيوش الفاطميين غلبت البزنطيين فعادوا ادراجهم . أما دمشق فلم تخضع نهائيًّا للفاطميين الاّ في سنة ٩٨٨ م . وهكذا كانت طرابلس على الساحل ودمشق في الداخل أقصى حد وصلتْ اليه سلطة الفاطميين التامة في سوريا . اما انطاكية

---

(١) ٣٤١ — ٣٦٥ هـ — ٩٥٢ —٩٧٥ م

فكانت بأيدي البزنطيين وأما حلب فقد ظلت عاصية الى أيام سعيد الدولة الذي وضع نفسه تحت حماية الفاطميين لينصروه ضد البزنطيين

هذا وقد كانت سوريا ميداناً لحروب عنيفة بين الفاطميين وأباطرة بزنطية ، وكلا الفريقين يحاول التقرب من العناصر القبلية الثائرة ويسترضيها لتؤيده ، وفي مقدمة هذه كانت أسرة الجراح في الرملة وبنو عقيل وطي وبنو عمار . وكانت هذه الحال تتجدد عند قيام كل خليفة جديد . فقام بنو مرداس في حلب . على أن الثلث الاول من القرن الحادي عشر الميلادي انتهى بتركيز السلطان الفاطمي في سوريا كلها على يد انوشتكين ، فأصبحت البلاد كلها راضية بالحكم الفاطمي وصار اسم الخليفة يذكر على المنابر حتى في الرقّة على الفرات . لكن هذه الحالة لم تدم اكثر من عشر سنوات

وكان السلاجقة قد تقدموا غرباً على نحو ما رأينا فاحتلوا القدس سنة ١٠٧١ م ودمشق ١٠٧٦ م ، لكن جيوش بدر الجمالي استرجعت عكا وصور وجبيل للفاطميين

أما مصر فقد استمتعت في زمن الفاطميين بمركزها الذي هي أهلٌ له في العالم العربي الاسلامي ، وخاصة في أيام الخلفاء . وكانت مركزاً للفكر والحياة العلميـة على ما نعرف من مختلف المصادر . وقد زار ناصري خسرو مصر في أيام المستنصر وترك لها وصفاً وافياً نستدل منهُ على ما بلغتهُ من ثروة وعظمة [1]

على ان تلاعب الوزراء في شؤون الخلافة ، وتوليتهم خلفاء صبياناً ليكونوا آلة في أيديهم ، أدّى الى اضعاف مصر . وتوالى عليها ، فضلاً عن ذلك قحط وجوع ووباء ، فأدّت هـذه الأسباب كلها مجتمعة الى اضعاف البلاد . فهيأت بنفسها الجو الذي مكن لصلاح الدين من القضاء على الخلافة المضطربة وانشاء دولته الايوبية على أنقاضها وعلى أنقاض الدولة النورية في سوريا

— ٢ —

عرضنا لهذه الخصومات المحلية بشيء من التفصيل ، لأننا أردنا أن نضع أمامنا صورة واضحة تسهل علينا فهم السرعة التي استطاع بهـا الصليبيون الاستيلاء على سوريا

---

(١) راجع المختارات فيما بعد (القسم الثاني ، الفصل الأول) من هذا الكتاب

ولو كنا نؤرخ للحملات الصليبية لكان لزاماً علينا أن نتناول العوامل التي أدت بهذه الجموع الكبيرة العدد المتباينة الاجناس الى ترك بلادها والهجوم على بلادنا لكننا نرى ان نترك هذا كله ، ونعنى بناحية واحدة من تاريخ الحروب الصليبية وهذه الناحية هي كون هذه الحملات جزءاً من تاريخ الشرق العربي في العصور المتوسطة. وعلى هذا الاساس يمكن حسبانها أول محاولة من جانب أوروبا لاستعمار الشرق العربي

لما وصل الصليبيون الى سوريا لافتتاحها كانت طرابلس مستقلة يحكمها بنو عمار منذ سنة ١٠٨٩م وشيزر يحكمها بنو منقذ منذ سنة ١٠٨١م ، وكانت القدس وعسقلان وعكا وصور وجبيل قد عادت الى ملك الفاطميين الذين انتزعوها من السلاجقة . وفي سنة ١٠٩٤م فرض ططش سلطانه على حلب والرها والموصل . ولما قتل في العام التالي اختلف ابناه رضوان ودقاق وأيدهما القواد الطامعون في الملك ، واستأثر رضوان بحلب ١٠٩٥—١١١٣م أما دقاق فاختار دمشق ١٠٩٥ — ١١٠٤ م ، واستمرت الخصومات بينهما

فلم يكن غريباً والحالة هذه أن يحتل الصليبيون سوريا بهذا اليسر وبهذه السرعة . فانهم خرجوا من بلادهم سنة ١٠٩٦ م ومرت الحملة الاولى بالقسطنطينية وقاتلوا السلاجقة في تركيا ثم استولوا على الرها وانطاكية سنة ١٠٩٨م واتجهوا نحو المعرة فاحتلوها ودمروها وقتلوا من أهلها عدداً كبيراً ، يقدره بعض الرواة بمئة الف ، ومنها ساروا الى طرطوس بطريق وادي البقيعة وحصن الاكراد . وكانت الرملة أول ما احتل من فلسطين ، لأن غودفري رأى ان يتجه الجيش نحو القدس فتركت طرابلس وصور وعكا موقتاً . وحاصر الصليبيون القدس ثم احتلوها يوم ١٥ يوليو ١٠٩٩م [1] وبعد نحو شهر انتصروا على جيش مصري قرب عسقلان ، لكن المدينة نفسها ظلت فاطمية [٢] واستمرت مركزاً من مراكز الاسطول الفاطمي الذي أخذ يضايق الصليبيين بعض المضايقة

ولي غود فري امر القدس . وكان بلدوين قد رأس الرها وبوهمند قد استقر في انطاكية .ووجه غود فري همته الآن نحو الموانيء السورية . وتقدمت المدن الايطالية بالمساعدة العسكرية والبحرية لقاء امتيازات تحصل عليها في هذه الموانيء . فأعانه البيزيون على احتلال يافا سنة ١١٠٠ .ومات غود فري والاسطول البندقي على حصار

(١) قام الصليبيون بمذبحة كبيرة في القدس لما دخلوها . وقد قدر القتلى بنحو سبعين الفاً

(٢) لم تسقط عسقلان بأيدي الصليبيين إلا في سنة ١١٥٣ م

حيفا . اما عكا وارسوف وقيسارية فقد عقدت معاهدات على أساس دفع جزية للعدو

وفي زمن بلدوين الاول ١١٠٠ — ١١١٨م أصبحت القدس عاصمة مملكة تمتد من بيروت الى العقبة . وسقطت طرابلس ١١٠٩ م وجعلت امارة مستقلة

وهكذا نجد انهُ في سنة ١١١٨ م كانت سوريا الساحلية ، مع امتداد الى الشرق من نهر الاردن ، قد اصبحت في ايدي الصليبيين وصارت اربع وحدات سياسية — هي امارات الرها وانطاكية وطرابلس ومملكة القدس . وكانت الامارات تعتبر نفسها تابعة للمملكة

لكن في سنة ١١٤٤ بدأ رد الفعل من الجانب العربي الاسلامي. فقد احتل عماد الدين زنكي اتابك الموصل سنة ١١٢٧ — ١١٤٦ في تلك السنة الرها . وكان عماد الدين أول واحد من جماعة من القواد الكبار الذين عملوا تدريجاً على اخراج الصليبيين من هذه البلاد ، وهم نور الدين وصلاح الدين والملك العادل والملك الكامل والملك الظاهر وقلاوون وابنه

وجه نور الدين همه الى توحيد إملاكه فانتزع أجزاء من أمارة انطاكية واحتل دمشق من حاكمها السلجوقي وأتمّ فتح إمارة الرها . ثم تدخل في شؤون مصر أثر خلاف بين وزيري الخليفة الفاطمي ، وانتهى التدخل الذي اشترك فيه أسد الدين شيركوه وصلاح الدين بأن تولى الاول شؤون مصر نائباً عن نور الدين ثم تولاها الثاني بعده. وألغى صلاح الدين الخلافة الفاطمية نهائيًّا سنة ٥٦٧ ﻫ (١١٧١) ، وأعاد مصر لسلطان الخليفة العباسي المستضيء

وفي سنة ١١٧٤ م اصبح صلاح الدين سيد مصر وسوريا معاً وكانت الحجاز تتبع مصر ، وكان اخوه قد استولى على اليمن . وولّى الخليفة العباسي صلاح الدين سنة ١١٧٥ حكم مصر والمغرب والنوبة وغربي شبه الجزيرة وسوريا وفلسطين. وبذلك تمّ استعداده للعمل الذي كرّس حياته ونفسه له — وهو اخراج الصليبيين من هذه البلاد

وكانت معركة حطين ٥٨٣ ﻫ ١١٨٧م نتيجة هذه الجهود النورية الصلاحية . وانتصر فيها صلاح الدين . ومعركة حطين ليست انتصاراً عاديًّا في معركة ولكنها كانت في الواقع نهاية للنجاح الصليبي في هذه البلاد وان تأخر اخراجهم من سوريا قرناً وبعض القرن . وبعد ان استولى صلاح الدين على القدس سلمت له حصون الافرنج دون مقاومة تذكر. فاللاذقية وجبلة وصهيون في الشمال والكرك والشوبك في الجنوب والشقيف

(اونون) وصفد وكوكب[١] وعكا اصبحت كلها في قبضته . ولم يبق من المدن التي تستحق الذكر في ايدي الافرنج الاّ انطاكية وطرابلس وصور

وجاء حصار عكاء سنة ١١٨٩—١١٩١م ، الذي كان نتيجة للحملة الثالثة ، بقيادة ريكاردوس وفردريك بربروسا وفيليب ، فأوقف تقدم الجيوش الصلاحية ، وانتهى بصلح الرملة[٢] بين صلاح الدين وريكاردوس . وبعد ذلك ببضعة أسابيع مرض صلاح الدين في دمشق وانتقل الى رحمته تعالى

— ٣ —

يمثل القرن الثالث عشر في تاريخ الشرق العربي فترة من فترات الخطر . فقد كان الافرنج لا يزالون في سوريا ، وقد أخذت مصر تغريهم بفتحها أيضاً . كما ان جموع التتار التي جاءت من الشرق وصلت الى قلب العالم العربي فاحتلت بغداد سنة ٦٥٦ﻫ ١٢٥٨م ودمرتها ، وهاجمت سوريا وكادت تحتلها وتسير الى مصر لولا أن كسرت في معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠ م . على ان القرن نفسه ما كاد ينتهي حتى كان الخطران ، الاوروبي والتتاري ، قد دفعا عن سوريا ومصر . وكان للمماليك ودولتهم فضل كبير في ذلك وهذا ما نريد أن نعرض لهُ الآن

ان جزءاً كبيراً مما افتتحهُ صلاح الدين استعاده الصليبيون ، فبيروت والناصرة والقدس وبيت لحم وصفد وطبريا وعسقلان عادت لهم . ولم يقاتلوا في سبيل واحدة منها . ولكنها اعيدت بمعاهدات مع العادل والكامل واسمعيل وأيوب في سنوات ١١٩٨ و ١٢٠٤ و ١٢٤٠ و ١٢٤١م . ومن الثابت ان الحملات الغربية نفسها لم تنجح نجاحاً حربيّاً يشرّفها . وخير الحملات أثراً في استعادة شيء هي حملة ١٢٢٨ — ١٢٢٩ ، فان فردرك الثاني نال ما نال بالمفاوضة وبتأثير شخصيته لا بتأثير جيشه وأسلحته

ولا شك في ان السلاطين سلموا له لانهم لم يريدوا ان يجرد الغرب عليهم جيوشه الجرارة وعندهم في بلادهم ما يكفيهم من المتاعب . ولو دروا ان الغرب وهنت منه

---

(١) كوكب الهوا الى الشمال من بيسان
(٢) صلح الرملة ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١١٩٢م

القوى ، وخارت النفوس ، وأقوت الموارد ، وخلت الجيوب ، لما تساهلوا هذا التساهل ، وتراخوا هذا التراخي

أما لاتينيو سوريا فقد كان السعيد منهم من يمتد حكمه الى الاراضي المجاورة لقلعته دون ان يلاقي من يناهضه دونها ويقاتله في سبيلها

مات صلاح الدين فانقسم ملكه بين ابنائه الثلاثة. فكان « للملك الافضل نور الدين علي » دمشق وجنوبي سوريا و « للملك العزيز عماد الدين عثمان » مصر و « للملك الظاهر غياث الدين غازي » حلب وشمالي سوريا . وقد أدى هذا الانقسام الى ضعف ظهر في القوة الواحدة المجتمعة ، كما فتح امام الاخوة باب الخصام . وقد بدأ ذلك بحرب بين الأفضل والعزيز ، ونصر الملك العادل ، اخو صلاح الدين ، العزيز وناب عنه في سلطنة دمشق ، في سنة ٥٩٢ هـ—١١٩٦ م ، وكان على شيء كبير من الاستقلال. فلما مات العزيز في سنة ١١٩٨م ، خلفه العادل ملكاً على البلاد ، ثم ناوأ الظاهر العداء فاعترف به هذا اخيراً سنة ١٢٠٢ فصار الملك العادل ملك القطرين ولقب نفسه « بالسلطان »

وفي سنة ١٢١٨ قرر الصليبيون في « عتليت » ان يهاجموا مصر ، لأن جماعة من الغرب وأسطولاً قدما عليهم ، فساروا اليها واحتلوا « دمياط » وتقدموا في البلاد وانكسر امامهم جيش العادل الذي مات متأثراً من هزيمته ، فخلفه ابنه « الملك الكامل ناصر الدين محمد » في مصر ، وابنه الثاني « الملك المعظم شرف الدين عيسى » في دمشق . فشدد الاول عزيمة الجند وحمل عليهم حملات صادقات ، وقاتلهم حتى اضطرهم الى التقهقر والخروج من مصر ٦١٨هـ ١٢٢١م

أقسم فردريك ان يعين الصليبيين ويحارب في جانبهم لما توّج سنة ١٢١٥ م ، وقد بدأ بذلك في الحملة المصرية ، فحاول إيجاد روح معاضدة لها في اوربا . وبعد حين تزوج ابنة ملك القدس وادعى لنفسهِ الحق بهذا اللقب ، ثم أخذ يهيء نفسه لاحتلال القدس ، وفي سنة ١٢٢٧ كان على أهبة السير لكن عاقه تأخر في صحته . فاعتبر البابا ذلك تقصيراً وحرمه ، ولما أعلن رغبته واستعداده للسير منعه البابا ، لكنه سار غير مبالٍ مارّاً بقبرص ، وألقى مراسيه في عكاء ١٢٢٨

جاء فردريك بعدد قليل من جنده الخاص ، ولما صار في البلاد ، أدرك انه لا يمكنه الاعتماد على لاتينيي سوريا في قتال او صدام مع الامراء الوطنيين ، لأن البابا

امر بعدم الاعتراف به ، فلم يعنهُ الفرسان . وكل ما قام به تحصين يافا . لكن فردريك بدأ بمفاوضة امراء المسلمين دون ان يستشير رؤساء الفرق الدينية ولا القاصد الرسولي (نائب البابا في فلسطين)

كان الملك الكامل قد علم بما أخذ به فردريك نفسه من غزو الشرق ، وكان على استعداد لان يفاوضه ويصالحه ويعيد اليه بعض الاماكن المقدسة . وفي أثناء ذلك مات الملك المعظم ، وصار نفوذ الكامل كبيراً ، ثم جاء فردريك وأدرك الكامل ضعف جيشه وما بينه وبين البابا من النفور ، فأراد ان يستفيد من ذلك في تقليل الجزء المعاد . ودامت المفاوضات خمسة أشهر ثم علم فردريك انهُ يتحتم عليه ان يعود الى بلاده ليدفع عن عرشه شرّا مستطيراً كان على وشك القضاء عليه . وكانت المفاوضات على جانب من الكياسة واللطف . وفي ١٨ (شباط) فبراير سنة ١٢٢٩ عقدت بين الفريقين معاهدة لعشر سنوات

وأكبر ما يلفت النظر في هذه المعاهدة تنازل الملك عن القدس للامبراطور فردريك على ان تبقى المساجد للمسلمين ويسمح لهم بالزيارة دائماً . كذلك أعيدت بيت لحم والناصرة وبعض القرى الواقعة بينهما لتأمين الاتصال التام مع القدس

وكانت آخر الحملات الصليبية نتيجة لعاملين : — حماسة دينية اشتعل بها صدر لويس التاسع ملك فرنسا ، ومال كثير كان في خزائنه . بدأ هذا يفكر في الامر سنة ١٢٤٤ ، فجمعت الاموال الكثيرة بمساعدة البابا ورجاله ، وكادت اوربا تنهض ثانية لنصرة هذه الفكرة ومعاودة احتلال الاراضي المقدسة ، لكن العداء الشديد بين البابوية والامبراطورية حال دون ذلك ، فلما بدأ لويس عمله سنة ١٢٤٨ كانت الحملة « فرنسية » محضة يقوم بها الملك وحده ، فشتى الملك في قبرص ثم حمل على مصر فنجح في احتلال دمياط سنة ١٢٤٩ ، لكن الامر انتهى ، بعد قتال طويل بأسر الملك لويس ونبلائه . على ان الامراء المماليك تمكنوا من التفاهم مع لويس وعقد الصلح معه . فكان على لويس أن يدفع نفقات حربية وفدية . عن أسراه ونفسه . ففعل . وعاد اكثر من كان معهُ الى بلادهم اما هو فجاء الى فلسطين . وهنا سمح لأخوته بالعودة الى فرنسا . وأرسل يطلب من رجال الدين والحرب المساعدة قائلاً لهم ان سوريا ومصر المسلمتين تكادان تقتتلان .

دامت اقامته في سوريا الجنوبية اربع سنوات . لكنهُ لم يتمكن من المهاجمة بالالف

والار بعمئة الذين كانوا لديه فكان يفاوض ويعمر القلاع والحصون ثم ترك البلاد آسفاً عليها تمكن الصليبيون من ان يقيموا في البلاد نحو اربعين عاماً بعد عودة لويس . ويعود ذلك الى (١) وجود مملكة دمشق (٢) قيام التتار وهجومهم على سوريا في هذه الاثناء . فهذان الامران منعا المماليك من القيام بطرد الصليبيين حالاً . ولما فرغ المماليك من امورهم الاخرى ، طاردوا الصليبيين حتى أجلوهم عن البلاد جلاء تامّـا حربيّـا . وقد أعانوهم هم على أنفسهم بما اصابهم من تفرق وانقسام

— ٤ —

قد اتخذ خلفاء بغداد منذ اجيال عدة عادة سيئة هددت عرش خلافتهم بالزوال وهي جلب الالوف من العبيد ذوي الاسماء الحوشية ، من قبائل التركمان والمغول ، واستخدامهم حرساً لهم ، ومادة لجيشهم ، ليناهضوا بهم الجنود العربية . فاستفحل امرهم ، واصبحوا سدى الجيش ولحمته . فكانوا يأتون عبيداً ، فلا يلبثون ان يصبحوا ذوي الامر والنهي ، في بيت الملك ، يشعلون نيران الفتن والقلاقل ، حتى عجلوا أجل الخلافة المنهوكة المنحلة . وسلك سبيلهم في ذلك خلفاء الفاطميين . فأصابهم مثل ما أصاب من قبلهم . وقد نحت دولة الايوبيين (وهي الدولة التي انشأها صلاح الدين وانتهت بطوران شاه) بعدهم هذا النحو . وقد أسكن امراء الايوبيين مماليكهم من الترك والمغول في جزيرة في النيل (جزيرة الروضة) ليكونوا بعيدين عن المدينة ولذلك سموا بالمماليك البحرية . واول أسرة من المماليك ١٢٦٠—١٣٨٢ م كانت من هذه الطائفة. اما المماليك الآخرون فانهم جلبوا الى البلاد بعد ذلك وسموا «البرجية» نسبة الى الابراج التي كانوا يقطنونها في القلعة او في ارجاء المدينة ومعظمهم ينتسب الى الجنس الچركسي ومن هؤلاء كانت اسرة المماليك الثانية ١٣٨٢ — ١٥١٧ م

انقرضت الدولة الايوبية سنة ١٢٥٠م وتولى الامر بعدها دولة المماليك وهم يرجعون بتاريخهم الى الملك الصالح الأيوبي الذي جلب عدداً كبيراً منهم ، فكانت لهم اليد العليا في أمور الدولة وشؤونها وجيوشها ، مما أدى بهم الى الطمع بالاستقلال وتولي زمام الأمر . فقام « عز الدين ايبك » التركماني ، واضعاً نفسه بدل الاشرف موسى الايوبي الذي كان بعد صبيّـا . وكان ايبك هذا ثاني ملوك هذه الدولة . وأولها « شجرة الدر » الملكة . تزوج ايبك شجرة الدر هذه ، وسلبها كل سلطـة ، فانتقمت لنفسها بقتله ،

فقتلها ابنه المنصور انتقاماً لأبيه ، وتولى الأمر بعده . وعقبه على الملك بعد ان عزله « سيف الدولة قطز » . وفي عهد هذا وقعت النكبة العظيمة ، نكبة تخريب بغداد على يد التتار ، وانقراض الدولة العباسية سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م

تقدم التتار الى بغداد ، فاستولوا على شمالي العراق والموصل وحلب وشمالي سوريا ، ونزلوا الى الجنوب ، وأنفذ قائدهم « هولاكو » رسولاً الى مماليك مصر ، يطلب منهم تسليم البلاد ، ويهددهم ان لم يفعلوا ذلك بالزحف عليهم ، فلم يعبأ قطز بهذا الانذار ، بل جمع الجيوش وكانت مؤلفة من عرب وكرد وترك وعجم ، وولى أمرهم « ركن الدولة بيبرس» الذي لقب فيما بعد بالظاهر بيبرس . فالتقى هذا القائد بجند التتار وكانوا تحت قيادة « كتبغا » ، بالقرب من بيسان على نهر « الجالوذ » الذي يصب في الأردن سنة ١٢٦٠ ، فكانت واقعة من أشهر مواقع التاريخ ، ومن مواقعه الحاسمة ، انتصر فيها بيبرس على التتار انتصاراً باهراً ، وبذلك حفظ بقية البلاد السورية والمصرية من غارة الاقوام البربرية . ومن بعدها جهز جيوشه ليقضي على آمال الصليبيين وبقية جنودهم التي كانت مبعثرة في هذه البلاد . فتولى أمر الملك بعد قطز وانتصر على الصليبيين في محاربته لهم وهدم عليهم يافا وانطاكية ، ووصل بفتوحاته الى آسيا الصغرى . وبذلك أعاد الى العالم الاسلامي وحدته . وجاراه خلفاؤه في هذا الامر ، وفي هذه الخطة ، فكان منهم « قلاوون » الذي جهز الجيوش ليضرب الصليبيين ضربة قاضية في عكاء آخر حصونهم وقلاعهم . وكذلك ابنه الاشرف خليل الذي أصلى اللاتين حروباً حامية ، وطردهم نهائيًّا من البلاد

تعتبر سنة ارتقاء بيبرس العرش بدء عهد جديد في اصطدام الشرق بالغرب إذ عادت اليه روح صلاح الدين وهمته . وقد كان بيبرس الرجل الذي يحسن اغتنام الفرصة ، ويعرف كيف يستفيد من الظروف . احتل بيبرس دمشق سنة ١٢٦١ وكان قد عصي بها واليها وأبى الاذعان للسلطان الجديد . ثم أخذ السلطان على عاتقه تنظيم الأمور ، وترتيب الجيوش ، وتقوية القلاع والحصون . وجاء بيبرس في تلك السنة بأحد أبناء العباسيين من بغداد وأقامه « خليفة عباسيًّا» في القاهرة . واعترف بسلطانه الديني ، بل حمله على محاولة استعادة بغداد من أيدي التتار ، لكنه لم يعنه اعانة كافية

وعاد بيبرس في السنة التالية الى مصر . وكانت له على الخصوص علاقات ودية مع « ميشيل الثامن » أمبراطور القسطنطينية الذي كان قد استردها من اللاتين في سنة

١٢٦١م ، لما كان بين هذا والصليبيين من العداء والنفور والوحشة . وفي سنة ١٢٦٣ تعرّف بيبرس الى كل الساحات الحربية ، وتفهّم حالة جيشه تماماً . ودخل فلسطين وجعل معسكره في جبل الطور (قرب الناصرة) . وحضرت اليه الوفود من اللاتين ، فلم تسفر المقابلات عن شيء سلمي . وفي السنة نفسها احتل الكرك ثم عاد الى مصر . وصرف جزءاً كبيراً من السنة في الاهتمام بأمور داخلية وأخصها الامور العلمية والدينية فبنى في القاهرة « المدرسة الظاهرية »

وفي سنة ١٢٦٥ عاود التتر الهجوم على سوريا . فقام بيبرس لمناهضتهم ودخل جنوب سوريا ، فلما ارتدوا ، بدأ يهاجم القلاع والمدن اللاتينية . فاحتل قيسارية وهدمها ثم استولى على عتليت وحيفا وارسوف. ولما رأى بيبرس ان اتمام هذه الحملات يقتضي استعدادات خاصة ، تلكأ الى السنة التالية ليدبر امره . ثم هاجم صور وصيدا وطرابلس وعكا واخذ يستعد لمهاجمة صفد . التي أعمل فيها تخريباً وتدميراً حتى سلمت حاميتها على أن تحفظ أرواحهم ١٨ شوال سنة ٦٦٤ هـ ٢٣ تموز (يوليو) سنة ١٢٦٥م ولكن بيبرس قتلهم كلهم بعد الاستيلاء على القلعة . وقد ألح سكان المدن اللاتينية الآن في عقد محالفات ، لكن رفض طلب كثير من المدن ومنها عكا

وفي سنة ١٢٦٧ اتخذ السلطان صفد مركزاً لهُ ، وأغار على عكاء وما اليها ، دون أن يحتلهـا . ثم وجه همته نحو شمال سوريا فانتصر في معاركه لمـا ساد الصليبيين من الانقسام بين أنفسهم وتمكن من احتلال انطاكية التي كانت حاميتها ٨٠٠٠ وكان عدد سكانها ١٠٠ ٠٠٠ وكانت الثروة فيها الى درجة ان الغنائم من النقود كيلت للناس بالأكواب ، وبيع العبد الواحد من أولاد انطاكية بـ « ١٢ » والبنت بـ « ٥ » من الدراهم ، ثم أحرق الجند كل ما بقي

ولما كان السلطان عائداً من الشمال من دمشق طلب اليه لاتينيو عكا الصلح فرضي على أن يقتسم أراضي عكا وصيدا وحيفا مع الصليبيين ، فرفض اللاتين ذلك وظلت العلاقات علاقات غزو وهجوم

وفي سنة ١٢٧٠ عاد بيبرس الى مصر ليستعد لمصادمة حملة لويس التاسع ملك فرنسا الثانية ، لكن ملك فرنسا ألقى مراسيه في تونس فأصيب هناك بالطاعون ومات ، فانفض القوم بعده كأن لم تكن حرب أو حملة

ولما جاء عكا الامير ادورد الانكليزي وجنده سنة ١٢٧١ رضي بيبرس بعقد الهدنة

مع المدينة لعشر سنين . فوجه السلطان همه الى قلعة القرين التي احتلها في تلك السنة ، وبذلك أراح نفسه وجنده في صفد من غزوات فرسانها الدائمة

وعقب ذلك عقد معاهدات مع كل المدن اللاتينية الأخرى . ومن المهم ان نلاحظ ان هذه المعاهدات كانت تعتبر لاغية بموت أحد المتعاهدين . وهذا ما حدث لما مات بيبرس في ٢٧ محرم سنة ٦٧٦ هـ، اول تموز (يوليو) سنة ١٢٧٧م.وقد صرف بيبرس المدة بين عقد محالفته مع اللاتين وموته في هجوم متواصل على قلاع الحشاشين في شمال سوريا وعلى مملكة ارمينيا

خلف الملك الظاهر ابنه الملك السعيد لكنه لم يبق في الأمر إلاّ مدة قصيرة فخلع نفسه وسكن الكرك على أن تكون خاصة به ولم تطل مدة ملك أخيه الصغير إلاّ ثلاثة أشهر فخلعه سيف الدين قلاوون ، وسمى نفسه الملك المنصور سنة ١٢٧٩ ، وكان عليه أن يهدىء اضطراباً داخلياً في شمال سوريا ، فقام اليها بنفسه، فنجح ثم هاجمه التتار وقام عليه صليبيو الشمال ، فعاهد الآخرين وقاتل الاولين بقيادة « منجو تيمور » (ابن هولاكو) في سهل حمص فانتصر عليهم انتصاراً مبيناً

أما الصليبيون فقد اغتنموا فرصة عقد الصلح مع قلاوون فاقتتلوا فيما بينهم وسهلوا له مهمة الانتصار عليهم

ولن نطيل التحدث عن الغزوات التي شنها الملك المنصور سيف الدين قلاوون على اللاتين ، تحاشياً للتفصيل ، ولكننا نسهب بعض الاسهاب في احتلال عكاء ، لأن سقوط هذا الحصن كان الضربة القاضية على الأطماع اللاتينية في سوريا

كان الصليبيون في سوريا تحت رحمة السلطان . وقد كان أملهم الوحيد أن تلبي أوروبا دعوة البابا ، فتلتفت اليهم . لكن شيئاً من ذلك لم يكن ، لأن الناس ملوا الحروب التي أرهقتهم وأضنتهم وملكت عليهم نفوسهم ، فتحرروا من ربقتها ، ووجهوا همهم نحو مصالحهم التجارية وغير التجارية

لكن جماعة ، يتراوح عددها بين الالف والالفين ، أثر فيها نداء البابا ، وكانت مزمعة الحج وزيارة بيت المقدس ، فجاءت الشرق ، وحلت في عكاء في سنة ١٢٩٠ فكانت نتيجة نزولهم ان حملوا السلطان على الاسراع في الاستعداد لمهاجمة عكاء ، لأنهم نقضوا العهد وأضروا ببعض من كانوا يقطنون حول عكاء . لكن السلطان مات في سنة ١٢٩٠، في ليلة العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ٦ من ذي القعدة ٦٨٩هـ

ولما يقم بالهجوم على البلاد . فخلفه ابنه الملك الاشرف خليل الذي ساو يتم ما بدأ به ابوه من استعداد بقصد الهجوم على عكاء

كان جيش الملك الاشرف الذي تجمع أمام عكاء في ربيع سنة ١٢٩١ مجهزاً بالكثيرين من رجال الحصار المختصين . وكان معه من آلات الحصار تسع وعشرون ، وكان عدد الجيش كبيراً جداً

أما عكاء فقد كانت حصونها منيعة لكن حاميتها ليست على ما يرام ، فقد كان عدد جند الحامية يتفاوت بين ١٤٠٠٠ و ١٨٠٠٠ راجل وبين ٧٠٠ و ٩٠٠ فارس

وصلت اول فرقة من فرق الجيش المحاصر حول اواخر اذار (مارس) ١٢٩١ ووصلت آلات الحصار في ٧ نيسان (ابريل) ورتبت في ١١ منه وبدأ الحصار الجدي في ٤ ايار (مايو) ، اذ بدأت الجيوش تطلق قذائفها على المدينة ودامت على ذلك عشرة ايام ، وقد كان اثر هذا الامر شديداً حتى ان المحاصرين خامرهم الريب في انفسهم واستسلموا لليأس والقنوط . وأرسل بعضهم عيالهم وأموالهم الى قبرص ، والفرسان الذين لم يكونوا مجبورين على البقاء هجروا المدينة . لكن بقي من الحامية ١٢٠٠٠

وعقب هذا الاطلاق المتواصل استعداداً لنسف المدينة ، فرد المحصورون الهجوم الاول في ١٥ ايار (مايو) ، ويوم ١٦ ايار كان فيه القتال شديداً

ولما تمكن المسلمون من الاستيلاء على بعض جهات من الاسوار خرقوا في السور فتحة لتسهل دخولهم ؛ لكن « متّى كلرمون » مارشال فرقة القديس يوحنا تمكن من اخراجهم من المدينة

وفي تلك الليلة بني سور موقت خلف الثغرة ، ووضعت خلفه المجانيق لحراسته

صرف جند الملك الاشرف ليلتهم واليوم التالي يستريحون ويستعدون للهجوم النهائي ، الذي قاموا به في اليوم الثامن عشر من شهر ايار (مايو) . وبدأوا قبل شروق الشمس وتمكنوا من الدخول الى المدينة من الثغرة الأولى والباب المجاور وثغرات اخرى اخترقوها . وقد قتل في هذا اليوم المارشال متّى وجرح رئيس فرقة فرسان المستشفى . وهرب الملك هنري وبعض القواد الباقين . واعتصم من لم يفر بالابنية الكبيرة التي في المدينة ثم اضطروا الى التسليم . وعندها امر الملك الاشرف بهدم التحصينات وحرق البيوت

— ٥ —

يجدر بنا ان نلقي الساعة نظرة عامة على احوال الشرق الادنى التجارية بين الفتح العربي وانتهاء الحملات الصليبية ، لان ذلك يمكننا من فهم الامور فهماً صحيحاً

كانت التجـارة بين البحـر المتوسط وبلاد الشرق الاقصى تتبع احد طرق اربعة : أولها يجتاز تركستان الى بحر الخزر ومن هنا تنقل البضائع الى نصيبين او الى طرابزون على البحر الاسود وثانيها يجتاز الهند وفارس وينتهي بنصيبين او يصل الى سوريا . وثالثها الطريق البحري الى خليج فارس ثم يخترق العراق الى سوريا . اما الرابع فيتبع طريقاً بحرياً الى مصر رأساً من البحر الاحمر[١] . وكانت هذه الطرق الاربعة ، وعلى الاخص الاول والرابع ، نشيطة في القرنين الخامس والسادس للميلاد. وذلك لأن هذين الطريقين لم يكونا يجتازان ارض فارس .وقد كانت فارس تضيّق على التجار الخناق فكانوا يتجنبون اجتياز بلادها خصوصاً اذا كانت المتاجر للبزنطيين . لكن تجارة الحرير وهو المادة التي كانت بزنطية تعنى بها عناية كبيرة كاد يكون حكراً للطريقين الفارسيين .وكانت نصيبين في مقدمة المراكز الجركية لهذه السلعة . فاذا اجتاز الحرير الخام هذه المدينة نقل الى مصانع صور وبيروت والقسطنطينية . وطريق البحر الاحمر كان طريق التوابل والافاويه . ولعلّ جزيرة سيلان (سرنديب) كانت مركز التبادل الرئيسي بين تجار الشرق الاقصى والشرق العربي . فكان الحرير يحمل من الصين والحرير والقرنفل وخشب الصندل من الهند الصينية والفلفل من مالابار والنحاس من الهند (قرب بمباي) والمسك والخروع من السند — كان كل اولئك يحمل الى سيلان حيث تضاف اليه لآلئها ثم يتقدم التجار لابتياعه وتنشط السفن لحمله . وكانت ادوليس عاصمة مملكة اكسيوم الحبشية والقلزم على البحر الأحمر مركزين رئيسيين للنقل . فاذا وصلت المتاجر شواطىء البحر المتوسط الشرقية قام السوريون بتوزيعها في الغرب

ولما تحارب جستنيان مع الفرس تعطل الاتجار بالحرير ، لأن الامبراطور حاول أن يحدد أسعاره ، فامتنع التجار عن التعامل به ، وانتقل بيع الحرير وصنعه والاتجار به الى الخزينة ، وأصبح من محتكرات الدولة

(١) Heyd I, pp. 1-24

وفي القرن السابع للميلاد فتح العرب العراق وسوريا ومصر ، فكانت النتيجة المباشرة لذلك انقطاع الاتصال التجاري بين سوريا ومصر من جهة وبين البزنطيين من جهة أخرى . ويمكن أن نلاحظ بشكل عام ان التجارة البحرية في المتوسط أصبحت في القرنين السابع والثامن للميلاد مقصورة على أجزائهِ الشمالية ، وكان البزنطيون حملة البضائع على اختلاف أنواعها . أما في العالم الأسلامي فقد اتجهت التجارة الى البحر الأحمر والبر الافريقي . فكانت القوافل تحمل متاجر الهند عبر فارس وسوريا وشمال افريقيا الى الاندلس . وأصبحت بالس ومصر وطرابلس وتونس مراكز رئيسية لهذه التجارة البرية . وانتقلت تجارة البحر الاحمر من أدوليس الى عدن

على ان هذه الفترة من الانقطاع التجاري لم تدم . فلم يلبث العرب أن استعملوا طريقاً بريّـاً يصل سوريا بأرمينيا ومنها الى حوض الفلغا، ومن ثمّ الى أنحاء أخرى من أوربا . وقد وجدت نقود عربية من القرن الثامن الميلادي حتى في اسكندنافيا . ويرى ياكوبي ان تجار العرب أنفسهم لعلهم لم يتجاوزوا براغ ، ولعلّ التجار المحليين هم الذين قاموا بعد ذلك بنقل التجارات الغربية الى بلادهم [1]

أما البضائع العربية التي كانت ترسل الى تلك الاصقاع فكانت المنسوجات القطنية والحريرية والحبال والفواكه والخمر . أما ماكان يحمل من هناك الى العالم العربي فكان يشمل الفراء ، وخاصة فرو السمور والثعلب والاسود [2] والسنجاب [3] والارانب الملونة [4] والعسل البلغاري والبغال البلغارية . وكان الرقيق من المتاجر الرئيسية التي تجد هنا سوقاً واسعة

كان موقف البزنطيين من العرب أول الأمر موقفاً عدائيّـاً حتى انهم عملوا مع البابا على احباط كل محاولة للاتجار مع سوريا . فالغزو والقرصانُ الرسمي والمكوس الثقيلة كانت وسائل بزنطية لمنع التعامل التجاري [5] . وفي أيام الأمبراطور ليون ٨١٤ — ٨٢٠م تمّ اتفاق بينه وبين اعيان البندقية على الامتناع عن الاتجار مع سوريا ومصر

لكن هذا تغير في اوائل القرن العاشر . فأبطلت بزنطية في سنة ٩٢١ م تقاضي العشر على السفن الذاهبة الى سوريا . وفي سنة ١٠٣٠ عقدت معاهدة مع امراء

---

(١) الحسني ص ٨١ عن ياكوبي ص ١٢٢
(٢) ابن حوقل ص ٢٨٢ (٣) اليعقوبي ص ٥٥ (٤) المقدسي ص ٣٢٥
(٥) راجع الحسني ص ٨٤

حلب [١] كان من شروطها ان لا يعتدى على القوافل التجارية . وفي هذه المدة كانت الفضة والذهب والعاج والديباج والقز الخام والاحجار الكريمة والكتان يتبادل بها بين البلادين

على ان القرن العاشر الميلادي جاء بمزاحم جديد للبزنطيين في تجارة البحر المتوسط اذ دخلت المدن الايطالية الحلبة . فالبندقية ونابلي وغيتا وبيزا وجنوه وامالفي جاءت الآن . وكانت كلها تريد امتيازات تجارية في القسطنطينية . وكانت البندقية أصلحها ميناءً وأنسبها مركزاً لنقل متاجر لومبارديا والمانيا،لذلك كانت أغناها وأقواها .وكان البنادقة قد وضعوا انفسهم تحت اشراف بزنطية ، لتدافع عنهم بأسطولها ، فمنحتهم امتيازات تجارية خاصة بهم . فلما قوي البنادقة (حول السنة ١٠٠٠) اشتدت منافستهم التجارية لحماتهم الاسميين . وكانت مصنوعات البندقية محببة لجمهور المستهلكين لأنها كانت تتحسن وتتفوق على غيرها

وعني البنادقة والجنويون بموانىء سوريا ، فاتجهوا نحو صور وعكاء ، فقلت أهمية القسطنطينية التجارية ، وأخذت تضعف ، فلما احتل السلاجقة شرق آسيا الصغرى (القرن الحادي عشر) وأخذ النورمان يعنون بالسيطرة على البحر المتوسط الشرقي من صقلية ويخاصمون البزنطيين ، كان ذلك ايذاناً بأن بزنطية يجب ان تنصرف عن محاولة السيطرة على التجارة في الشرق الادنى

وجاءت الحملات الصليبية فغيرت ما كان قد ألفه النـاس ، وكانت الضربة الاخيرة لثروة بزنطية التجارية . فقد اقتصرت بعد ذلك على الطريق الشمالي لكن حتى هذا لم يلبث ان انتزعه تجار البندقية وجنوه وبيزا بالتدريج [٢]

كان ثغر السويدية اول ثغر احتله الصليبيون في سوريا (١٠٩٧) وكان الجنويون قد ساعدوا بوهمند على احتلاله واحتلال انطاكية فسمح لهم بثلاثين بيتاً ومساحة لبناء كنيسة وبيت كبير لخزن البضائع (fondaco) مع اعفاء كل هذه من الضرائب . وهذا المثل يوضح لنا سيرة المدن الايطالية في مساعدتها لملوك القدس فيما بعد . فقد كان للجنويين ثلث عكاء وبعض البيوت في اللاذقية وطرابلس ، وكان للبيزيين ربع يافا وكان للبنادقة مكان خاص في القدس وحيفا . أما أهل مونبلييه فقد رخص لهم بعمارة اسواق للبيع في عكاءَ ويافا

---

(١) هم بنو مرداس (٢) Runciman pp. 169-171

وهكذا عاد الى التجارة مع ايطاليا نشاطها القديم . واذا تذكرنا التحسن الذي طرأ على وسائل النقل أدركنا ما جناه العالم من هذا التبادل التجاري · فقد كانت البندقية ترسل قافلتين بحريتين كل عام — واحدة في الربيع وأخرى في الخريف . وكانت جنوه تبعث قافلتها مرة واحدة في السنة

كان الشرق يبتاع من اوروبا الالبسة والمنسوجات والخيوط الذهبية والقصدير والمرجان والكهرمان . اما سوريا فكانت تصدر الى اوروبا الجواهر والمسك والتمر والبهارات وحجر الشب والزجاج المصنوع في انطاكية وصور وصيدا والحرير. وكانت عكاء اكبر الثغور السورية وأهمها

على انهُ في الوقت نفسه كانت التجارة العربية البرية بين مصر والشام على غاية من النشاط . وقد ساعد التوحيد السياسي في أيام نور الدين وصلاح الدين هذا النشاط التجاري . فكان كتان مصر يدخل دمشق ومنها الى بغداد إما رأساً بطريق صلخد[1] وإما بطريق حلب ومنبج . كما كانت دمشق وحمص وحماة وحلب[2] مراكز للقوافل الحجازية ايضاً

وقد خيل للناس ان كل اتصال تجاري بين الشرق والغرب انتهى بسقوط عكاء سنة ١٢٩١ . ولكن الواقع انهُ بعد ذلك اليوم بمدة قصيرة دعا حاكم صفد التجار الاوروبيين الى التعامل معهُ . وسنعرض لما أصاب العلاقات التجارية من تطور بعد أن نشير الى الحياة السياسية في بقية عصر المماليك

— ٦ —

تاريخ الشرق العربي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر تشمل دراسته ثلاثة أمور . اولها : المماليك الذين استمروا في سياسة توحيد مصر وسوريا والذين جعلوا همهم توسيع املاكهم في الشمال فحاربوا مملكة ارمينيا طويلاً حتى قضوا عليها . وثانيها: محاولة التتار ان يستولوا على سوريا وهجومهم عليها المرة بعد المرة وما كان من رد المماليك لهم . اما الثالث فهو ما قامت به اوربا في سبيل احتلال سوريا ومصر مما يصح أن نسميه الحملات الصليبية المتأخرة . وهذا ما سنحاول التعرض له الآن

---

(١) كانت صلخد مركزاً على طريق يصل الشام ببغداد رأساً ويعرف بالرصيف (راجع صبح الاعشى ٤ : ١٠٧) (٢) الحسني ص ١١٤ — ١٢١

حكم الملك الناصر محمود ثلاث مرات بين ١٢٩٣ و ١٣٤٠ . وكان عليه ان يتلقى احدى هجمات المغول ، إذ ان غازان هاجم سوريا (١٢٩٩) وانتصر على جيش مصري شرقي حمص واستمر في سيره جنوباً حتى احتل دمشق في السنة التالية . ومع ان دمشق لم ينلها تدمير أو تخريب فقد لقيت بقية المدن في شمال سوريا الأمرين على يدي التتاري . وانسحب غازان من دمشق لكنه عاد بعد ثلاث سنوات فلقيه الناصر في مرج الصفر (جنوبي دمشق) ورده على أعقابه . وانصرف بعدها الى معاقبة الجماعات التي أعانت غازان في شمال سوريا والى مهاجمة ارمينيا

على ان الناصر يذكره المؤرخون بأعماله العمرانية أكثر مما يذكرونه بحملاته العسكرية ، إذ بلغت مصر في زمنه ذروة حضارتها في عصر المماليك البحرية فقد أنشأ ترعة الاسكندرية وبنى المساجد والمدرسة الناصرية . وشجّع التجارة مع أوروبا والشرق ، ولكن القحط والوباء [1] اللذين أصابا مصر في أيامه حدّا من نشاطه وأدّيا الى إضعاف الروح المعنوية في مصر موقتاً

وخلفاء الناصر الذين حكموا من ١٣٤٠ الى ١٣٨٢ كانوا من أسرته ، وقد شغلوا أنفسهم بخصومات ومشاحنات داخلية ، فأدى ذلك الى زوالهم ، وقيام المماليك البرجية (١٣٨٢ — ١٥١٧)

وأوسع المماليك البرجية شهرة هم : برقوق وفرج والمؤيد شيخ وبرسباي وجقمق واينال وخشقدم وقايتباي وقونصوه الغوري . ولعلّ حكم قايتباي (١٤٦٨—١٤٩٥) كان أهم دور في المدة كلها

ولعلّ أهم الحوادث التي يجدر بنا ان نتعرّف اليها في أيام هؤلاء المماليك هي غزو تيمور واحتلال قبرص والفتح العثماني

في سنة ١٣٨٠ بدأ تيمورلنك [2] حملاته العسكرية التي انتهت باستيلائه على افغانستان وفارس وكردستان . وفي سنة ١٣٩٣ احتل بغداد . وفي السنة التالية وقع العراق كله تحت سلطانه . وقد روى مؤرخوه انه أقام في تركيت [3] هرماً من جماجم قتلاه . وفي سنة ١٣٩٥ وصل موسكو وأقام فيها ما يزيد عن السنة ، ثم وصلت فتوحه الى دلهي بعد سنوات قليلة

---

(١) المعروف بالموت الاسود (١٣٤٨—٩) (٢) راجع Hitti p. 699
(٣) ولد فيها صلاح الدين

وفي سنة ٨٠٤ هـ — ١٤٠١م ظهر تيمور في شمال سوريا . وكانت حلب أولى ضحاياه إذ أباحهـا للنهب ثلاثة أيام وقتل من أهلهـا عشرين الفاً أقام من جماجمهم أكواماً متعددة ، ارتفاع الواحد منها عشرة أذرع . وهدم جوامعها ومدارسها النورية والصـلاحية

ثم سقطت حماة وحمص وبعلبك في يديه ، وانكسر جيش السلطان فرج وانهزم فاحتل المنتصر دمشق التي نهبت وتركت طعاماً للنيران وحمل خيرة علمائها ومهندسيها وصناعها الى سمرقند ليعينوه في تزيين عاصمته . واضطر تيمور الى العودة الى بغداد لينتقم لبعض رجاله الذين قتلهم أهل المدينة ، فعاقبها بأن أقام مائة وعشرين برجاً من جماجم القتلى فيها

وفي سنة ١٤٠٢ اقتتل تيمور مع بايزيد العثماني في ٢١ تموز (يوليو) في انقره ، وأسر بايزيد وحمل مع جيش تيمور . وكان انتصار التتار هذا ايذاناً بالشر المستطير الذي كان المماليك يتوقعونه على يدي تيمور لولا انه توفي سنة ١٤٠٤ ، فكان ذلك فرجاً لهم ، خاصة وان خليفة تيمور ، شـاه رخ (١٤٠٤ — ١٤٤٧) لم يشن حروباً على سوريا

أما الذين جاءوا بعده فقد أضاعوا قوتهم في خصومات عائلية فلم يخرجوا من ديارهم . وكان هذا الخصام بينهم فرصة أدت الى قيام الدولة الصفوية من الجهة الواحدة وساعدت العثمانيين على تنظيم شؤونهم من الناحية الثانية . واستراح المماليك قرناً من الزمان من غزوات التتار العنيفة المخربة

وقد تمّ فتح المماليك لقبرص في حملة ١٤٢٤ — ١٤٢٦ في سلطنة برسباي ، وكانت غايته من ذلك القضاء على القرصان الذين كانت قبرص ملجأً لهم بالاتفاق مع حكامها من آل لوزنيان (١) . وقد نجحت قوى برسباي البحرية والبرية في الاستيلاء عليهـا وأسر ملكها جانوس . وحمل هذا الى القاهرة ولم يطلق سراحه بعد مدة إلاّ بفدية قدرها ٢٠٠٠٠٠ دينار وجزية سـنوية قيمتها عشرون ألفاً من الدنانير . وعقـد برسباي معاهدة مع فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس ، وبهذين العملين أمن للتجارة طرق البحر المتوسط الشرقي

---

(١) راجع Hitti pp. 699 f

— ٧ —

بعد سقوط عكاء سنة ١٢٩١ أصبحت قبرص مركز الصليبيين في الشرق ، وكان ملكها يحمل لقب ملك القدس على ان اوروبا ظلت تفكر في استعادة الشرق ، ولكن المجال الذي أصبحت ترمي بنظرها اليه اتسع في القرن الرابع عشر . فتقدّم الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى وثروة مصر كانا عاملين رئيسيين في توجيه التفكير في الحملات وفي الحملات نفسها . أما ان اوروبا لم تقم في القرن الرابع عشر بحملات واسعة النطاق فيعود الى ان دولها كانت مشغولة بشؤونها الداخلية . فامبراطور المانيا كانت خزائنه خالية ، والفرق الدينية فيها اتجهت نحو بروسيا . اما فرنسا وانكلترا فكانتا في شاغل بحروب المائة سنة عن أي حملة الى الخارج . هذا بالاضافة الى انشغالها بتطور سياسي داخلي : فانكلترا كانت منهمكة بالخصومة حول قوة البرلمان. وفرنسا كانت معنيّة بتطور السلطة الملكية . ومن ثمّ فكل ما عمله ملوك فرنسا في سبيل الحملات هو تمني النجاح لها . واسبانيا كانت منصرفة الى استعادة بلادها من العرب وتنظيم شؤونها الداخلية . أما المدن الايطالية فكانت علاقتها التجارية مع الشرق تحول دونها والاشتراك في حملات عسكرية ضده

ومع ذلك ، فقد ظلت الفكرة حية . وساعد على بقائها الرحالون والحجاج الذين كثر ترددهم على الشرق لدرسه ، والامراء المخلوعون الذين كانوا يتنقلون في اوروبا آملين ان تهب اوروبا لنصرتهم لاستعادة اماراتهم مثل ليون السادس ملك ارمينيا وبطرس الاول لوزنيان ملك قبرص . ومما أعاد الى الفكرة نشاطها في القرن الرابع عشر فرق الفرسان مثل اخوة الهيكليين وفرقة السيف وفرقة التيوتون

وقد جردت اوروبا حملات ضد الشرق في القرن الرابع عشر. ونحن مضطرون الى الاكتفاء بالاشارة اليها في هذه المناسبة ، على ان نحيل القارىء الى الكتاب الجامع الذي وضعه الدكتور عزيز سريال عطية مؤرخاً فيه للحروب الصليبية في العصور الوسطى المتأخرة [1]

والحملات هذه ست هي (١) حملة ضد ازمير ١٣٤٤[2] (٢) حملة همبرت الثاني الفرنسي

---

(١) The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938 . وقد اعتمدنا عليه في غير موضع من هذا الكتاب

(٢) انتهت باحتلال ازمير التي بقيت في ايدي الاوروبيين الى سنة ١٤٠٢

١٣٤٥ — ١٣٤٧ لتعضيد الحملة الاولى وقد انتهت بالفشل (٣) حملة بطرس الثاني لوزنيان على الاسكندرية ١٣٦٥ (٤) حملة اميدو السادس أمير سافوى ضد الاتراك ١٣٦٥ — ١٣٦٧ (٥) حملة لويس الثاني بربون على المهدية في شمال افريقيا ١٣٩٠ (٦) حملة نيكوبوليس ١٣٩٦

ولعلّ الحملة التي وجهت ضد الاسكندرية سنة ١٣٦٥ هي الوحيدة التي تستحق عرضاً خاصّاً في هذه العجالة[١] . فقد استنجد بطرس بأوروبا فأنجدته وجمع قواه في رودس واتخذها نقطة ابتداء . واحتفظ بخطته سرّاً، فلم يذع بأنهُ ينوي الهجوم على الاسكندرية حتى صارت المراكب فيعرض البحر . ومن الطريف ان بطرس كان يخشى الوحدات الايطالية كثيراً ، فقد حسب انها قد تفضل مصالحها التجارية على مصلحته وحملته فتوعز بالخبر الى سلطان مصر فيستعد . وصلت الحملة الاسكندرية في ٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٣٦٥ وفي اليوم التالي هاجموا المدينة واحتلوها وأعملوا فيها نهباً وسلباً وتحريقاً ثم رحل اكثر الجيش بعد ان حملوا سبعين سفينة بالغنائم[٢] . فلما رأى بطرس نفسهُ في اليوم السادس عشر من الشهر وحيداً مع بعض رجاله المخلصين وقد اقترب الجيش المصري الآتي لانقاذ المدينة منها ، انسحب مع اتباعه . وهكذا فقد دامت الحملة اسبوعاً واحداً فقط

وكانت نتيجتها المباشرة اضعاف الاسكندرية وتعطيل تجارتها موقتاً

وقد روى ابن خلدون خبر واقعة الاسكندرية قال[٣]. واستنفر (ملك قبرص) من سائر الافرنج ووافى مرساها (الاسكندرية) سابع عشر من المحرم سنة سبع وستين وسبعمئة في اسطول عظيم يقال بلغ سبعين مركباً مشحونة بالعدة والعدد ومعهُ الفرسان المقاتلة بخيولهم . فلما أرسى بها قدمهم الى السواحل وعبى صفوفه وزحف وقد غصّ الساحل بالنظارة . برزوا من البلد على سبيل النزهة . لا يلقون بالاً لما هو فيه ولا ينظرون مغبة امره لبعد عهدهم بالحرب . وحاميتهم يومئذٍ قليلة . وأسوارهم من الرماة المناضلين دون الحصون خالية . ونائبها القائم بمصالحها في الحرب والسلم . وهو يومئذٍ خليل بن عرام[٤] غائب في قضائه فرضه . فما هو الاّ ان رجعت

---

(١) راجع Atiya, Crusade C. XV (٢) Atiya, Crusade p. 265-7

(٣) المجلد الخامس ص ٤٥٤—٥ (٤) في ابن خلدون عوام . لكننا قبلنا رواية الدكتور عطية « ابن عرام » وقد نقلها عن مخطوطة للنويري . راجع Atiya, Crusade b. 349

تلك الصفوف على التعبية ونضحوا العوام بالنبل . فأجفلوا متسابقين الى المدينة ، وأغلقوا ابوابها وصعدوا الى الاسوار ينظرون . ووصل القوم الى الباب فأحرقوه واقتحموا المدينة واضطرب اهلها وماج بعضهم في بعض . ثم أجفلوا الى جهة البر بما امكنهم من عيالهم وولدهم وما اقتدروا عليهِ من اموالهم وسالت بهم الطرق والأباطح ذاهبين في غير وجه . حيرة ودهشة ... وتوسط الافرنج المدينة ونهبوا ما مروا عليه من الدور ودكاكين الصيارفة ومودعات التجار وملأوا سفنهم من المتاع والبضائع والذخيرة والصامت . واحتملوا ما استولوا عليهِ من السبي والاسرى . وأكثر ما فيهم الصبيان والنساء . ثم تسايل اليهم الصريخ من العرب وغيرهم . فانكفأ الافرنج الى اساطيلهم وانكمشوا فيها بقية يومهم وأقلعوا من الغد . وطار الخبر الى كافل الدولة بمصر الأمير بيبغا فقام لركائبه وخرج لوقتهِ بسلطانهِ وعساكره ومعهُ ابن عرام نائب الاسكندرية منصرفه من الحج . وفي مقدمته خليل بن قوصون وقطلوبغا الفخري من امرائهِ ، وعزائمهم مرهفة . ونياتهم في الجهاد صادقة حتى بلغهم الخبر في طريقهم باقلاع العدو . فلم يثنهِ ذلك واستمر الى الاسكندرية وشاهد ما وقع بها من معرة الخراب وآثار الفساد فأمر بهدم ذلك واصلاحه ورجع ادراجهُ الى دار الملك . وقد امتلأت جوانحه غيظاً وحنقاً ... على أهل قبرص »

وليس من شك في أن الحملة التي قام بها برسباي لغزو قبرص كانت انتقاماً لهذه الحادثة

— ٨ —

اذا عرضنا للتجارة المصرية السورية في زمن المماليك المتأخر — أي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر — وجدنا انها ، رغم الاضطراب السياسي الذي كان يشوب الجو ، كانت ناجحة جداً . فقد كانت طريق الخليج الفارسي البصرة سوريا وطريق البحر الاحمر مصر بيد المماليك . وكل تجارة الهند في البهارات والحجارة الكريمة وما اليها كانت تمر بأملاكهم . ومع انه كان ثمة محاولة لاحياء الطريق التجاري البزنطي الشمالي فان هذا لم يؤثر في تجارة سوريا ومصر . وقد عرفت المدن الايطالية ، وفي مقدمتها البندقية ، ومدن فرنسا وأراغون قيمة الاتجار بواسطة المماليك ، فكان لها قناصل وفنادق في كل الموانئ المصرية السورية من الاسكندرية الى انطاكية . ومع

ذلك فقد كانت بيروت وطرابلس المركزين الرئيسيين للاتجار بين موانىء سوريا . أما في الداخل فكانت حلب ودمشق والقاهرة ، المدن التي فيها محطات رئيسية للتجار وأسواق كبيرة للمتاجر ومخازن عظيمة للبضائع . وقد كان حتى في دمشق قناصل للبنادقة والجنويين وغيرهم

أما المتاجر فلم تختلف عما كانت عليه قبلاً . ولكن لابد لنا هنا من الاشارة الى الاحتكار الذي كان السلاطين المماليك يلجأون اليه لزيادة ثرواتهم . فقد منع برسباي استيراد البهارات ، وخاصة الفلفل ، من الهند بعد ان ابتاع الموجود منها في مصر ، فارتفعت الاسعار ، وعندئذٍ باع الموجود عنده بأرباح طائلة . وأدخل برسباي الخشب والمعادن أيضاً في احتكارات الدولة ، لكن البنادقة احتجوا وقطعوا علاقاتهم التجارية وهدده القشتالة والاراغونيون أيضاً ، فعاد الى صوابه ، وألغى الاحتكار إلاّ عن الفلفل (١)

على ان التجارة المصرية السورية تلقت الضربة القاضية في أواخر القرن الخامس عشر ، لما اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح ووصلوا الهند بالدوران حول افريقيا ١٤٩٢ — ١٤٩٦ . فلم تمض بضع سنوات على هذا الحادث حتى كانت مصر والبندقية تحاولان جهدهما القضاء على النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي ، لكن كل ذلك ذهب أدراج الرياح

فان فاسكو دي غاما ، بعد ان وصل الى الهند وعقد معاهدات تجارية مع امراء غربي الهند ، رأى ان يقاوم التجارة المصرية . فأخذ ملاّحين من زنجبار وهاجم السفن التي كانت تمخر البحر الأحمر حاملة الحجاج والسلع من الهند الى الحجاز . فاتجهت اليمن نحو مصر تطلب مساعدتها فجهز الغوري سلطان مصر اسطولاً لحماية البحر الاحمر . لكن التفوق كان للبرتغاليين ، فنهبوا السفن وأحرقوا بعضها وذبحوا ركابها . وحزّ هذا في نفس الغوري فعزم على الانتقام في حملة صادقة ، وبدأ بحملة ادبية اذ أنذر البابا بأنهُ يهدم كل الاماكن المقدسة ان لم يكف ملك البرتغال عن اعماله لكن البرتغاليين لم يهتموا بذلك

واتفقت مصلحة البندقية مع مصلحة الغوري في الدفاع عن التجارة الشرقية ،

---

(١) راجع المماليك — ميور — الترجمة العربية ص ١٣٧ حيث تجد أمثلة اخرى للاحتكار في العصر المملوكي

فأعانته على تجهيز حملة بحرية كبيرة . فأرسلت الاخشاب الى السويس وبعثت بعمال ماهرين يتولون صنع السفن . وانتصر هذا الاسطول اولاً لكن البرتغاليين جمعوا قوتهم وسفنهم وتغلبوا نهائيًا على اسطول مصر والبندقية سنة ١٥٠٩ . وهذه المعركة كانت فاصلة لامن حيث انها بداءة الاستعمار الاوروبي في بحارالشرق الاقصى فحسب ، ولكن من حيث انها ختمت تاريخ التجارة الشرقية وقضت على مصدر رئيسي للثروة المصرية السورية . وقد بقي هذا معطلاً الى اوائل القرن التاسع عشر ، ولم يعد الى مصر الاّ بعد فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩

— ٩ —

وبينما كانت مصر تحاول الاحتفاظ بمصدر ثروتها كان عليها ان تحافظ على نفسها وأملاكها الشمالية ضد الهجوم الذي كان متجهاً نحوها على أيدي العثمانيين

كان الاتراك قد قضوا على الدولة الصفوية سنة ١٥١٥ وبذلك استولوا على العراق وبعض ارمينيا . وكان الغوري قدوعد اسماعيل الصفوي بالمساعدة ، فحقد سليم عليه . ولما جاء الغوري الى شمال سوريا متظاهراً بأنهُ قدم للوساطة بين اسماعيل وسليم ، لم يخدع هذا بذلك وأعلن عليهِ الحرب ، فلم يكن بد من الاشتباك

وقد وقعت المعركة في مرج دابق ، شمال حلب ، يوم ٢٤ آب (اغسطس) ١٥١٦ م ، وانتصر سليم انتصاراً تامًّا ، وأعانه على ذلك معدات جيشهِ العسكرية الحديثة واستعماله البارود والمدافع

ودخل سليم حلب دخول الظافر ، وأحسن الى الخليفة (المتوكل) المأسور وقد كان في جيش الغوري ، وسار سليم الى الجنوب فسلمت له مدن سوريا . ولما وصل القاهرة وجد ان طومان باي ، وكان قد صار سلطاناً بعد موت الغوري ، قد أعدّ جيشاً لقتاله . فحاصره ولم يلبث أن تغلب عليهِ واحتل القاهرة في ٢٢ كانون الثاني (يناير) سنة ١٥١٧

وهكذا فان تاريخ الشرق العربي في العصور الوسطى ينتهي بحادثتين قضتا على استقلاله الاقتصادي والسياسي — اكتشاف طريق افريقيا الى الهند والفتح العثماني

حريٌّ بنا ، وقد بلغنا هذه المرحلة من بحثنا ، ان نلقي نظرة خاصة على سوريا في فترة المنازعات الشديدة . وانما اخترنا سوريا ، من دون بلاد الشرق العربي ، لأنها كانت ميدان الحروب والنزاع والخصومات ، ولأنهُ فيها دفع الخطران ، الشرقي التتاري والغربي الاوروبي ، عن الشرق العربي . وهذه النظرة هي مجموعة من الملاحظات التي استطعنا أن نخلص بها من دراستنا لأخبار الرحالين . فهي ليست نتيجة تقصٍّ تاريخي ولكنها خطرات عابرة ، وهذا هو سر ما يبدو فيها من النقص ، بحيث انها لا تشمل كل نواحي الحياة

فالقرن الحادي عشر للميلاد (القرن الخامس للهجرة) يغلب عليه نشاط في الحياة الاقتصادية والعلمية وتلمس المنافسة بين الامراء المحليين في ترويج الصناعة والزراعة . فقصب السكر والارز والقطن والبرتقال تزرع في أكثر أجزاء البلاد . والصناعات يدخل فيها صناعة السكر والزجاج والأقمشة وتربية دود القز وتربية السمك وصنع الاجبان . وكانت انطاكية وطرابلس ويافا أكثر موانىء سوريا استعمالاً للتجارة ، وكانت يافا مركز الحجاج المسيحيين لقربها من القدس

أما القرن الثاني عشر ، وهو القرن الاول من حكم الصليبيين لهذه البلاد ، فقد تأخرت فيه الزراعة في الاجزاء الساحلية قليلاً أما الصناعات فاستمرت على تقدمها . ويذكر رحالو هذا القرن الصباغة والدباغة بين صناعات البلاد وخاصة فيما رواه بنيامين وبتاحيا . اما التجارة البحرية فكانت تدخل البلاد وتخرج منها في عكا وصور اللتين بلغتا في ذلك الدور غاية أهميتهما

وفي القرن الثالث عشر قامت حروب المماليك ضد الافرنج . وكان من نتائجها تدمير عدد كبير من المدن والموانىء . خاصة المحصن منها . ولعلَّ البلاد الداخلية هي الوحيدة التي احتفظت ببعض نشاطها . من اريحا الى حلب . ورحالو هذه الفترة الذين درسناهم يذكرون الزجاج وتحضير الملح بين صناعات البلاد الرئيسية

على اننا متى رجعنا الى رحالي القرن الرابع عشر استطعنا ان ندرك أثر الحروب التي كانت سوريا ميدانها في القرن السابق ، من حيث التدمير والتخريب. فالرحالون يحدثوننا بان حلب وصور وعكا وقيسارية وارصوف ويافا والناصرة خربة ، وانطاكية

وصيدا كانتا ميناءين صغيرين ويجمع هؤلاء الرحالون على ان بيروت كانت المركز الرئيسي للتجارة السورية وتليها طرابلس. ويذكر الرحالون ان القطن يزرع في البلاد فقد رآه بروكيه في مرج ابن عامر، وتصنع منهُ الثياب القطنية في الرملة وغيرها. لكن الارز وقصب السكر لا يظهران كثيراً فيما كتب في هذا القرن. على ان هذا القرن كان فترة من فترات النشاط الصناعي فالسيوف والصابون والسفن والحلويات والمنسوجات كانت بين ما يصنع. وكانت الدباغة والصباغة منتشرتين. وعني الناس بجمع الملح من جبول والكبريت من البحر الميت، وبتربية السمك

واذا تذكرنا ان القرن الرابع عشر كان الوقت الذي وجه فيه المماليك هممهم الى تنظيم جهودهم الحربية وتركيز الجيوش، فلا غرابة ان تنشط الصناعة السورية للقيام بواجبها

وهذه الحروب التي دارت رحاها في سوريا في الفترة التي نتحدث عنها كان أثرها في توجيه الحياة الزراعية كبيراً. فالذي استطعنا ان نصل اليهِ هو ان وسائل الري وترعه واقنيته تهدمت من جراء الحروب. ومن ثمَّ فقد ماتت المزروعات التي تعتمد على الري وهذا هو سبب زوال زراعة القطن والارز وقصب السكر. اما ما يعتمد على ماء المطر فقد عاد الى ما كان عليهِ

ومما يجدر ملاحظته هو ان غزة استفادت كثيراً في عصر المماليك الاخير. فقد كانت على الطريق بين سوريا ومصر، ولذلك كثرت الخانات حولها. ويلاحظ بروكيه وغيره ان جنوب سوريا لم تكن فيهِ حصون وقلاع كثيرة. وذلك على ما نرى يرجع الى اطمئنان المماليك على هذه الجهة. وعلى العكس من ذلك كان شمال سوريا. فقد كانت قلاعه كثيرة وحصونه متعددة. اذ اتخذ المماليك تلك الحصون مراكز لحرب ارمينيا ثم للدفاع عن انفسهم ضد الاتراك. ولاشك ان رحلة قايتباي مثل على ذلك. ولعله من الخير ان نذكر القارىء في هذه المناسبة بالدور الذي لعبته الثغور والعواصم في تاريخ سوريا في العصور العربية الاسلامية الزاهرة. وها هي أهميتها تعود اليها الآن فتقوم بحظها من الدفاع عن سوريا.

وكانت ادارة سوريا ومصر في عصر المماليك تغلب عليها الصبغة العسكرية. وكان هذا طبيعيًّا اذا تذكرنا الحكام والبيئة التي عاشوا وحكموا فيها (١)

---

(١) راجع صبح الاعشى في الجزئين الرابع والخامس لدراسة نظام الحكم في عهد المماليك

ونختم هذه المقدمة العامة بفصل عن صناعات الشام في القرن الخامس عشر للميلاد كتبهُ الدمشقي المولود سنة ٨٤٧ هـ جاء فيهِ[١]. « ومن محاسن الشام مايصنع فيها من القماش والنسيج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومهِ . ومنها عمل القماش الاطلس بكل أجناسهِ وأنواعه . ومنها عمل القماش الهرمزي على اختلاف أشكاله وتباين أوصاله. ومنها عمل القماش الابيض القطني المصور لاحياء القصور، واموات القبور . ومنها ايضاً عمل القماش السابودي بجميع الوانه وحسن لمعانهِ

« وفيها تعمل صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجرور والمرفوع . والمعدود والمرصع . وفيها تعمل صناعة القرطاس بحسن صقاله ونقيّ اوصاله . وفيها تعمل صناعة القرضية ودباغتها المرضية . وفيها تعمل صناعة الزموط والاقباع وتحمل لسائر البلاد والضياع وفيها صناعة الحرير بالفتل والدواليب والسرير . وفيها تعمل صناعة السلاح ، فيما فيها من الأعاجيب والاقتراح .وفيها تعمل صناعة الموشى والمدهون بما تحتار فيهِ النواظر والعيون .وفيها تعمل صناعة النحاس من الضرب والتفصيل والنقوش التي تشرح صدر الناس . وفيها صناعة ألواح الصقال ودهن ألواح صغار الكتّاب ، وجفان القصع وتفصيل القبقاب

«وغالب ما ذكرناه من هذه الصنائع تتبدل عليه أيادي الصنّاع من الواحد بعد الواحد الى ان ينيف على عشرة صنّاع حتى تتم »

---

(١) نزهة الانام في محاسن الشام تأليف البدري المصري الدمشقي. القاهرة — ١٣٤١

القسم الاول

الرحلة والرحالون في العصور الوسطى

وهو ثمانية فصول

الفصل الاول

الرحلة والحج[1]

كانت الرحلة من الظواهر الرئيسية في حياة العصور الوسطى ، وكانت دوافعها متعددة وغايات الرحالين مختلفة . ونحن اذا استعرضنا زيارات الاوروبيين لفلسطين خاصة وللشرق العربي عامة ، خرجنا بفهم صحيح لهذه البواعث والمقاصد . ويجدو بنا ان نتناول هذا البحث على أساس زمني . فبواعث السفر والتنقل ورغبات الناس اختلفت باختلاف الأزمنة والاحوال التاريخية . ولعلّ من الخير لنا وللموضوع ان نعرض له على التقسيم التالي (١) من القرن الرابع الى القرن العاشر (٢) في زمن الحروب الصليبية (٣) في القرنين الرابع عشر والخامس عشر

والذي نستطيع ان نقرره قبل كل شيء ان الحج كان الباعث الاول والرئيسي في الفترة الاولى ، وان كان ثمة باعث آخر فقد جاء عفواً ، اوكان قليل الاثر في توجيه الرحلة

فالمسيحيون كانوا يرون لزاماً عليهم، ولو لم تفرض ذلك المبادىء الدينية ان يزوروا البلاد التي عاش فيها المخلص ، ويتبركوا بلمس ترابها ومشاهدة آثاره وآثار أصحابه. ومع ان الكنيسة لم تهتم بالحج بادىء ذي بدء ، فانها لم تلبث ان قبلت بما قام به الناس وجعلته جزءًا أصليًّا من اعمال التوبة ، وسبيلاً لغفران الخطايا . وقد بقي الحج الى فلسطين عاملاً رئيسيًّا في الرحلة الى الشرق في الفترتين الأخريين ، ولذلك سنكتفي

---

(١) نتناول في هذا الفصل الرحلة والحج في العالم الاوروبي المسيحي فقط

الآن بتقرير هذا ، على ان نعود الى درس الحج بتفصيل في آخر هذا الفصل

اما في فترة الحروب الصليبية ، وحتى قبلها بقليل ، فقد دخلت التجارة الى جانب الحج في البواعث على الاسفار . ويكفي ان نذكر ما كان للجنويين والبنادقة والبيزيين وغيرهم من الاوروبيين من مصالح تجارية منذ القرن العاشر الميلادي في موانیء سوريا ودولة البزنطيين [١] لنستوثق من هذا الأمر . والعامل التجاري في التنقل والاسفار قوي كثيراً بعد خروج الصليبيين من سوريا ونشط التجار في توطيد العلاقات مع سوريا وتجديدها مع مصر . وجميع الرحالين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر يشيرون الى البيوت التجارية والفنادق التي كانت للاوروبيين في الاسكندرية والقاهرة وعكاء وبيروت ودمشق وغيرها [٢]

على ان الاوروبيين في زمن الحروب الصليبية كان منهم من أتى الى الشرق ليقيم ويستعمر ، اما لأنهُ لم يجد في بلاده قوتاً أو رزقاً ، أو لأنهُ أراد أن يتحرر من الرق السياسي والاقتصادي هناك ، أو لأنهُ رغب في التخلص من خصومات سياسية [٣] . فحاول أن يجد مكاناً جديداً بعيداً عن هذه الأمور كلها

والفروسية الاوروبيـة كانت عاملاً هامًّا في شحذ الهمم للرحلة . فالفارس كان يرغب في أن يلمس سيفه القبر المقدس [٤] في كنيسة القيامة بالقدس لأن ذلك يزيده شرفاً وقدراً . والفارس العاشق كان يقوم بالرحلة ارضاءً لحبيبته [٥] التي أظهرت مثل هذه الرغبة . والفارس المغامر كانت تثيره الى الرحلة القصص التي كان يسمعها من العائدين من المشرق عن سحره وغرائبه [٦] ، فقصة (برستر يوحنا) [٧] شاعت في أوروبا بعيد احتلال الصليبيين لفلسطين ، وقصص يوحنا مندفيل انتشرت انتشاراً كبيراً في اوروبا في القرن الرابع عشر ومثلها قصة الملوك الثلاثة [٨] والروايات الكثيرة عن شعوب افريقيا والهند

وكان التبشير من عوامل السفر والرحيل الهامة . ذلك ان الاوروبيين اهتموا في

---

(١) Heyd Vol. I pp. 24-129 (٢) راجع Heyd II تحت fondaco
(٣) Roehricht : Pilger . p. 4 & Note 24 (٤) Roehricht : pilger p. 42 Notes 25, 26
(٥) Roehricht : Pilger p. 4, & Note 27
(٦) Travellers ch. VIII & Roehricht : Pilger p. 4, Notes 28-31
(٧) Travellers pp. 174-94 (٨) Roeh. Pilger p. 4. Note 32

زمن الصليبيين بنشر النصرانية ، واستمروا في هذه المحاولة بعد ذلك لأغراض سياسية واستعمارية . ومع ان محاولاتهم الأولى اقتصرت على العالم الاسلامي في حوض البحر المتوسط فقد اتجهت رغبة البابوات وأمراء أوروبا وملوكها نحو تنصير المغول (التتار) تمهيداً لعقد محالفات معهم ضد المماليك في مصر وسوريا . ويؤسفنا ان المجال لا يتسع هنا لدرس هذه الناحية من النشاط الاوروبي درساً وافياً لذلك نكتفي بالاشارة اليها[١]

وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر نتعرّف الى نوع جديد من الرحالين هم السفراء السياسيون المعروفون والمتنكرون بزيّ الحجاج أو التجار . ومن هؤلاء من كان يقوم بمهمته بناءً على طلب البابا أو أحد الملوك ، ومنهم من كان يفعل ذلك بدافع شخصي لكنهُ يقدم ثمرة اختباراته الى الرجال المسؤولين . وفي هذه الحالات كان الباعث التعرّف على نواحي الضعف في الشرق العربي والوقوف على خير الطرق لاحتلاله والقضاء على سلطان أهلهِ السياسي وضمهِ الى المجال الاقتصادي الاوروبي [٢]

ومع اننا نجد حتى في أيام الصليبيين رحالين زاروا الشرق للدراسة العلمية ولنقل ما فيهِ مثل ادلارد[٣] في القرن الثاني عشر إلاّ انّ هذا النوع من الرحالين جاءَ متأخراً في أواخر القرن الخامس عشر والسادس عشر[٤] . ففي تلك الازمنة أصبحت الرحلة ينظر اليها على انها عامل تهذيبي يوسع الأفق العقلي ويحمل المسافر على التفكير والتعلم

ولنعد الى الحج فنوليه بعض العناية لأنه ظلّ طيلة العصور الوسطى أحد العوامل الرئيسية في الرحلة الى فلسطين وما جاورها من الشرق العربي .

حجّ مسيحيو أوروبا الى فلسطين منذ أن استطاعوا الوصول اليها[٥] وقد وصلتنا بعض أنباء حجاج القرن الرابع مكتوبة [٦] . وكان قصدهم زيارة الامكنة التي ولد السيد المسيح وعاش فيها ، واقتصرت هذه في أول الامر على بيت لحم والقدس والناصرة ، وبعضهم كان يزور نهر الأردن (الشريعة) وبحيرة طبرية . لكن عدد الاماكن أخذ يتزايد وصارت القصص والروايات تتراكم حول بقاع متعددة في فلسطين

---

(١) يجد القارئ ابحاثاً وافية مع ذكر المراجع المفصلة في Brehier pp. 268-286 & 305-313 راجع ايضاً Atiya, Crusade pp. 133-281 و Travels pp. 124-158

(٢) راجع تفصيل هذه المسئلة تحت في الفصلين السابع والثامن (٣) Baker pp. 40-5

(٤) Roehricht, Pilger. p. ۱ (٥) كانت هيلانة ام الامبراطور قسطنطين الكبير من اوائل الحجاج الذين نعرف اخبارهم (٦) راجع تحت الفصل الثاني

فتجعل منها مراكز متصلة بحياة المسيح أو رسله أو غيرهم من القديسين [١]. وأنكر آباء الكنيسة قيمة الحج بادىء الأمر لكنهم منذ القرن الخامس ، أو حتى منذ القرن الرابع ، رأوا انهُ من الخير لهم أن يعترفوا بالقيمة الدينية لمثل هذه الأسفار ، فأقروها وانتهى الامر بأن أصبحت الكنيسة تطلب الى الخطاة من أتباعهـا أن يكفروا عن خطاياهم بالحج الى فلسطين . وهكذا بعد أن كان الحج في أشكاله المختلفة نتيجة لدافع شخصي لتمجيد الله وتقديم الشكر له وطلب المعونة ووفاء لنذر [٢] والحصول على آثار شخصية للقديسين [٣] جعلت الكنيسة منهُ نظاماً اساسهُ تكليف المرء القيام بالحج الى أمكنة معينة وزيارتها بشكل خاص لتغفر له خطاياه لسنة واحدة او سبع سنوات او للحياة . والذي نعرفه ان مثل هذه الفروض كانت او قد أصبحت واضحة الحدود في سنة ١٠٥٩ [٤]. ويحدثنا الرحالون المختلفون عن عدد سني الغفران لكثير من الاماكن المقدسة في فلسطين في القرن الثالث عشر والرابع عشر ويذكر كل من فابري [٥] ووآي [٦] امام كل مكان قيمته من الغفران بالسنين

ونستطيع ان نشير هنا الى ان الحجاج الاوروبيين لقوا كل تشجيع من السلطات والهيئات الرسمية في زيارتهم للاراضي المقدسة هذا اذا استثنينا ما كان ينال بعضهم من اساءة او يتعرض له البعض الآخر من النهب او السلب . كنتيجة ، لاضطراب حبل الامن [٧]. وحتى بعد سقوط عكاء شجع الحكام الحجاج على الزيارة [٨] ففي سنة ١٣٠٤ دعا حاكم صفد التجار البنادقة لزيارة الاماكن المقدسة والاتجار مع سوريا وأمنهم على أرواحهم وأموالهم [٩]

كان الاوروبي الذي يرغب في الحج يتحتم عليهِ ان يحصل على اذن من رئيس كنيستهِ وآخر من صاحب السلطان الزمني. وكانت الكنيسة تمنح الأذن مجاناً ، اولاً لكنها جعلتهُ

---

(١) Ency· Br. art. Pilgrimage

(٢) مثل يودوسيا التي نذرت حجا لبيت المقدس اذا تزوجت ابنتها (٣) Travels pp.39-69
(٤) Ency Br. art. Pilgrimage (٥) PPT Vol. VII p.223 (٦) يرسم واي صليباً لكل سنة من سنوات الغفران امام اسم المكان المقدس . راجع رحلته وجدول الاماكن المقدسة في اولها (٧) راجع ما كتبه اركولف وولبولد ولابروكيير من الجهة الواحدة وما ذكره سيولف ودانيال وفابري وواي من الجهة الاخرى (٨) Roehricht : Pilger, P· 6, Note 48.
راجع ايضاً ما نقله المؤلف نفسه (ص ٣٤) من اخبار المساعدات التي نالها الحجاج (باستثناء سنة ١٣٤٠) بين ١٣٣٦ و ١٣٤٧. (٩) Roehricht : Pilger p. 6

لقاء رسوم معينة منذ اواخر القرن الخامس عشر [١]. وكان الاذن يعطى في حفلة دينية خاصة [٢]. فبعد ذلك يودع الحاج اهلهُ وجماعته ويبدأ سفره [٣]. والذين كانوا يأتون الأرض المقدسة دون ان يحصلوا على اذن من الكنيسة كان عليهم أن يعلنوا أنفسهم للكاهن عند حضورهم اول خدمــة كنسية في يافا او القــدس ليحلهم الأسقف من خطيئتهم وليسمح لهم بالزيارة [٤]

كان الحاج يرتدي ثياباً خاصة بحيث يعرف منها . والغالب أن يرتدي واحدهم قباء أغبر اللون ويتمنطق بحزام عريض عليه صليب احمر ويحمل عصــاه وكيساً وقد يسير البعض حفاة ، خصوصاً اذا كانوا يقومون بالحج كفارة لذنب بأمر الكنيسة [٥]

وقد يهدي الحاج عصاه او كيسه او ثوبه او حزامه ، او هذه الاشياء كلها الى كنيسة بلده بعد عودته . وبالاضافة الى ما يحمله الرحالة من النقود او الثياب يغلب عليه أن تكون معه حلي ومجوهرات يعطيه اياها أقاربه وأصدقاؤه . ليضعها على القبر المقدس للتبرك [٦] . وقد يحمل الحجاج سبائك الفضــة والذهب ويلجأون الى شتى الوسائل لاخفائها [٧]

كانت موانى ايطاليا — البندقية وجنوا وبيزا — ومرسيليا في فرنسا الاماكن التي يقصدها الحجاج المسافرون بحراً الى فلسطين . والمدن التي كانوا ينزلون فيها هناك كانت تختلف باختلاف الدول الحاكمة ، لكن يافا كانت أكثرها اســتعمالاً حتى في

---

(١) Roehricht : Pilger p. 6 (٢) راجع وصف احدى هذهِ الحفلات في Cutts, pp. 162 ff . ولهذه المناسبة نذكر انه لم يكن يسمح للرجل ان يحج الى احد المزارات الاوروبية الا اذا رضيت زوجه ، ولا يجوز للمرأة ان تقوم بمثل هذه الزيارة الا برضى زوجها لكن زيارة القدس ، وفاء لنذر او قسم ، لم تكن لتحتاج الى مثل هذه الموافقة . راجع Cutts p 162, Note 3 (٣) لم يحب فابري ان يودعه زملاؤه الرهبان فهرب خفية

(٤) Roehricht : Pilger p 6. وقد وصف فابري اول قداس حضره في القدس مع رفقائه الحجاج وذكر سؤال الاسقف وحله الحجاج المهربين من الخطيئة

(٥) راجع Cutts pp. 164, 174, 190 حيث تجد وصفاً مسهباً لهذه كلها

(٦) فابري في PPT, VII, pp. 1-30 (٧) Roehricht : Pilger p. 7 . ومن الوسائل التي لجأ اليها الرحالون في القرن الرابع عشر وبعده لاخفاء هذه الاشياء هو وضعها داخل قطع من لحم الخنزير عند اقترابهم من يافا . فاذا نزلوا الى البر وجاء مفتشو الجمرك ، وهم مسلمون ، ابتعدوا بسبب لحم الخنزير ، فلم يروا السبائك

أيام خرابها [١] . وفي زمن الصليبيين كانت عكاء الميناء الرئيسي . أما الذين كانوا يريدون زيارة أجزاء أخرى من الشرق فكانوا يختارون الميناء المناسب ، مثل رحالي القرنين الرابع عشر والخامس عشر

وقد اهتمت البندقية بسفريات الحجاج وغيرهم فنظمت رحلتين كل سنة في سفن كبيرة تسع الواحدة منها ١٥٠٠ من الركاب . وقد كان فرسان القديس يوحنا ينقلون نحو ٦٠٠٠ مسافر في السنة الواحدة [٢] . أما مدة الرحلة البحرية فقد كانت تستغرق بين الستة والثمانية من الاسابيع ، والوقت العادي الذي يقضيه الحاج في القدس عشرة أيام لزيارتها وما حولها [٣]

كان الحاج يعدّ نفسه ضيفاً على الدير الذي يمر به أو رئيس الكنيسة في البلدة الواقعة في طريقه ، أو أي جماعة يجتاز منازلها سواء في ذلك بلاده والأرض المقدسة . لكن منذ القرن الحادي عشر اعتنى المسؤولون ، وخصوصاً فرق الفرسان ، ببناء المضافات لاقامة الحجاج ، في القدس وعكاء وقبرص ورودس ومالطة [٤] . ونجد ان رجال الدين والرهبان كانوا يقيمون في المنازل الكنسية في القدس ، مثل منزل جبل صهيون ، أما الحجاج الآخرون فكانوا يستأجرون غرفاً أعدها أهل القدس لهذا الغرض ، وكان الترجمان واسطة الاستئجار [٥]

وقد وصلت الينا معلومات كثيرة عن نفقات هذه الرحلات ، نذكر هنا بعضها على سبيل التمثيل

في القرن الثاني عشر الميلادي أنفق غوزوين مئة مارك من الفضة (نحو خمسين جنيهاً مقدرة بالعملة الحالية) في زيارته للارض المقدسة . ويمكن القول ان مبلغاً يتراوح بين ٢٨٠ و ٣٠٠ من الدوكات (أي ١٤٠ — ١٥٠ من الجنيهات) كان يكفي لرحلة مريحة . وفي القرن الثالث عشر كان الشخص الواحد يدفع ماركاً فضيًّا واحداً أجرة لنقله بحراً ، أما الفارس فيدفع ثمانية ماركات فضية عن نفسه ورجاله الثلاثة (تابعين وخادم وخيولهم . والحاج اغناطيوس ليولا [٦] في القرن

---

(١) راجع وصف سوخم ولانوي ولابروكيير وفابري (٢) Ency.Br. art. ,Pilgrimage
(٣) احتاج واي الى تسعة وثلاثين اسبوعاً للحج من انكلترا واليها (٤) كانت هذه الجزر محطات للسفن بين اوروبا والشرق (٥) فابري ، راجع PPT,VII, pp, 285 (٦) هو مؤسس جمعية الجزويت

السادس عشر دفع نحو سبعة فلورينات ذهبية (أي نحو ثلاثة جنيهات) أجرة نقله من البندقية الى يافا[1]

وفي سنة ١٤٦١ م حجّ وليم دوق سكسونيا فأنفق مئتي الف مارك فضـة (نحو ٠٠٠ ١٠٠ جنيه)[2]

ومع اننا لا ندري تماماً عـدد الرحالين الذين زاروا فلسطين أو غيرها من بلاد الشرق العربي فما لاشك فيه انه كان كبيراً . ويكفي أن نذكر ان روورخت جمع أسماء ما يزيد عن ١٤٠٠ من الحجـاج الالمان المعروفين الذين زاروا البـلاد بين ١٣٠٠ و ١٦٠٠[3]



Prutz p 106,Roehricht:Pilger· p. 7 (٢)Ency Br·Art·,Pilgrimage (١)
Roehricht : Pilger (٣) ذكر اخبارهم في Cutts p. 159 راجع ايضاً

الفصل الثاني

الحجاج المسيحيون

يمتـاز القرن الرابع الميلادي باعتناق قسطنطين الـكبير ٣١٢ — ٣٣٧ م النصرانية وجعلها ديناً رسميّـاً من أديان الأمبراطورية الرومانية . وبذلك أصبـح للكنيسة صفة رسمية لم تلبث ان سيطرت على الحياة العقلية في اوروبا . فلما سقطت الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس قوي سلطان الـكنيسة وتغلغلت آراؤها في المجتمع الاوروبي . فكان من جراء ذلك ان فقد هذا المجتمع النشاط العلمي المدني الذي بدأ يتذوقهُ في أحضان الأمبراطورية الرومانية ، واستعاض عنهُ بحماسة دينية كانت بعيدة الاثر في نفوس القوم . والذي يعنينـا من آثار هذه الحماسـة انها دفعت الـكثيرين من الأوروبيين الى زيارة البلاد التي عاش فيها المسيح . فتجشموا مشاق الاسفار وتحملوا صعوبات التنقل، لينعموا برؤية فلسطين والتبرك بآثارها. ومن ثمّ عني هؤلاء الزوّار بالتعرف على الاماكن التي ظنوا ان لها علاقة بحياة المسيح أو رسله أو غيرهم من القديسين . وقد قبلوا الاقاصيص التي سمعوها والاساطير التي حكيت لهم دون ان يجادلوا بشأنها أو يناقشوها

ولذلك يحتم علينا أن نقرأ أخبارهم ونحن على أشد ما نكون من الحذر

واذا تذكرنا هذا الامر عرفنا السر في انعدام الشمول والاحاطة في أخبار هؤلاء الحجاج . فقد كان همهم أن يتنقلوا في البلاد باحثين عن الاماكن المقدسة المسيحية دون ملاحظة ما بينها ، أو العناية بشؤون السكان ، الاّ ان جاء ذلك نتيجة لمسئلة شخصية . ويلفت نظرنا الدكتور بلس ، بهذه المناسبة ، الى ان انطونيوس الشهيد (من حجاج

القرن السادس) انما ذمّ اهل صور وصيدا ومدح اهـل غزة لان الاولين ضايقوه والآخرين أظهروا حبهم للسياح[1]

ونرى انهُ منذ القرن السادس تزداد الروايات عن الآثار المقدسة ، اي الأشياء التي تعزى الى شخص المسيح ومن له بهِ صلة والسبب في ذلك يرجع الى رغبة نصارى الغرب انفسهم في الآثار المقدسة ، وعناية السياح وغيرهم باشباعها[2]

ومن الطبيعي ان نتجه عناية الحجاج نحو فلسطين ، دون غيرها من اجزاء سوريا أو من مصر . على اننا ، مع ذلك ، نجد ان خمسة من هؤلاء الحجاج — بينهم سيدة واحدة — اتسعت اسفارهم فشملت بعض الأقطار المجاورة ، وهم سلفيا (من القرن الرابع) وانطونيوس (من القرن السادس) واركولف (من القرن السابع) وولبولد (من القرن الثامن) وبرنارد (من القرن التاسع)

وقد وصلت الينا مخلفات الكثيرين من زوار الاراضي المقدسة بين القرن الرابع والقرن التاسع ، وأبعدهم أثراً في تعريفنا بالبلاد هم (١) من القرن الرابع حاج بوردو ٣٣٣ ، وباولا ٣٨٥ وسلفيـا (اتريا) (٢) من القرن الخـامس جيروم ويوخيروس وداود (٣) من القرن السادس ثيودوسيوس وانطونيوس ٥٦٠ (٤) ومن القرن السابع اركولف حول ٧٠٠ (٥) ومن القرن الثامن ولبولد ٧٢١ — ٧٢٧ (٦) ومن القرن التاسع برنارد الحكيم ٨٦٧ . هذا وقد وصل الينا أيضاً كتاب من القرن السادس لا نعرف شيئاً عن مؤلفه بعنوان « وصف مختصر للقدس »

كان حاج بوردو[3] أول زائر وصلتنا أخباره كاملة . وهو يحدّثنا في أول كتابه عن الطريق التي اتبعها في سفره من مدينته بوردو بفرنسا الى ان وصـل قيسارية بفلسطين ، مارّا بميلان وبلغراد والقسطنطينية وانطاكيـة . ومن قيسارية زار بيسان فنابلس فالقدس فالخليل . ومن القدس يتجه لزيارة اريحا ونهر الاردن والبحر الميت . ثم يعود من القدس الى اللد ومن ثمّ الى القسطنطينية فبوردو . والـكاتب ينقلنا من مكان الى آخر نقلاً سريعاً ، دون أن يصف الطريق أو السكان ، لـكنه يروي قصة هنا وأخرى هناك مما له علاقة تاريخية بالأماكن ، كالذي يرويه إذ وصل زرعين : «هنا حكم اخاب ، ووعظ ايليا »

PPT,Vol. I (٣) Jenkins in Travels p. 53 (٢) Bliss p. 45 (١)

أما باولا [١] فقد قضت سنتين متنقلة مسافرة تصحبها ابنتها فزارتا أثناءهما من فلسطين ويافا والقدس والخليل والجليل كله والسامرة وغزة . وذهبتا الى مصر براً وعادتا منها بحراً الى غزة . ثم استقرتا في بيت لحم الى حين وفاة الأم سنة ٤٠٤ وقد انصرفت في هذه المدة الى أعمال البر فأنشأت أديرة وتكايا للحجاج بين يافا وبيت لحم [٢]

وقد روى جيروم أخبار باولا وجمع رسائلها بعد موتها بمدة وهي فياضة بالحيوية زاخرة بالعاطفة ، هذا الى معلومات طبوغرافية ترجح ان الفضل فيها يعود الى جيروم وقد ورد وصف شائق لبيت لحم في احدى رسائلها جاء فيه [٣]. كل ما في قرية المسيح خلا التسابيح ، هادئ . حيثما قلبت وجهك سمعت التهليل . فالحارث القابض على محراثه ينشد هللويا ، والحاصد المضنى يستعيد نشاطهُ بتلاوة المزامير ، وحارس الكرم يرتل نشيد داود . هذه هي أشعار السكان وأناشيدهم في هذه البلاد ، هذه هي أغاني الحب التي يرددها الراعي ويترنم بها الفلاح . لا يهمنا أن نفكر فيما نعمل ولا كيف نظهر ، بل ان نرى ما تتوق اليهِ نفوسنا »

كانت رحلة القديسة سلفيا (أثريا) [٤] أوسع نطاقاً وأبعد مدى من سابقتها باولا ، إذ شملت مصر وسيناء وفلسطين وشرق الاردن وسوريا وبعض آسيا الصغرى . والجزء الأول من رحلتها مفقود ، لكن الباقي منهُ يدل على دقة في الوصف حتى ان بيزلي قال عنها « لو ان كل ما وصلنا من الأخبار كتبه أشخاص على شاكلتها ، وكانت لهم ثقافة علمية وخبرة عالمية ، لكانت معرفتنا عن الشرق أقرب الى الصواب مما هي الآن » . أقامت سلفيا في القدس ثلاث سنوات (حول سنة ٣٨٥) . ووصفها للقدس من الناحية الطبيعية بين ما وصل الينا من كتاباتها . لكننا حصلنا منها على وصف حفلة تقبيل الصليب يوم الجمعة الحزينة (الجمعة العظيمة) في كنيسة الجلجثة في القيامة إذ تقول [٥] « جلس المطران في مقعده الخاص ووضعت أمامهُ طاولة عليها صندوق

---

(١) PPT, Vol. I
(٢) Rappoport p. 226
(٣) كانت هذه الرسائل موجهة الى صديقة لها اسمها مرسيلا كانت مقيمة في روما
(٤) يرجح انها فرنسية الاصل من مقاطعة اكتين « راجع PPT Vol. I » وقد تكون راهبة اسبانية اسمها Eucheria « راجع Ency Bri. art. Eucheria »
(٥) Travels p. 47

فضي يحتوي خشب الصليب المقدس . فتح الصندوق ووضع ما فيه على الطاولة ، فوضع المطران يده على الخشبة وتنبه الاساقفة المحيطون بهِ للحراسة ، وتقدم الناس واحداً واحداً فانحنوا ثم لمسوا الصليب بجباههم أولاً ثم بمحاجرهم ثم قبلوه ومروا . والغاية من وجود الاساقفة هو المحافظة على خشب الصليب إذ انهُ حدث مرة أن اقترب أحد الناس لتقبيله فعضَّ جزءًا منهُ للتبرك وهرب بهِ»

لكن سلفيا نقلت في أخبارها ما سمعته من القصص عن الاماكن المقدسة ، وروت انها رأت شجرة الحق التي غرسها موسى وهارون في صحراء التيه ، والمكان الذي أقام فيهِ بنو اسرائيل العجل الذهبي ، والعليقة التي كلّم موسى أمامها الرب بعد أن رآها تتقد . هذا الى عشرات من هذه الامثلة [١]

ومن حجاج القرن الخامس اثنان حريان بالذكر جيروم وداود ، أقام جيروم [٢] في بيت لحم أربعاً وثلاثين سنة وتوفي فيها سنة ٤٢٠ وقد تنقل كثيراً في فلسطين . والاثر الرئيسي لجيروم انهُ نقل كتاب يوزبيوس (من اهل القرن الرابع)[٣] من اليونانية الى اللاتينية وعلق عليه وزاد في معلوماته ، حتى صح ان يعتبر أحد مؤلفي الكتاب . والكتاب يحتوي على ثلاثمئة اسم لاماكن مختلفة في الارض المقدسة من حيث علاقتها بالكتاب المقدس ، مع ذكر المسافات بينها ، فضلاً عن سبعمئة مكان آخر لا يعينها بالضبط لانها كانت قد درست وعفت آثارها . والكتاب يمكن الاعتماد عليه في انهُ حفظ لنا النظرة التقليدية للاماكن كما كانت معروفة في أيامه ، وهذه كان قد تسرّب اليها بعض الخطأ ، ومن هنا جاء ما نجده من اضطراب في بعض النتائج التي وصل اليها جيروم ، عند ما نقابلها بنتائج البحث العلمي الحديث[٤] ويجدر بنا ان نذكر هنا انجيروم ترجم الكتاب المقدس الى اللاتينية الترجمة المعروفة باسم (Vulgate)

اما داود الولشي فقد أُوحي اليهِ والى اثنين آخرين أن يتوجهوا الى القدس ليقوموا بواجب الحج . فلما اجتازوا بحر المانش وهبطوا فرنسا لم يستطيعوا التفاهم مع اهلها فحلت نعمة الروح القدس على داود فصار يتكلم بكل لسان ، ولم يبق ثمة

---

(١) Travels C. II (٢) PPT. Vol. I و Beazley I, 54

(٣) المعروف باسم Onomastico

(٤) Conder, Q. S (1896) p. 229 و Robinson, Researches I, p. 32

صعوبة . ولما وصلوا القدس قابلهم البطريرك ، الذي كان قد أُوحي اليهِ باقترابهم ، بالتبجيل ، وسام القديس داود رئيس اساقفة . وهنالك طلب اليهم ان يدحضوا حجج اليهود الدينية، فقاموا بالامر ، حتى أقنعوا الكثيرين الذين أخذوا يدخلون في المسيحية أفواجاً وقد كافأ البطريرك داود على خدماتهِ بهدية مقدسة شملت مذبحاً وجرساً كبيراً وهراوة وحلة منسوجة من الذهب وكل واحدة منها كانت لها كرامات وعجائب . ولما اعتزم داود العودة الى بلاده حملت الملائكة له الهدية ، اذ لم يكن باستطاعته ان يحملها بنفسه . وكذلك حملت هدايا رفيقيه[١]

وصلنا الى حجاج القرن السادس الذين بقي من آثارهم « الوصف الموجز لمدينة القدس » و « رحلة ثيودوسيوس » واخبار انطونيوس الشهيد . وتمتاز هذه كلها ، وغيرها مما وصلنا من القرن نفسه ، بعنايتها بالآثار المقدسة ، التي يتزايد عددها حتى يبلغ المئات في القرون التالية . « فالوصف الموجز » يعدد الحربة المقدسة ، المصنوعة من خشب الصليب ، والتي تلمع في ظلام الليل الدامس كأنها الشمس في رابعة النهار ، والقرن الذي صبَّ منهُ الزيت على رأس كل من داود وسليمان لما مسحا ملكين ، والخاتم الذي كان سليمان يختم بهِ على الجن ، والتراب الذي خلق آدم منه ، والقصبة والاسفنجة ، وعدا عشرات غيرها من الآثار . وقد تابعهُ ثيودوسيوس (٥٢٠ — ٥٣٠)[٢] فذكر هذه وأضاف اليها سواها . اما انطونيوس الشهيد سنة ٥٧٠ فقدكانت رحلته مثل رحلة سلفيا واسعة النطاق طريفة في اخبارها . فقد زار فلسطين وسيناء ومصر وسوريا والجزيرة ودوّن ما رأى وسمع فجاءت كتاباته مليئة بذكر الآثار القدسية مثل كرسي مخاض العذراء ودنان الخمر في قانا الجليل (كفر كنا) والكتاب الذي تعلم فيه المسيح « الالفباء » في الناصرة ، حيث لا يزال المقعد الذي جلس عليه مع رفاقه موجوداً . ويقول في مكان آخر ان أهل السامرة كانوا يكرهون المسيح حتى انهم كانوا يحرقون آثار أقدام السياح المسيحيين ويأبون أن يأخذوا منهم النقود قبل طرحها في الماء لتطهر من رجس أيديهم . ويحدثنا انطونيوس عن التكايا التي أنشئت في البلاد المقدسة لايواء الحجاج والاماكن التي كان يعتزل فيها البرص . ولكنهُ يبالغ في عددها وفي سعتها[٣]

---

(١) Travels pp. 40-45 (٢) Geyer : It. Hieros. IV—XIII Saec

(٣) راجع الاصل في PPT. Vol. II والبحث النقدي في Travels pp. 52-60 و Bliss pp 58-60

منذ أوائل القرن السابع تغيرت الاحوال السياسية في الشرق الادنى كله فقد احتلّ الفرس سوريا ٦١٤ — ٦١٧ ودمروا الكنائس وغيرها من أماكن العبادة . ولما استعاد البزنطيون البلاد رمموا بعض ما تهدم ومن ذلك كنيسة القبر المقدس . وفي القرن نفسه احتلّ العرب سوريا بعد معركة اليرموك ٦٣٦ . والذي نعرفه ان هذا الاحتلال لم يمنع الحجاج من المجيء الى الأراضي المقدسة [1] بل ان العرب شجعوهم على القيام بهذا الفرض الديني . فالحجاج الذين زاروا البلاد في العصر الاموي مثلاً لا نجد في كتاباتهم أثراً للشكوى أو التذمر . إلاّ اننا نلحظ انهم أخذوا يفدون بطريق مصر ، بدل طريق آسيا الصغرى ، بسبب العداء الذي كان مستحكماً بين العرب والروم . والحوادث العدائية الفردية التي وقعت لبعض الحجاج كان سببها وشاية اليهود . ولما قام العباسيون اتسع نطاق التجارة مع العرب وزادت الزيارات عما كانت عليه قبلاً وهذه الفترة التي مرت بين احتلال العرب لسوريا وبين أواخر القرن التاسع يمثلها ثلاثة من الحجاج اركولف وولبولد وبرنارد الحكيم

واركولف مطران من بلاد الغال زار الاراضي المقدسة ودمشق وصور والاسكندرية والقسطنطينية في أواخر القرن السابع وقضى في القدس تسعة شهور وتردد على كل البقاع المحيطة بها . وقد قصّ أخبار سياحته على راهب انكليزي اسمه ادمنان وهذا دوّنها فيما بعد ولعلهُ أضاف اليها شيئاً نقله من أخبار الرحالين السابقين

أخبار اركولف ثلاثة أقسام.أولها عن القدس وما اليها . والثاني عن بقية الاراضي المقدسة ومصر. والثالث عن القسطنطينية . والرحالة يعنى بملاحظة أمور كثيرة لها علاقة مباشرة بجغرافية البلاد في أيامه . فهو يشير الى صخور جبال القدس الجرداء وقحولتها ونباتها الشائك وضعف محصولها الزراعي ويقارنها بالارض الخصبة حول قيسارية والزيتون الكثير المزروع في الطريق اليها [2] . وينتبه الى الغابات الكثيفة التي كانت تحيط ببحيرة طبريا [3] والبساتين المحيطة بدمشق [4] وأزهار جبل طابور [5] وقد زار برية الاردن ووصف النهر ومكان اعتماد المسيح والجراد والعسل البري الذي استعملهُ يوحنا في حياته ، اذ يقول [6] «وفي البرية نوع من الجراد الصغير

---

(١) Rappopoort pp. 267 & 270 و Bliss P. 61 (٢) Early Travels p. 5

(٣) نفس المكان ص ٨ (٤) نفس المكان ص ١٠ . (٥) نفس المكان ص ٩

(٦) Early Travels pp. 8-9

لا يتجاوز حجم الواحدة منه حجم الاصبع ، يسهل القبض عليه لانهُ يقفز ولا يطير، يقلى بالزيت ويستعمل طعاماً . وفيها أيضاً شجر له اوراق كبيرة مستديرة ، اذ ضغطت خرجت منها عصارة حلوة — هـذا هو العسل البري». واذ يصـل اركولف الى الاسكندرية يصف ميناءها وصفاً دقيقاً ويشير الى اتساع نطاق تجارتها ويحددها ببحيرة مريوط والنيل ويقول انهُ احتاج الى نهار كامل من أيام تشرين الاول (اكتوبر) حتى تمكن من اختراقها [١]. ويعلق رايط على هذا الوصف بقوله يظهر مما بين ايدينا من وصف اركولف ان الاسكندرية لم تفقد قيمتها بعد الفتح العربي [٢]

لكن اركولف مع كل ذلك لم يستطع أن يتخلص من الروح الدينية العامة القائمة على ان للآثار المقدسة فعلاً عجيباً في شفاء الامراض وغفران الخطايا. فهو يعدد الآثار التي رآها مثل الكأس الفضية المقدسة والمنديل الذي غطي بهِ المسيح في القبر والاسفنجة والحربة التي شهدت صلب المسيح . وقد لمسها وقبلها . وذكر انهُ توجد على جبل الزيتون (الطور) كنيسة الصعود التي لاسقف لها ، لان عاصفة تهب في كل سنة في مثل الوقت الذي صعد فيه المسيح الى السماء فتعصف بالسقف اذا كان موجوداً أو بالمواد التي تكون قد جمعت لبنائه . وقد شاهد ذلك بنفسه . ويقول في مكان آخر « اعتاد الناس أن يفدوا الى القدس جماعات كبيرة في الخامس عشر من ايلول (سبتمبر) من كل سنة للاحتفاء بعيد الصليب المقدس ولتبادل السلع والبضـائع ، حتى انه كان من الصعب السير في طرق المدينة لكثرة الأقذار المسببة عن الحيوانات التي يؤتى بهـا . ولكن العناية الالهية كانت تبعث على أثر مغادرة الناس للمدينة بأمطار غزيرة تنظفها [٣]

وولبولد الانكليزي [٤] الذي زار سوريا بين ٧٢١ — ٧٢٧ هو بطل سـياح القرن الثامن . وقد كان من عادة الكثيرين من جوابي تلك العصور وحجاجهـا أن يكتفوا بذكر أسماء ما يمرون به من البلاد قبل وصولهم فلسطين ، فاذا جاءوها ذكروا

---

(١) Early Travels P. 10-11 (٢) نفس المكان تعليقه «٢» (٣) نفس المكان ص ١

(٤) وصلت اخبار ولبولد الينا في نصين يسمى احدهما هودوبوريون Hodoeporieon والآخر « اسفار » . ومع ان المادة الرئيسية الموجودة في كل منهما واحدة فالاول أدق ولكن الثاني ألذ . وقد املى ولبولد نفسه النص الاول على راهبة انكليزية من اقاربه كانت في دير هيدنهيم . اما الاسفار فيرجح ان واضعها هو احد رفقاء ولبولد . وقد اعتمد في كتابتها على ما نقلته الراهبة مضيفاً اليه ذكرياته ونتائج مطالعاته في التاريخ المقدس . وقد نشر النصان في PPT. Vol. III مع مقدمة

أخبارها بالتفصيل ، لكن ولبولد يصف رحلته كلها في أواسط اوروبا واجتيازه جبال الالب ومروره بروما والبراكين التي شاهدها . ويقول مثلاً ان سكان المدينة المجاورة لبركان اتنا في صقلية يدفعون عن أنفسهم غائلة ثوران هـذا البركان برفع وشاح القديسة « اغاتا » المدفونة عندهم فيهدأ ثائر جهنم

هبط ولبولد سوريا في انطرطوس وسافر منها الى حمص . ولما كان العرب يخشون عندها تجسس الغربيين بسبب ما كان بينهم وبين الروم من عداء ، وكان عدد رفاق ولبولد قد بلغ الثمانية فقد راب القوم أمرهم وألقي القبض عليهم وزجوا في السجن ، الى أن حقق معهم ومثلوا أمام الخليفة يزيد الثاني (٧٢٠ — ٧٢٤) فلما عرف بلادهم وغايتهم أطلق سراحهم وزودهم برسائل تمكنهم من التجول في البـلاد وأعفاهم من ضريبة الحج [١]. فسافروا الى دمشق ومنها الى القدس بطريق الناصرة وطبريا ووادي الاردن واريحا . واتخذوا المدينة المقدسة مركزاً لزياراتهم . وقد مروا في احـداها بحمص ثانية فزودهم حاكمها بكتاب لكل اثنين منهم وأمرهم أن يسافروا اثنين اثنين فقط إذ لم يكن سبيل لهم للحصول على طعام يكفيهم جميعاً اذا سافروا معاً [٢] (!)

وقد كان نقل زيت البلسان من فلسطين ممنوعاً ، وكان عقاب من يخرجهُ الموت ولكن ولبولد رغب في حمل بعضه الى بلاده . فملأ أنبوبة صغيرة منهُ ، ثم جعلها في أنبوبة أخرى أكبر منها ملأها زيتاً صخرياً لعلهُ النفط أو القار . فلما وصـل الى صور وفتشوا أمتعته لم يهتدوا الى البلسم بسبب رائحة الزيت [٣]. ومن صور سافر ولبولد الى القسطنطينية

والفائدة الجغرافية التي نحصل عليها من انباء ولبولد قليلة ، لانها مقصورة على ملاحظات تتعلق ببعض الاماكن التي لها علاقة بالتوراة . لـكن الصورة التاريخية لذلك العصر ، من حيث الحاجة الى جواز سفر للتنقل وعناية الحـكام بالتدقيق على الغرباء والتفتيش على بضائعهم وأمتعتهم والملاحظات المتعلقة بمعيشة الناس ذات قيمة كبيرة [٤]

برنارد الحـكيم هو نموذج سيّاح القرن التاسع الميلادي ، وهو القرن الاخير من عصر التفاهم والتسامح بين الشرق والغرب الذي سبق الحروب الصليبية . وبرنارد

---

(١) Early Travels pp 15-16 (٢) نفس المكان ص ٢٠ (٣) نفس المكان ص ٢١ Early Travels pp 16, 18, 21 (٤) راجع مثلا راجع البغدادي عن البلسان في المختارات

لا يبدأ رحلته قبل ان ينال رضى قداسة البابا في رومه ثم هو يمر بالاراضي الايطالية التي كانت خاضعة للنفوذ العربي ، فيحملهُ صاحب باري[١] رسائل الى امير الاسكندرية والى امير الفسطاط في مصر . وكذلك كان شأنهُ في كل مدينة مرّ بها ان يعطى كتاباً الى السلطة الحكومية في المدينة التالية لقاء دينار او دينارين[٢] »

وقد كان برنارد أدق ملاحظة وأحرص على راحة المسافرين ممن سبقهُ ،لذلك عني بوصف صعوبات الطريق واماكن اكتراء الدواب وشراء الزاد للسفر. وقد جاء برنارد فلسطين من الجنوب ، على نحو ما دخلها ابن بطوطة بعده بنحو خمسة قرون ، فجاءَ من دمياط الى تنيس بحراً ثم سار الى الفرما (القلزم) . وفي الفرما وجد كثيراً من الابل يكتريها المسافرون لحملهم وأمتعتهم ستة أيام عبر الصحراء . ويذكر برنارد خانين كبيرين هما مركزان للتبادل التجاري بين المسافرين وأهل البلاد . ثم يمر بالعريش وغزة ويصف الأرض المزروعة حول الاخيرة ويقارنها بالصحراء البيضاء كأنها مكسوة بالثلج دائماً[٣] واذ يصل الى الرملة يتجه نحو القدس ويحل في النزل الذي كان قد بناه شارلمان للحجاج[٤]

ويؤسفنا ان برنارد يقتضب كثيراً عند ما يصف القدس وبقية فلسطين . لكنه يعنى بذكر الحفلات الدينية . وهو أول من ذكر « فيض النور » في اليوم السابق للفصح المقدس . فقد قال « يجد الداخل الى القبر قناديل كثيرة معلقة فوقه . فاذا كان صباح السبت السابق ليوم الفصح بدئت الصلاة في الصباح ، حتى اذا تمت ، أنشد الكل بصوت رخيم ، استجب يا رب ، واستمروا في ذلك حتى ينزل الملاك وينير القناديل المذكورة وعندها يتقدم البطريرك ويعطي لكل مطران حصته من هذا النور المقدس ، ثم يسمح للشعب أن ينير كل قنديله[٥] »

---

(١) Early Travels P. 23 . كان حاكم ايطاليا والقائد العام فيها خفاجه الذي انتدبه أبو الغرانيق محمد الثاني بن احمد الاغلبي لتتمة فتح ايطاليا سنة ٢٥١ هـ — ٨٦٥ م واستمر في فتوحه حتى وصل جنوه

(٢) يروي برنارد الصعوبات التي لقيها في التفتيش على امتعته على ايدي موظفي الجمرك في الاسكندرية « Early Travels pp 24–5 » . ويذكرنا هذا بما لقيه العبدري وابن جبير « راجع تحت في المختارات »

(٣) نفس المكان ص ٢٦ (٤) نفس المكان ص ٢٦ راجع ايضاً MUNDPV 1895

(٥) Early Travels P. 26

وعلى ذكر ما أورده برنارد عن سبت فيض النور ننقل ما كتبه ابو الفرج عن هذه المسألة في زمن الحاكم بأمره . « قيل انه وشى بعضهم الى الحاكم ان النصارى يوم فيض النور يدهنون السلاسل التي تعلق بها القناديل بزيت البلسم ، فاذا جاء الحارس العربي المكلف حراسة القبر وختم بابهُ ، خشية التلاعب فيه اشعلوا البلسم الذي على السلاسل من ثقب خفي ، فتضاء القناديل . وعندها تنهمر دموع الفرح من ما قي الشعب ، ويصيح « يا رب ارحم » حاسبين ان النور قد هبط من السماء فيقوى بذلك ايمانهم [١]

كان القرن التاسع الميلادي (القرن الثالث الهجري) عصراً من عصور النظام والاستقرار في الشرق العربي ، بينما كان نترة من فترات الاضطراب في اوروبا وقد ترك ذلك في نفس برنارد أثراً قويًّا بدا في الملاحظة التي ختم بها اخباره عن رحلته ، اذ قال « ان المسلمين والمسيحيين في القدس ومصر هم على تفاهم تام . حتى انني اذا سافرت ونفق في الطريق جملي او حماري وتركت أمتعتي مكانها وذهبت لاكتراء دابة من البلدة المجاورة عدت فوجدت كل شيء على حاله لم تمسه يد . فقانون الامن العام في تلك الديار يقضي على كل مسافر بالليل ان يكون بيده وثيقة تبين هويته فاذا عدمها زجَّ في السجن حتى يحقق في امره ويتضح قصده [٢]

وقد وصلت الينا انباء كثيرين من الحجاج الذين جاؤوا الى الارض المقدسة والبلدان المجاورة في القرنين العاشر والحادي عشر نكتفي بالاشارة الى بعضهم . فمن جاءَ في القرن العاشر كونراد أسقف كونستانس ٩٣٤ — ٩٧٦ وهكذا أم جيرو رئيس أساقفة كولون بالمانيا والكونتس هدموند [٣] من ايبرزبرغ . أما رحالو القرن الحادي عشر فنهم يوبو رئيس أساقفة تريير بفرنسا ١٠٢٨ — ١٠٣٠ م وقد وصل الى نهر الفرات . وفي سنة ١٠٦٤ — ١٠٦٥ م جاء فلسطين أربعة أساقفة هم سغفريد أسقف مينز وغونتر أسقف بامبرغ ووليم أسقف اترخت واوتو أسقف ريغنزبرغ [٤] وقد كان معهم سبعة آلاف رجل ، فقد أكثرهم في البحر وفي معارك السلاجقة في فلسطين ، ولم يعد منهم سوى الفين [٥]

---

(١) منقول عن Early Travels. p. 27 (٢) Early Travels p. 30

(٣) Hedemond (٤) Siegfried و Gunther و William و Otto

(٥) تجد تفصيل هذه الرحلة والمعركة التي نشبت بين الرحالين وبين اهل فلسطين في Crusades and other articles pp. 34-4

الفصل الثالث

الجغرافية والرحلات في الاسلام

كانت مسألة ادارة البلاد المفتوحة وتنظيمها من أمهات المسائل التي شغلت العرب وهي مسألة كثيرة التعقيد لارتباطها بالطريقة التي تمَّ بها الفتح . لذلك اهتمَّ اصحاب السير والمغازي ورواة الاخبار ببحثها ، ليتقرر مقدار الجزية والخراج . ومن ثمَّ كان وصف البلدان جزءاً من عمل المؤرخين . لكن الأمر لم يلبث ان اختلف . فاستقلَّ كتَّاب بوصف الاقاليم ودرسها . وكانت المحاولات الاولى تدور حول التعرف الى البلاد وطرقها وخراجها . ومن ثمَّ كان كتاب المسالك والممالك — وهو من أقدم الكتب الجغرافية العربية — تقريراً عن جباية المملكة العباسية في اواسط القرن الثالث وليس من المصادفات ان مؤلفه ، ابن خرداذبه ، كان متولي البريد والخبر بنواحي الجبل بفارس . وكذلك كتاب الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر . فانهُ يبين الطرق والمسافات فضلاً عن قيمة جباية المملكة

وقد شجع الاسلام الكتابة الجغرافية من ناحيتين اخريين : اما الاولى فجاءت عن طريق الحج . فالحج فريضة على المسلم ما استطاع اليهِ سبيلاً . ومن حق الحاج على سلفه ان يبين له خير الطرق للوصول الى مكة والمدينة . ويشرح له الصعوبات ووسائل التغلب عليها وكان أثر هذا الامر كبيراً في اثارة الكتَّاب الى تدوين ما لاحظوا ورأوا ، كابن جبير وابن بطوطة . واما الناحية الثانية التي شجع الاسلام فيها الكتابة الجغرافية فهي طلب العلم . فقد كان المسلمون يتنقلون في سبيل انتجاع المعرفة من قطر الى آخر . وان علماءهم ليحرصون على تدوين مشاهداتهم ليطلع عليها الخلف ويستفيد منها

ونحن اذا عرضنا للمكتبة الجغرافية العربية وجدناها تضم انتاج ما يقرب من الثلاثين من كبار المؤلفين الذين وصلت الينا آثارهم، غير الذين لم يبق من كتاباتهم شيء . وقد تأثرت الابحاث الجغرافية في عهدها الاول بما وصل اليهِ اليونان من قبل . شأن بقية الابحاث التي أخذها العرب عنهم

ومع انهُ لم تصل الينا ترجمة تامة لكتاب بطليموس ، فقد خلف لنا الخوارزمي الفلكي خلاصة له عملها سنة ٨٣٠ ميلادية [(١)]. فالاطوال والعروض والمواقع عنده وعند غيره من معاصريه ترجع في غالبها الى كتاب بطليموس . ومن أظهر آثار الكاتب اليوناني في جغرافيي العرب في هذه الفترة تقسيم الارض الى سبعة أقاليم . وكتاب الكندي المسمى « رسم المعمور من أقطار الارض» هو اقتباس لبطليموس اليوناني. وابن خرداذبه نقل بعض كتابه « المسالك والممالك » عن بطليموس أيضاً ثم أضاف اليه الخراج والطرق على ما ذكره هو في مقدمة كتابه

ومثل ذلك يقال عن اليعقوبي وابن الفقيه وابن رسته

***

ويرى ميلر ان الكتّاب الجغرافيين العرب الذين ذكروا يمثلون المعرفة الجغرافية اليونانية الرومانية مترجمة الى اللغة العربية ، وان الخرط التي رسموها كانت منقولة عن بطليموس [(٢)]

على ان القرن الرابع الهجري يمثل في تاريخ البحث الجغرافي العربي فترة النضج . والاصطخري وابن حوقل والمقدسي يمثلون درجة عالية في البحث المبني على الاختبار الشخصي والمعرفة المكتسبة من السفر والتنقل . والتأليف الجغرافي الناضج هذا استمر ثلاثة قرون وكانت تظهر فيه ، في أول أمره ، آثار فارس ، لكنه لم يلبث ان خلصت عروبته . والاتجاهات التي نلمسها في ما خلفه لنا كتّاب هذه الأزمنة ثلاثة . أولها : عناية شديدة بأقاليم العالم الاسلامي والاقطار المجاورة على ما نراه عند البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي. [(٣)] وثانيها: نوع من التخصص في قطر واحد . فقد كتب الهمذاني «صفة جزيرة العرب» وكتب البيروني عن الهند وترك لنا ابن فضلان

---

(١) Legacy of Islam p. 84

(٢) Mappae Arabicae Band I/I p. 10 ص ١٠

(٣) المقدسي ص ١ و٤٣ والاصطخري ص ٢ و ١٢ وابن حوقل ص ٥ وقدامة ص ٢٣٤

وصفاً لبلغاري الفولغا ، إذ زار بلادهم في وفد الخليفة المقتدر سنة ٣١٠ هـ — ٩٢١ م[١]
وأما الاتجاه الثالث فقد بدا في كثرة المعاجم الجغرافية التي وجدت طريقها الى المكتبة الجغرافية منذ القرن الخامس للهجرة . فالبكري يعرفنا بكتابه بقوله : « هذا كتاب معجم ما استعجم ذكرت فيه جملة ما ورد في الحديث والاخبار والتواريخ والاشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسوبة محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة » وياقوت الحموي في طليعة أصحاب المعاجم الجغرافية على الاطلاق . فكتابه معجم البلدان « خزانة علم وأدب وتاريخ وجغرافية لأنه اذا ذكر بلداً أورد شيئاً من تاريخه ومن اشتهر فيه أو نسب اليه من الأدباء والشعراء والفقهاء . هذا بالاضافة الى مقدمة وافية في علم الجغرافية » والمعجم دقيق في معلوماته منظم في طريقته .

وتمتاز هذه الفترة بأن الخرط التي رسمها هؤلاء الجغرافيون «كانت انتاجاً عربيًّا خالصاً » [٢] وقد أحصى ميلر مئتين وخمساً وسبعين خارطة للعالم الاسلامي تعود الى ذلك العصر [٣] (هذا باستثناء خرط الادريسي الآتي ذكرها فيما بعد)

وثمة ناحية أخرى من الانتاج الجغرافي حرية بالعناية هي الموسوعات الكبيرة التي ظهرت في القرن الثامن الهجري . فقد وصلت الينا كتب فيها التاريخ والأدب والجغرافيا وغير ذلك ، ومن هذه نهاية الارب للنويري وصبح الأعشى للقلقشندي ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري . فهذه الكتب المعتبرة في مقدمة خزائن المعرفة تحوي فصولاً في الجغرافية العامة والسياسية تمدنا بالكثير من معلوماتنا عن الدول الاسلامية وغيرها من الاقطار في تلك العصور

وتمتاز الكتب الجغرافية العربية ، وخاصة بعد تحررها من تأثير اليونان المباشر فيها ، بأنها تعتمد على المشاهدة الشخصية والحس . فاليعقوبي يقول عن نفسه انه سافر وحدّث وسأل . وابن حوقل يقول : « وأعانني على تأليفه تواصل السفر وانزعاجي عن وطني ... الى أن سلكت وجه الارض بأجمعه في طولها ، وقطعت وتر الشمس على ظهرها » . أما المقدسي فقد جال في البلدان ودخل أقاليم الاسلام ولقي

---

(١) لفت الاستاذ محمود محمد شاكر نظري الى ما افاده ياقوت مما خلفه ابن فضلان عن هذه البلاد
(٢) ميلر Miller ص ١٤ (٣) ميلر ص ٢٣ — ٢٤

العلماء وخدم الملوك وجالس القضاة ودرس على الفقهاء واختلف الى الأدباء والقرّاء ، وخطب على المنابر ، وساح في البراري وتاه في الصحاري وأشرف على الغرق وسجن في الحبوس ولزم التجارة في كل بلد وعني بالمعاشرة مع كل أحد . وهذا الأمر — أي العناية بالرحلة في سبيل التعرف الى البلدان والكتابة عنها — ينطبق على العالم الاسلامي ذلك ان أكثر الكتّاب عنوا بهذا الجزء من العالم . ومع ان بعضهم تحدّث عن البقاع الأخرى ، فقد جاء هذا متأخراً .

فالاصطخري يقول : « ذكرت في كتابي هذا أقاليم الارض على الممالك وقصدت منها بلاد الاسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما يعود بالاعمال المجموعة اليها ..... »

وابن حوقل يذكرنا انهُ فصل بلاد الاسلام اقليماً اقليماً وصقعاً صقعاً وكورة كورة لكل عمل . وهذان الكاتبان ، يبدآن الوصف بديار العرب . لان القبلة ومكة فيها وهي أم القرى . وهي بلد العرب وأوطانهم . ومثل ذلك المقدسي . اما اليعقوبي فيتخذ العراق نقطة ابتداء لكتابهِ «لانهُ وسط الدنيا وسرّة الارض» ويبدأ بذكر بغداد « لانهـا وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها »

ويعنى الجغرافيون العرب بالمسالك والطرق والمسافات لعلاقتها بالرحلة والتجارة والبريد . وهذه عندهم صحيحة دقيقة . والمستعمل عندهم الفراسخ والأميال للقياس والفرسخ ثلاثة أميال . والميل يقل عن الكيلومتر قليلاً . ويستعملون للمسافات الطويلة وحدة للسير هي اليوم . فسوريا مثلاً طولها خمسة وعشرون يوماً وقد وجدت بعضهم كالادريسي مثلاً يذكر «يوماً طويلاً» في تعيين المسافات

ومن النادر أن يعثر القارئ في كتب الجغرافيين العرب على احصاء يتعلق بعدد السكان . او مقدار ما ينتج في صناعة معينة أو من زراعة مبينة[1] على ان احصاءاتهم المتعلقة بالخراج وارتفاع الارض المترتب على ذلك دقيقة صحيحة . فالارقام التي يوزدها قدامة بن جعفر عن ارتفاع السواد مأخوذة من القيود الرسمية للسنة ٢٠٤ للهجرة وهو يذكرها بالحنطة والشعير والدراهم

---

(١) راجع متز — الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري — الجزء الثاني ص ٢٢٥ وما بعدها . « وأخيراً ظهرت طريقة ساذجة في الاحصاء . فقد ذكر ابن حوقل مرة واحدة ان بمدينة بلرم قصبة صقلية ما يزيد على مئة وخمسين حانوتاً للقصابين ، واراد ان يتخذ من ذلك دليلا على كثرة عدد اهلها » ابن حوقل ص ٨٣

وقد نقل الخلف عن السلف في الكثير من الاحيان . فالبعض ذكر ذلك والبعض الآخر سكت عنهُ . وقد حذر المقدسي قراءهُ « فذكّرهم انه لم ينقل عن أحد ولكنه خبر ودوّن وكتب » .وقد انتقد المقدسي كتب من سبقه من الجغرافيين . فمنهم من كتب باختصار لا يفيد ومنهم من جمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودخلها وكيف المسالك اليها . ومنهم من اختصر ولم يذكر الاسباب المفيدة . ويقول ابن الفقيه الهمذاني[1] انهُ «أدخل في كتابه ما لايليق بهِ من العلوم ... مرةً يزهد في الدنيا وتارةً يرغب فيها ودفعةً يبكي وحيناً يضحك ويلهي » .وهنا نلحظ المقدسي الجغرافي العالم الدقيق الذي يريد ان يكون البحث دائماً مبنيّـاً على الدرس والاختبار منظماً مبوّباً وافياً بحيث لا يخلط بين جدّ العالم وهزل الهازل، كذا نلمس هذه الناحية فيهِ اذ يقول عند تقرير خطته « وفي كتابنا هذا اختصار لفظ يدل على معانٍ . مثل قولنا لا نظير له نريد ان ليس مثلهُ بتة .. .. فان قلنا غاية فانها معنى الجودة من الاجناس » [2] .ولما جاء أبو الفدا تناول في مقدمة كتابه تقويم البلدان من تقدمهُ من الجغرافيين بالنقد . فأظهر ان ابن حوقل والادريسي وابن خرداذبة لم يحققوا الاسماء . وغيرهم لم يحقق الاطوال . اما هو فقد جمع بين التحقيق في الاسماء والاطوال[3] والواقع ان كتابه يصح ان يعتبر تاريخاً انتقاديّـاً للكتابة الجغرافية العربية الى عصره (القرن الثامن للهجرة)

وثمة مؤلف جغرافي آخر حريّ بالالتفات — ذلك هو الادريسي صاحب كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق .كتب هذا الكتاب بالعربية في صقلية في بلاط ملكها روجر الثاني سنة ١١٥٤ م . وصاحبه لم يزر الممالك الاسلامية الشرقية لكنهُ كتب عنها مما حصل عليهِ من كتب الرحلات ورسائل الزوّار

والادريسي يمثل مدرسة جغرافية خاصة . هي التي سماها ميلر المدرسة العربية النورمانية [4] فقد كان بلاط روجر الثاني ملتقى الحضارتين وموئلاً للحرية العلمية في القرن الثاني عشر الميلادي.والخرط التي رسمها الادريسي المعروف كانت ذات أثر كبير في تصوير الدنيا للاوروبيين مدة طويلة بعد عصره

وكانت الرحلة عنصراً قويّـاً في حياة المجتمع الاسلامي في عصوره الزاهرة . فقد رحل الناس لزيارة مهبط الوحي ، ولقوا في سبيل ذلك الكثير من صعوبات السفر التي تحملوها راضين مسرورين . ورحل الناس في طلب العلم من قطر الى آخر . فقد كان العلم

---

(١) المقدسي ص ٦ (٢) المقدسي ص ٧ (٣) ابو الفدا ص ١ — ٢ (٤) Miller ص ٢٤ — ٢٥

منتشرة مراكزه في أنحاء العالم الاسلامي ، وطلابه كانوا يتحملون من المشاق في سبيل الحصول عليه ما يحملنا على احترامهم واجلالهم . ورحل القوم في سبيل الاتجار . فقد كانت الاسواق الاسلامية في مشارق الارض ومغاربها مرتبطة بعضها ببعض كل الارتباط ، وكان التجار يحملون متاجرهم وسلعهم الى حيث يرجون الربح الوفير . أضف الى كل ذلك رحلة الرسل المترددين بين الملوك والامراء ، والمغامرين الواجدين في الرحيل لذة خاصة ، والساعين في سبيل الرزق اذا ضاقت بهم أرضهم ، وجوّابي الآفاق . كل هذه نماذج من الرحلة عرفها العرب والمسلمون . وقد شجعهم على الاستزادة منها خضوع العالم الاسلامي برقعته الواسعة لدولة واحدة بادىء الامر . فلما ذهبت الوحدة السياسية بقيت وحدة الدين ووحدة اللغة . وهاتان ربطتا الحجاج وطلاب العلم ورسل السلاطين وحملة البضائع وزعماء الصنائع فاحتفظوا بالصلة . بل لعلّ الرحلة كانت أقوى في عهد التفرّق السياسي منها قبلاً لاعتياد العالم الاسلامي درجة من المعيشة ، ونوعاً من الحياة ولوناً من التفكير ، تحتم على أفراده الاتصال والاتجار والتبادل الفكري والادبي

وقد دوّن كثير من رحالي المسلمين أخبار أسفارهم وتنقلهم ، فذكروا المدن التي هبطوها ، والمسافات التي اجتازوها والصعوبات التي تغلبوا عليها ، ووصفوا البلاد وزروعها ، وقيدوا مشاهداتهم عن صناعتها وتجارتها ، وأتوا على وصف حياة السكان فعرضوا للطيب من عاداتهم بالمديح ، وعابوا ما فيهم من ضعف ، كالذي انتقده ابن جبير من عادة أهل دمشق في تحيتهم وصفة سلامهم ، فقال عنهم « وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء . . . فيا عجباً لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربّات الجمال »

وهذه اللفتات التي نعثر عليها في مذكرات السائح هي التي تميزه من الكاتب الجغرافي . فهذا يسأل ويستقصي ويحقق ويحاول ان يشمل كل جزء من المنطقة التي يعرض لدرسها . اما الرحالة فينقل ما يشاهد ، وتكون صورته جزئية ، ولكنها ثمينة في هذه الناحية . فبينا المقدسي أو أبو الفدا يذكران كل شيء عن اقليم الشام ، نجد أن ابن جبير ، وهو سائح ، لا يتناول مدن الغور أبداً لأنهُ لم يصل اليها ، وابن بطوطة يذكر جنوب سوريا وخاناته وأماكن المكس والتفتيش فيه لانه جاء البلاد برّاً من مصر

وقد حفظ لنا التاريخ عشرات من مذكرات الرحالين المسلمين ، أكثرها باللغة

العربية ، وبعضها بالفارسية أو التركية . وأهمها الرحلات التي كتبت بين أواسط القرن الخامس للهجرة وأواسط القرن التاسع. وهذه يزيد عددها على العشرين، وهي تحوي أسماء البيروني صاحب الآثار الباقية الذي تناول الهند، وابن بطلان الذي وصف انطاكية وما اليها في رسالة الى صديق له ونقل عنه ياقوت الكثير من المعلومات عن تلك الجهات ، والمازني الغرناطي والسائح الهروي وعبد اللطيف البغدادي والعبدري والبلوي ويشبك. فالعبدري المغربي رحل للحج في أواخر القرن السابع ٦٨٨هـ—١٢٨٩م فسار في ساحل شمال افريقيا الى الاسكندرية ثم ارتحل براً الى مكة . ووصف المصاعب التي لقيها في الاسكندرية على أيدي مفتشي المكوس في الميناء ، حتى انهُ لعنهم . والبلوي اندلسي من أهل القرن الثامن جاء للحج فمرّ بتونس والاسكندرية والقاهرة وقضى بعض الوقت في القدس

أما الرحالون الذين نريد أن نتحدث عنهم في هـذه الفصول من حيث علاقتهم بالشرق العربي فهم ناصري خسرو وابن سعيد وابن جبير واسامة بن منقذ والهروي والبغدادي وابن بطوطة وقايتباي الملك الاشرف



الفصل الرابع

الرحالون المسلمون

ان الرحالين الذين نتناولهم الآن انما هم نماذج للعدد الكبير من الناس الذين تنقلوا في أنحاء العالم الاسلامي لاداء فريضة الحج أو طلب العلم أو لاشباع رغبتهم في التنقل والسفر، وتجنبنا التحدث عن التجار ، لأننا انما نعنى بالأشخاص الذين تركوا لنا صوراً للحياة في الشرق العربي . فناصري خسرو وابن جبير وأسامة والبغدادي وابن سعيد وابن بطوطة — كل واحد منهم نجد عنده هذه الصور الواضحة الخطوط الغنية بالألوان . أما الهروي فرحلته دليل ديني . وقد رأينا أن نتناول رحلة الملك الأشرف قايتباي بالعناية لأمرين . أولهما : انهـا تدل على يقظة الملك وعنايته المباشرة بشؤون ملكه . وثانيهما : انها فريدة في بابها في الرحلة العربية . هذا مع العلم بأن اختصـارها جردها مما كنا نأمل منها ، فظهرت تقريراً رسميًّا مختصراً بدل أن تكون صوراً حية للمجتمع السوري في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد

واول هؤلاء الرحالين هو ناصري خسرو وهو فارسي الاصل والنشأة والثقافة . ولد بالقرب من بلخ سنة ٣٩٤ هـ — ١٠٠٣ م وتأدب وشارك في علوم عصره ونال حظًّا وافراً من معارفه ، وزار الهند وعمل في بلاط الغزنويين . ثم عاد الى فارس وشغل منصباً كبيراً عند السلاجقة ، إذ كتب لجعفر (أو جفري بك) ، وهو أخ طغرل بك . وكان منغمساً في الملاهي والملذات حتى تراءى له ليلة رجل في الحلم نهـاه عن المعاصي ، وأسرَّ اليه ان زيارة البيت الحرام هي سبيل التوبة النصوح . فكان لهذا الحلم أثرٌ بالغٌ في نفسه ، أدَّى الى تغيير حياته ، فأقلع عما كان فيه حالاً وسار للحج في العام التالي

بدأ من مرو فمرّ بنيسابور والري وتبريز وميافارقين وآمد وحرّان ودخل سوريا بطريق منبج . وزار في بلاد الشام أمهات مدنهـا في طريقه ، إذ مرّ بحلب وحماة والمعرة ثم اتجه الى الشاطىء فزار طرابلس وجبيل وبيروت وصـيدا وصور وعكاء . ومن هنا عرج على طبريا ثم عاد الى عكاء ومنهـا اتجه الى الرملة بطريق قيسارية وكفر سابا. ومن الرملة قصد القدس فوصلها سنة ٤٣٨ هـ وقضى فيها أربعة أشهر ثم حجّ وعاد الى القدس بطريق دمشق وسافر الى مصر برّا عن طريق عسقلان فوصل في ٧ صفر سنة ٤٣٩ هـ — ١٠٤٧ م. فأقام في مصر ثمانية أشهر ثم حجّ ثانيةً وعاد وظلّ يتنقل في بلاط الخليفة المستنصر سنتين الى أن غادر عاصمة الفاطميين نهائيًّـا في ١٤ ذي الحجة سنة ٤٤١ هـ — نيسان (ابريل) سنة ١٠٥٠ م بطريق عيذاب الى جدة. وبعد أن حجّ للمرة الاخيرة عاد الى بلاده بعد ان اجتاز الطريق من مكة الى الحسا برّا وزار البصرة ؛ فوصل مرو في ١٥ (حزيران) يونيو سنة ١٠٥٢ م

كان ناصري خسرو اسماعيليًّـا شـديد التعصب لمذهبـه ، وفي أثناء اقامته في القاهرة تدرّج في مناصب الدعاة الاسماعيليين وقابل الخليفة نفسه ، وكان يرى ان القاهرة المركز الديني لمذهبه وان الخليفة هو الامام الحق . ولمـا عاد الى بلاده كان في مقدمة الدعاة . وقد نقل براون عن جامع التواريخ ان ناصري خسرو قضى عشرين سنة متخفياً في جبال خراسان، لما اشتدّ السلاجقة في طلبه . وبقي في منفاه هذا الى أن توفي في سنة ٤٥٢ هـ — ١٠٦٠ م

كان ناصري خسرو دقيق الملاحظة شديد العناية بتقصي الاخبار ورواياتها ، فجاءت رحلته ، المعروفة باسم سفر نامه ، غنية بالصور مليئة بالمعلومات عن البلاد التي زارها . وتلقي رحلته نوراً على الكثير من الشؤون الاجتماعية والاقتصـادية قبيل مجيء الصليبيين .

فوصف ناصري خسرو للحرم الشريف بالقدس من أدق ما وصـل الينا من المعلومات عن هذا المسجد المبارك ، ولعلهُ أول من ضبط أبعاد الاقصى وقياساته . ويلاحظ هذا السائح أبواب المدن واتجاهها وميناء عكاء وصـناعات صور وصيدا ، ويعنى بمصادر المياه في كل بلد ، وتسترعي نظره كثرة الرخام في الرملة، ولعلّ من أدق ملاحظاته ما ذكره من أن قرى القدس تقوم على رؤوس الجبال أو سفوحها . ثم هو لا يغفل عن زهر النرجس الذي يكسو بقعة من الارض الى الغرب من حمـاة أو عن

الوردتين الجميلتين الاتين رآها في جبيل بيد صبي في شهر شباط (فبراير) أو الاشجار التي تكسو الطريق حول كفر سابا في فلسطين . والمدن الداخلية السورية التي نالها حظ الوصف في رحلته هي حلب وحماة وطبريا وبيت القدس . أما باقي ما كتبه عن سوريا فهو عن مدن الساحل . فهو يذكر ان حلب [1] تتمتع بيسار ورخاء إذ تلتقي عندها طرق التجارة الشامية والرومية والعراقية والمصرية ، ويحدثنا عن أبي العلاء عند مروره بالمعرة ، فقد كان لا يزال حيًّا [2] . ويصف طرابلس بقوله [3] « أرباض المدينة تملأها البساتين . . . وقصب السكر ينمو هنا بكثرة . . . ومثله البرتقال والليمون والتمر . . . وقد كانوا أيام وصولنا يستخرجون عصير قصب السكر ... وفنادق المدينة تتألف من أربع طبقات أو خمس وقد تصل الى ست . . . وبيوتها وأسواقها حسنة البناء نظيفة . . . وفي المدينة مكاتب لفرض الضريبة الجمركية على السفن القادمة الى المدينة من بلاد الروم أو الغرب أو غيرها . . وللسلطان — أمير المدينة — سفن تحمل تجارته الى بزنطية وصقلية والغرب . وأهل طرابلس كلهم شيعة » . ولما وصل ناصري خسرو صيدا بهره ثراؤها وزينتها فقال « وأسواق المدينة بهية الزينة حتى ظننت أنها زينت لمناسبة قدوم السلطان أو لأمر آخر سار . فلما استقصيت عرفت ان ذلك أمر عادي» . وقد كانت صور في الوقت الذي زارها فيه ناصري خسرو ، من أكبر مراكز التجارة البحرية . يدلنا على ذلك فنادقها التي كانت ذات خمس طبقات أو ست ، وشوارعها فقد كانت نظيفة تدل على الثروة الهائلة [4] « وصور معروفة بغناها

---

(١) كان حاكمها معز الدولة من بنى مرداس . وقد روى ابن بطلان ان « من عجائب حلب ان في قيسارية البز عشرين دكاناً للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون الف دينار مستمر ذلك منذ عشرين سنة والى الآن » (راجع ياقوت مادة حلب) . وابن بطلان هذا طبيب نصراني بغدادي ، رحل سنة ٤٤٠ هـ—١٠٤٩ م الى حلب وانطاكية واللاذقية والفسطاط وقد اقتبس منه ياقوت كثيراً « راجع I. E. Ibn Butlan »

(٢) وكان في المعرة يوم زرتها رجل اسمه ابو العلاء المعري . ومع انه أعمى فهو سيد مدينته ويملك ثروة طائلة وله عبيد وحشم يقومون بخدمته . حتى كأن اهل المدينة كلهم تبع له . اما هو فقد اختار طريقة الزهاد ، فانه يرتدي صوفة ويلتزم بيته ويكتفي بنصف من من خبز الشعير في اليوم ، ولا يأكل سواه . وبيته مفتوح للناس ووكلاؤه يدبرون امور المدينة ، لكنهم يرجعون اليه للحصول على الرأي الاخير . وليس له مشاغل شخصية . وقد ذاع صيته في الشعر والكتابة حتى ان علماء سوريا والعراق والمغرب متفقون على ان لا مثيل له في هذه الايام . . . ويقيم معه طلاب العلم القادمون من اقطار مختلفة يتلقون عنه الشعر واللغة ، وقلما يكون عددهم دون المئتين (عن ترجمة لسترنج في PPT, IV p. 7)

(٣) PPT, IV, p. 7 (٤) شيفر ص ٤٦ . راجع ايضاً فتزي ص ٢٨—٣٠

وقوتها بين المدن السورية الساحلية وأكثر سكانها شيعة لكن قاضيها سني . . . . »
ويتنقل في مدن الساحل السوري من المدينة الى الاخرى حتى يمر بقيسارية ثم يتجه الى الرملة . وبعد ان يصف هذه المدينة الكبيرة وبيوتها المبنية من الرخام الذي يكثر وجوده فيها ، يذكر طريقة تقطيعه أعمدة أو ألواحاً بمنشار غير مسنن .
وفي القدس يعنى ناصري خسرو بزيارة الاماكن المقدسة كلها ويلاحظ ان شوارع المدينة مبلطة . ويعطينا عدد السكان على انهُ عشرون الفاً. ثم يقول« والارض في نواحي القدس مستغلة استغلالاً طيباً . والزيتون هناك كثير . ويبلغ الدخل السنوي لبعض كبار المثرين هناك نحواً من خمسين الف مَن (يقابل ٤٢٠٠ تنكة) » ويقول ناصري خسرو « ان القار المجموع من مياه البحر الميت يستعمل في طلاء الاجزاء السفلى من الاشجار لحفظها من الديدان . ويستعملها الصيادلة للمحافظة على العقاقير من الحشرات[1] »

ووصف ناصري خسرو لمصر من خير ما وصل الينا[2] . وقد تناول البلاط الفاطمي والعاصمة والادارة الحكومية في زمن المستنصر بالتفصيل . ولم يكن هذا بغريب على الرجل الذي أقام في القاهرة مدة طويلة وعاشر المقدمين من أهلها وحظي بمقابلة الخليفة نفسه . فتراهُ يتحدث عن قاعة المآدب[3] في القصر والاحتفال بولادة ابن للخليفة[4] وعن جبر الخليج[5] ويقسم القاهرة الى حاراتها العشر[6] ويعطينا اسماءها مثل برجوان وزويلة والجديرة . وتعجبهُ فواكه مصر وأثمارها فيذكرها[7] وينبئنا أن البلسم[8] مغربي الأصل جاء به أجداد الخليفة المستنصر لما فتحوا مصر[9] واذ يذكر جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون يروي أن أحفاد هذين الرجلين أرادوا بيع كل من الجامعين في زمن الحاكم بأمر الله فابتاعهما الخليفة نفسه

ولما عاد ناصري خسرو من مصر الى بلاده بطريق الحجاز والحسا ذكر ملاحظات قيمة عن المدن التي مرَّ بها . منها صنع القماش في أسيوط واستخراج الأفيون فيها[10] وأجرة الجمل الذي استأجره منها الى عيذاب كانت ديناراً ونصف الدينار .

---

(١) راجع ايضاً فتلوس ص ١٢—١٣ (٢) راجع المختارات تحت (٣) شيفر — الترجمة الفرنسية — ص ١٥٨ (٤) شيفر ص ١٥٤ (٥) شيفر ص ١٣٦—١٤٢ (٦) شيفر ص ١٤٤ (٧) شيفر ص ١٥٠و١٧٢ (٨) شيفر ص ١٤٥ و ١٤٨ (٩) شيفر ص ١٤٣ ، راجع القسم الثاني الفصل الرابع تحت بخصوص البلسان (١٠) شيفر ص ١٧٣ راجع ياقوت في معجم البلدان « مادة اسيوط »

وقد تعرّف ناصري في اسوان الى رجل اسمهُ الفلجي وتآخيا فلما وصل الى عيذاب أخذ نقوداً بناءً على توصية كان حملهُ اياه صاحبه الاسواني[١] . وانتقل الى جدة فوصفها وذكر ان سكانها لا يتجاوزون الخمسة آلاف من الذكور[٢] كما انه قال عن سكان مكة الاصليين انهم لا يتجاوزون الالفين من الذكور وبها نحو خمسمائة مجاور[٣] واشار الى القحط الذي اصاب الحجاز سنتي ٤٣٩ و ٤٤٠ هـ[٤]

وقد خصّ ناصري خسرو مكة المكرمة ومناسك الحج ومشاعره فيهـا بقسط كبير من جهده ووقته وكتابه[٥] وليس ذلك بغريب

ونالت فلج والحسا والبصرة حظها من عناية ناصري خسرو اذ اجتاز بلاد العرب من الغرب الى الشرق . وكانت البصرة أيام زارها ناصري خسرو خربة والأجزاء المسكونة منها متباعدة ومع ذلك فقد كانت فيها تجارة رائجة وكان من عادة أهلها انه اذا هبطها التاجر أودع امواله عند صرّاف وأخذ بها رقاعاً فاذا اشترى شيئاً دفع الرقاع الى البائع وهذا يستبدلها بالنقد من عند الصرّاف

ورغب ناصري خسرو واخوه في دخول الحمام ، لكن ثيابهما الوضيعة حملت المشرف على الحمام على اقصائهما

ومما يدل على دقة ناصري خسرو ذكره المد والجزر في الخليج الفارسي وعلاقة ذلك بالفيضان في شط العرب . ومن البصرة عاد الى مرو[٦]

***

وابن جبير جاء المشرق من الاندلس . ولد في بلنسية سنة ٥٤٠ هـ[٧] —١١٤٥م . سمع من ابيه وأخذ القراءات عن ابن ابي العيش وعنى بالادب فبلغ فيه الغاية وتقدم في صناعة القريض والكتابة وخلف شعراً كثيراً[٨] وله نثر جميل في الحكم[٩] واكبر آثاره رحلته المعروفة[١٠] باسم تذكرة بالاخبار عن اتفاق الاسفار

---

(١) شيفر ص ١٨٠ (٢) شيفر ص ١٨١ (٣) شيفر ص ١٨٨ (٤) شيفر ص ١٦٦—١٦٧
(٥) شيفر ص ١٨٢ وما بعدها
(٦) كان ناصري خسرو شاعراً مجيداً وديوانه يعتبر من عيون الادب الفلسفي الذي انتجته فارس . راجع Browne Literary History of Persia و Ency. Is. art. Nasiri
(٧) في ١٠ ربيع الاول « نفح الطيب ١ : ٥٠٧ » وقيل سنة ٥٣٩ وقيل في شاطبة في هذا التاريخ « الاحاطة ٢ : ١٧٤ » . (٨) النفح ١ : ٥٠٨ وما بعدها (٩) الاحاطة ٢ : ١٧٣
(١٠) روى صاحب الاحاطة ان ابا الحسن الشادي كان ينكر انها من تصانيفه ويقول انه هو قيد معاني ما تضمنته فتولى ترتيبها بعض الآخذين عنه

كتب ابن جبير عن السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة فاستدعاه لان يكتب عنه كتاباً وهو على شرابه فمدّ يده اليه بكأس فأظهر الانقباض لانه لم يشرب قط، فأقسم السيد ليشربنّ منها سبعاً ففعل مرغماً فملئت له الكأس دنانير سبع مرات لحمل المال الى منزله وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير [1] . ولما أظهر ذلك للسيد أسعفهُ في قصده

خرج من غرناطة يوم الخميس ٨ شوال سنة ٥٧٨ هـ[2] ــ ١١٨٣ م ووصل الاسكندرية بعد ثلاثين يوماً قضاها على ظهر البحر بين سبتة وبينهـا . وكان سفره البحري في مركب للجنويين [3] وقد كان الطريق الطبيعي لابن جبير الى الحجاز هو السفر من الاسكندرية الى أحد موانىء سوريا ليرافق الحاج الشامي . لكن بسبب وجود الصليبيين في سوريا اضطرّ رحالتنا الى السير بالطريق المصري . فاتخذ سبيله الى القاهرة ثم مرّ بقوص وعيذاب وجده في طريقه الى مكة والمدينة . واجتاز بعد ذلك الطريق النجدي الى الكوفة وزار بغداد والموصل وعاد بطريق سوريا فمرّ بحلب وحماة وحمص ودمشق[4] وعكاء ومن هذه الاخيرة أقلع في مركب افرنجي الى صقلية ومرّ بصور . وعاد الى غرناطة فوصلها في الثامن من المحرم سنة ٥٨١ هـ — ١١٨٥ م

ولم يكن ابن جبير وحيداً في رحلته هذه . فقد رافقه جده لامه القاضي ابن عطية [5] وابو جعفر الطيب

ورحل بعد ذلك مرتين الى المشرق ، وحج في كل منهما . ذلك انهُ لما شاع الخبر المبهج بفتح بيت المقدس على يد صلاح الدين قوى عزم ابن جبير على رحلته الثانية . فخرج من غرناطة في ٩ ربيع الاول سنة ٥٨٥ هـ — ١١٨٩ م وعاد اليها في ١٣ شعبان سنة ٥٨٧ هـ — ١١٩١ م وقضى أكثر من ربع قرن في غرناطة ومالقة وسبته وفاس منقطعاً الى أسماع الحديث والتصوف وتروية ما عنده . وكان فضله وورعه في هذه المدة يحقق أعماله الصالحة [6]

وتوفيت زوجه عاتكة أم المجد وكان كلفه بها جمّـا فعظم وجده عليهـا وخرج من سبتة[7] فوصل مكة وجاور بهـا طويلاً ثم زار بيت المقدس ثم تحوّل الى مصر

---

(١) النفح ١ : ٥٠٩ (٢) ٣ شباط « فبراير » الرحلة ص ٣٤ وبدأ بتقييد اخباره في ٣٠ شوال (٣) الرحلة ص ٣٥ (٤) جاء من حمص الى دمشق بطريق النبك فلم يمر ببعلبك (٥) النفح ١ : ٥٠٨ (٦) الاحاطة ٢ : ١٦٩ (٧) لعله نفي من سبتة — راجع Ency. of Islam

والاسكندرية فأقام يحدّث ويؤخذ عنهُ حتى وفاته سنة ٦١٤ هـ—١٢١٧ م

وتذكرة ابن جبير هي أخبار رحلته الاولى وقد دوّنها صاحبها على شبه مذكرات يومية يستعمل فيها دائماً التاريخين القمري (مع السنة الهجرية) والشمسي (دون ذكر السنة) . وقد عني كاتبها بالرسوم الدينية والنواحي الاجتماعيـة عناية فائقة . فمشاعر الحج كلها مدونة وصعوبات السفر ومواكب الأمراء وتجارة مكة كلها موصوفة وصفاً بارعاً دقيقاً . ورحلته فيهـا كثير من الصور التي توضح العلاقات بين أهل البـلاد والصليبيين في سوريا . ويشير غير مرة الى الحيـاة الاقتصادية من حيث المزروعات والسلع المتبادلة . وابن جبير شديد العناية بالبحث عن المدارس والمارستانات وليس هذا بغريب على رجل عالم فقيه . وهو في كل هذا دقيق الملاحظة سهل العبارة واضح الأسلوب . وقد أثر ابن جبير في كثير من الـكتّـاب الذين جاءوا بعده ، فنقلوا اجزاء كبيرة من رحلته . وليس أدل على ذلك من أن ابن بطوطة نفسه نقل وصف كل من حلب ودمشق وبغداد[1] . على انه من المؤسف اننا لا نجد في رحلته شيئاً يدلنا على عدد السكان في أي من البلدان التي زارها

وابن جبير سني ، ويبدو هذا واضحاً فيه عندما يتحدث عن منازل الشيعة في شمال سوريا [2]

وقد تناول ابن جبير في الجزء الاخير من رحلته صقلية بوصف رائع وروى أخبارها بشكل يجعل هذا القسم مصدراً رئيسيًّـا من مصادر تاريخ صقلية في زمن وليم الثاني وخاصة فيما يتعلق بعلاقة السكان المسلمين في الجزيرة بحكامها الاوروبيين

***

والهروي كان من معاصري ابن جبير . أصـل أسرته من هراة ، لكنهُ ولد في الموصل وطاف في سوريا والعراق واليمن والحجـاز ومصر وبلاد الروم وجزر البحر المتوسط حتى صقلية ، وتنقل في مزاراتها ومساجدها وخالط أهلها ، وكانت له نزعة صوفية [3] وفيه فضيلة وله معرفة بعلم السيما [4] دخل القسطنطينية في زمن عمانوئيل كومنينوس سنة ١١٤٣—١١٨٠ م وهبط الاسكندرية سنة ٥٧٠هـ-١١٧٤ م وسمع فيها لابن الرحال المحدّث[5] وحمله القائد ابو القاسم بن حمود رسائل الى صلاح الدين

(١) رحلة ابن بطوطة ص ٣٩و٥٠ و١٣٩ (٢) الرحلة ص ٢٤٦ وما بعدها
(٣) AOL i, 587 (٤) ابن خلكان ١ : ٣٤٧ (٥) المخطوطة ص ٦٧

يطلب فيها تجهيز حملة ضد صقلية[1] كان في القافلة التي نهبها ريكاردوس في جنوب فلسطين سنة ٥٨٨ هـ—١١٩٢ م على ماء الخويلفة في مقاطعة الداروم[2] ففقد فيها كتبه وطلب ريكاردوس الهروي ليقابله فلم يمكن ذلك[3]. ولما جاء رسول ابن النافذ وزير الخليفة العباسي الناصر لدين الله[4] الى صلاح الدين ليوثق العلاقات بين السلطان والبلاط العباسي[5] ، ومرّ بدمشق كان الهروي فيها ، وكان اجتماعه به سبباً في تأليف « الاشارات الى معرفة الزيارات »

وقضى الهروي أيامه الاخيرة في حلب في ظل الملك الظاهر بن صلاح الدين الذي قرّبهُ لمعرفته بالسيما ، فشملهُ برعايته وبنى له مدرسة بظاهر حلب . وقد دفن في قبة بناحية من هذه المدرسة ، على ما رآه ابن خلكان[6] وكانت المدرسة لا تزال قائمة في عهده . والكتاب الذي بين أيدينا هو الاشارات وقد قدم المؤلف نفسه وكتابه لقرائه بقوله :

«أما بعد فانه سألني بعض الاخوان الصالحين والخلان الناصحين أن أذكر له ما زرته من الزيارات وما شاهدته من العجائب والابنية والعمارات وما رأيته من الاصنام والآثار والطلسمات في الربع المسكون والقطر المعمور فوقع الامتناع الى أن حصل الاجتماع برسول وفد من الديوان العزيزي شرّفهُ الله وعظمه وتبركنا بزيارته واستعبدنا برؤيته ، إذ كان قدومه من دار السلام وقبة الاسلام وذكر الفقير للرسول زيارات الانبياء عليهم الصلاة والسلام فوقع الابتداء بذكر الزيارات من مدينة حلب . . . . »

« وقد اختصرت ما حضرني على سبيل الايجاز وانا استعيذ بالله من شرّ حاسد ونكد معاند يقف على ما ذكرناه في بعض الصحابة والتابعين وآل الرسول صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وعلى ذكر بعض الآثار فيقول قرأنا في التاريخ الفلاني ضد ذلك وقد ذكر فلان غير هذا وأنا مما لا أشك في قولة ولا أطعن في حديث الاّ انني ذكرت ما شاع خبره وذاع ذكره بطريق الاستفاضة والله أعلم بصحته . وقد ذكر اصحاب التاريخ جماعة من آل الرسول عليهم الصلاة والسلام ومن الصحابة والتابعين رضي الله

---

(١) AOL i, 587 f (٢) راجع ابو شامه ٢ : ١٩٧ والسلوك الجزء الاول القسم الاول ص ١٠٩ والنوادر ٢٠٨ — ٢١٠ (٣) المخطوطة ص ٤ (٤) ٥٧٥—٦٢٢ هـ
(٥) النوادر ص ١٠١ (٦) ابن خلكان ١ : ٣٤٧

عنهم قتلوا وماتوا ببلاد الشام والعراق وخراسان والمغرب واليمن وجزاير البحر ولم أرَ أكثر هذه الاماكن كما ذكروه . ولا شك انقبورهم اندرست وآثارهم طمست . ذهبت آثارهم وبقيت اخبارهم والزاير له صدق نيته وصحة عقيدته وقد ذكروا ايضاً بلاداً واماكن وطرقات لا تعرف الآن لتقادم العهد وتغير الزمان. وان جرى السهو فيما اذكره بطريق الغلط لا بطريق القصد . فاسأل الناظر فيهِ والواقف عليهِ الصفح في ذلك واصلاح الخطأ وايضاح الحق فان كتبي اخذها الانكتار ملك الفرنج ورغب في وصولي اليهِ فلم يمكن ذلك ومنها ما غرق في البحر. وقد زرت اماكن ودخلت بلاداً من سنين كثيرة وقد نسيت اكثر ما رأيتهُ وشذ عني أكثر ما عاينته وهذا مقام لا يدركهُ أحد من السائحين والزهاد ولا يصل اليهِ اكثر المسافرين والعباد الاّ رجل جال الأرض بقدمه وأثبت ما قلته بقلبه وقلمه.....»

على ان للهروي كتباً أخرى غير هذا . فقد قال هو ان ما ذكره من الابنية والآثار والعجايب والاصنام له كتاب مفرد [١] وأشار في موضع آخر الى كتاب « منازل الأرض ذات الطول والعرض » [٢] . وروى ابن خلكان أن له كتاباً اسمه الخطب الهروية [٣]

وقد جاء في الاشارات ذكر لمئات من الاماكن الدينية وهي المقصودة بالذات من التأليف لكن الهروي يضيف بين آن وآخر فوائد تاريخية وملاحظات عامة . كوصفهِ لدمشق [٤] واشارته لرأس الحسين ونقله من عسقلان [٥] وتحدثه عن مقياس النيل في جزيرة الروضة [٦] وكالذي رواه من ان الصليبيين حاولوا أن يبنوا كنيسة على عين البقر بظاهر عكاء لكن ذلك لم يتم لهم [٧] ومما رواه أن الافرنج لم تغير « ما على أبواب المسجد الأقصى من آيات القرآن العزيز وأسامي الخلفاء رضي الله عنهم » [٨] ولعلّ من ألطف ما جاء من ملاحظاته العامة وصفه لزهور مصر ونباتها قال [٩] « فان في ديار مصر ونيلها من عجائب الدنيا كثيراً . ورأيت بها في آن واحد مجتمعاً ورداً ثلاثة ألوان ورأيت ياسمين لونين ولينوفرا لونين وآساً ونسريناً .وريحاناً وخبزياً

---

(١) المخطوطة ص ٤ (٢) المخطوطة ص ١٢٤ (٣) ابن خلكان ١ : ٣٤٧ (٤) المخطوطة ص١٥ (٥) المخطوطة ص ٤٥ (٦) المخطوطة ٥٢—٥٣ (٧) المخطوطة ٣٠—٣١ (٨) المخطوطة ص ٣٧ (٩) المخطوطة ص ٦٧ وقد ذكر هذا الامر ناصري خسرو قبله (ص ١٢٥ من الترجمة الافرنسية لشيفر) وعبد اللطيف البغدادي — الافادة والاعتبار ص ١٧ وما بعدها

وبنفسجاً ومنثوراً ونبقاً واترنجاً وليموناً مركباً وطلعاً ورطباً وموزاً وجميزاً وحصرماً وعنباً وتيناً أخضر ولوزاً وقثى وفقوس وبطيخاً وباذنجـاناً وباقلاً أخضر ويقطيناً وحمصاً أخضر وخسًّا والبقول والرمان وهليوناً وقصب السكر » وذكر الاسكندرية فقال عنها انها ثلاث طبقات وعمارتها على هيئة رقعة الشطرنج [١] وأشار الى السمك الرعاد فيها [٢] ونقل عن ابن منقذ ان بالاسكندرية ١٢٠٠٠ مسجد أو ٢٠٠٠٠ مسجد أو معبد [٣]

وكان السائح الهروي مغرماً بكتابة اسمـه في الأماكن التي يزورها ، مثل صنم الاشمونين[٤] والى ذلك أشار جعفر بن شمس الخلافة في بيتين قالهما في شخص يستجدي من الناس بأوراقه

أوراق كديته في بيت كل فتى   على اتفاق معان واختلاف روي
قد طبق الارض من سهلٍ ومن جبلٍ   كأنهُ خط ذاك السائح الهروي

***

كان أسامة بن منقذ اميراً فارساً من اهل الشرق العربي وقد تنقل في مصر وسوريا وبغداد . وانما أدخلناه في عداد الرحالين لان كتاب الاعتبار نسيج وحده في الأدب العربي ومذكرات صاحبه تشمل صفحات مجيدة في تاريخ الفروسية والقومية العربية . تجعلها في مقدمة ما يجب أن نعني بدرسهِ من كتب السلف الصالح[٥]

ولد اسامة بقلعة شيزر في ٢٧ جمادى الاولى ٤٨٨ هـ ٤ تموز (يوليو) ١٠٩٥ م . وكانت شيزر . الواقعة على بعد اربعة وعشرين كيلومتراً الى الشمال من حماة ، حصن بني منقذ منذ ان انتزعوها من الصليبيين سنة ٤٧٤ هـ — ١٠٨١م . مع انهم كانوا يملكون اقطاعاً في ارضها قبل ذلك بمدة طويلة . وكان من حق مرشد ، والد اسامة ، ان يتولى الامارة . لكنهُ شغف بنسخ القرآن والصيد فتنازل عنها لاخيهِ . واتجهت همة الامير سلطان الى اسامة يهيئه ليخلفهُ . لكن لما رزق ولداً ذكراً فترت همته نحو اسامة فرأى هذا ان يغادر شيزر . فتغيب بادىء ذي بدء عنها موقتاً . لكنهُ لم يلبث ان غادرهـا نهائيًّـا . وبعد عشرين سنة أصاب القلعة زلزال سنة ٥٥٢ هـ — ١١٥٧م قضى على آل منقذ بأسرهم اذ كانوا مجتمعين في حفل عائلي ، عدا أسامة الذي كان غائباً

---

(١) المخطوطة ص ٦٣ (٢) المخطوطة ص ٦٦ (٣) المخطوطة ص ٦٣ (٤) المخطوطة ص ٥٩
(٥) اعتمدنا في هذه الخلاصة على مقدمة الدكتور ف . حتي لطبعته لكتاب الاعتبار (برنستون — الولايات المتحدة — ١٩٣٠)

عاش اسامة فارساً شهماً وجاب انحاء الشرق العربي. صرف معظم شبابه في البلاط النوري بدمشق وفي قصر الخليفة الفاطمي بالقاهرة (١١٤٤—١١٥٤م). واما كهولته فصرفها عند أتابكة الموصل وفي حصن كيفا

زار بيت المقدس وحجَّ وتنقل بين معظم العواصم الاسلامية وتعرَّف الى كبار الافرنج [١] فضلاً عن صداقته للخلفاء والملوك. وقبيل وفاته دعاه صلاح الدين الى دمشق وأجرى عليه رزقاً وأعاد اليه اقطاعه. وأخذ الشيخ يلقي محاضرات في البديع ويدرس في المدرسة الحنفية بدمشق. وقد أملى مذكراته في هذه الفترة. وتوفي أسامة سنة ٥٨٤ هـ — ١١٨٨ م

وكتاب الاعتبار، بالاضافة الى ما فيه من عبر رمى اليها الكاتب، يحوي اشارات كثيرة الى أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية. فالقطن كان يزرع في كفر طاب [٢] وغابات البلاد الكثيفة في الشمال كانت موطن الاسود والنمور وحمر الوحش [٣] وجلاء العروس والمآتم واضحة الصور في الكتاب والفصل الذي عرض فيه اسامة للافرنج ممتع حقاً. فقد تناول فيه شجاعتهم وطبهم ومحاكماتهم

***

وعبد اللطيف البغدادي رحالة عالم، شملت معرفته الطب بالاضافة الى النحو واللغة وعلم الكلام. واشتهر بصناعة الطب في كل مكان أقام فيه وخاصة في دمشق. وقد اخترناه لسببين: الاول هو الاتجاه العلمي الذي كان يغلب على تقييده مشاهداته فتراه يشير الى انهُ رأى وفحص ونقب. فضلاً عما يسمع. واذا روي له أمر وشكّ فيه أظهر ذلك في كتابته. والثاني لانهُ خلف لنا وصفاً لمصر في سنوات الضيق والقحط والوباء (٥٩٥—٥٩٨ هـ). هذا بالاضافة الى انهُ تناول اموراً في حياة مصر الاجتماعية والعمرانية بتفصيل العالم ودقته

ولد عبد اللطيف في بغداد سنة ٥٥٧ هـ. وانصرف شأن طلاب العلم في العالم الاسلامي في عصره، الى سماع الحديث وحفظ القرآن واجادة الخط وحفظ الشعر والمقامات وأخذ لنفسه اجازات من شيوخ بغداد ثم من شيوخ خراسان [٤] فلما اطمأنّ الى انه اخذ عن شيوخه كل ما عندهم تحوّل الى الموصل [٥] وحدث في مدرسة ابن مهاجر

---

(١) مثل بوهمند وتنكرد وفلك (٢) الاعتبار ص ١٥١ (٣) الاعتبار ص ١٠٥ و١١٢ و١٩٢ — ١٩٣ (٤) وصف عبد اللطيف عناية شيخه به في بغداد على ما نقله ابن ابي اصيبعة، راجع الافادة ص ٥ (٥) سنة ٥٨٥ هـ

ودار الحديث . ولم يلق بالموصل سوى الكمال بن يونس وكان جيداً في الرياضيات

وكان صلاح الدين سيد سوريا ومصر آنئذٍ ، قد أحسن الى عدد كبير من العلماء فأووا الى دمشق وجاءها عبد اللطيف يطلب علمهم فوقعت بينهُ وبينهم مناظرات انتصر فيها عليهم، فتوجه الى القدس وجاء معسكر صلاح الدين بظاهر عكاء حيث لقي بهاء الدين شداد قاضي العسكر وعماد الدين الكاتب والقاضي الفاضل . والراجح ان الاخير أعجب بعبد اللطيف لانه زوّده برسالة توصية الى وكيله في مصر ابن سناء الملك الذي احتفل به . وهناك تيسر له الاتصال بياسين السيميائي وموسى بن ميمون وأبي القاسم الشارعي[1]. وقد أعجبهُ الاخير من هؤلاء الثلاثة فكانا يتفاوضان الحديث فتكون الغلبة لعبد اللطيف « بقوة الجدل وفضل اللسن » ، ويتغلب الشارعي « بقوة الحجة وظهور المحجة » .

على ان اقامة عبد اللطيف بمصر هذه المرة لم تطل ، اذ رحل الى القدس للقاء صلاح الدين بعد الهدنة . وتمّ له ذلك . وقد وصف مجلس السلطان بقوله « ... واول ليل حضرته وجدت مجلساً حافلاً بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم وهو يحسن الاستماع والمشاركة ويأخذ في كيفية بناء الاسوار وحفر الخنادق ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع »[2] . ورتب صلاح الدين وأولاده لعبد اللطيف مائة دينار في الشهر ، فدخل دمشق وأكبّ على الاشتغال بالعلم واقراء الناس بالجامع

لكن عبد اللطيف كان يمل الاستقرار في مكان واحد مدة طويلة فرحل الى مصر في ركاب العزيز سلطانها لما جاء لحصار الافضل أخيه في دمشق في حملة فاشلة . وعاد في مصر الى مصاحبة الشارعي حتى توفي . وكان يقرىء الناس بالأزهر صباحاً ومساء ويقرىء الطب للكثيرين في وسط النهار[3] . وفي هذه المدة وقع بمصر الغلاء العظيم والموت ، وكتب عبد اللطيف كتاب « الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » ، في وصف أحوال مصر في وقته

ثم دعاه حب السفر ثانيةً فانتقل الى القدس ودرس في الجامع الاقصى ونزل دمشق حيث اشتهر بصناعة الطب ودرس في المدرسة العزيزية[4] وتنقل بعد ذلك

---

(١) روى عبد اللطيف اخبار اتصاله بهم وحكمه عليهم . راجع الافادة ص ٩

(٢) لم يكن عبد اللطيف المفكر الوحيد الذي اثرت فيه شخصية صلاح الدين . راجع اخبار الاهتمام ببناء سور القدس في الافادة ص ١٠ (٣) قد تكون قراءة الطب هذه في الازهر نفسه لكن العبارة غامضة . راجع الافادة ص ١١ (٤) سنة ٦٠٤ هـ .

بين حلب وارزنجان في بلاد الروم وارزن الروم وبغداد وتوفي بها

هذا هو عبد اللطيف الذي درس علوم عصره العقلية والنقلية وحدّث وعلّم الطب وألف كتباً كثيرة فيه [١] ، وانتفع الناس بعلمه في دمشق والقاهرة والقـدس وحلب وبغداد

***

وابن سعيد رحالة أندلسي ولد بغرناطة ليلة الفطر سنة ٦١٠ [٢] للهجرة في أسرة عريقة في الحسب والنسب [٣] كان لأفرادها صـلة بالملوك [٤] وكان أبوه من أهل الأدب والتأليف [٥] . والمترجم به متمم كتاب « المغرب في أخبار المغرب » . فقـد بدأه جده وعمل فيهِ أبوه وأتمهُ هو [٦]

عمل ابن سعيد لوزير الموحدين بافريقيـة ابن جامع ، وكان للمترجم بهِ ابن عم يعمل في خدمة الموحدين أيضاً . فوقعت بين القريبين فرقة خشي ابن سعيد عاقبتها فاستأذن في الرحيل الى المشرق برسم الحج . وصل الاسكندرية سنة ٦٣٩ هـ—١٢٤١ م وكان والده قد رحل اليها وأقام فيها [٧] ، وكان متأخراً عن موعد الحج ، فذهب الى القاهرة ولقي بها ايدمر التركي والبهاء زهير وابن يغمور وهو يومئذٍ رئيس الأمور بالديار المصرية . وقد استدعى سيف الدين بن سابق بن سعيد الى مجلس بضفة النيل مبسوط بالورد وقد قامت حوله شمامات نرجس فقال ابن سعيد : —

من فضل النرجس فهو الذي يرضى بحكم الورد إذ يرأس
أما ترى الورد غدا قاعداً وقام في خدمته النرجس

ووافق ذلك وقوف المماليك الترك في الخدمة فطرب الحاضرون

وقد ترك لنا ابن سعيد وصفاً نفيساً لمصر والفسطاط ، أعطانا فيه صورة حية لما كانت عليـهِ الحالة يومئذ . فتناول شوارع المدينة وأبنيتها وأزقتها بالوصف ، ثم تحدَّث عن نواحٍ من الحيـاة في الاحياء المخصصة للهو والطرب إذ قال عنها انهُ قد يرقص الواحد في وسط السوق وقد يسكر الناس من الحشيش . لكن المقريزي علق على ذلك بقوله « وفيه تحامل كثير » وقد دافع المقري عن ابن سعيد بقوله « ومن

(١) الافادة ص ١٢ (٢) ١٢١٣ م . وقيل ٢٢ رمضان . راجع النفح ١ : ٤٥٠ و٤٨٣
(٣) الاحاطة ١ : ٩٤ (٤) راجع النفح ١ : ٤٨٢ الخ . والاحاطة ١ : ٩٤ وما بعدها و ٣١٠ الخ
(٥) النفح ١ : ٤٨٤ (٦) راجع تفصيل هذا في النفح ١ : ٤٨٤ — ٤٨٥ (٧) توفي والده فيها سنة ٦٤٠ هـ

نظر بعين الانصاف علم ان التحامل في نسبة التحامل اليهِ

ورحل من مصر صحبة جمال الدين بن القيم الى حلب فدخل على الناصر [١] صاحب حلب فأنشده قصيدة أعجبت السلطان فاستجلبهُ وتلطف بهِ وسأله عن قصده من رحلته ، ولما عرفهُ وعده بالمساعدة قائلاً « نعينك بما عندنا من الخزائن ونوصلك الى ما ليس عندنا كخزائن الموصل وبغداد وتصنف لنا »[٢]. ووهبه الناصر من الخلع والدنانير والتواقيع بالأرزاق ما لا يوصف وتعرَّف ابن سعيد الى عدد كبير من رجال السيف والقلم كانوا يعملون في حاشية الناصر. ثم تحوَّل الى دمشق ودخل مجلس السلطان المعظم ٦٣٧—٦٤٧ ﻫ وحضر مجلس خلوته. ودخل الموصل وارتحل الى بغداد في عقب سنة ٦٤٨ ﻫ ثم رحل الى البصرة وحجَّ وعاد الى المغرب فنزل في أقليبية بافريقية سنة ٦٥٢ ﻫ . واتصل بخدمة الامير أبي عبد الله المستنصر[٣]

على ان ابن سعيد ارتحل من تونس الى المشرق ثانية في سنة ٦٦٦ ﻫ وذكر انهُ لما دخل الاسكندرية سأل عن الملك الناصر فأخبر بحاله وما جرى له من قتل التتار له . ويروي ابن سعيد ما وصل اليه علمه من أخبار هجوم هولاكو على حلب وما تركته حملته من آثار التخريب والتدمير[٤]

وتواليف ابن سعيد كثيرة منها المرقصات، والمطربات، والمقتطف من أزاهر الطرف، والطالع السعيد في تاريخ بني سعيد (اي تاريخ بيته وبلده) ، والموضوعان الغريبان المتعددا الاسفار، وهما « المُغرب في حلى المَغرب » و « المُشرق في حلى المَشرق » وعدة المستنجز وعقلة المستوفز

***

وابن بطوطة هو الرحالة العربي الذي طبع الرحلة في القرن الرابع عشر بطابعه كما ترك مواطنه ابن خلدون في تاريخ القرن نفسه أثراً عميقاً . ولم يكتب ابن بطوطة رحلته بنفسه . وانما رواها ورتبها احد كتاب سلطان فاس الذي عمل ابن بطوطة نفسه في خدمته . وهذا هو سبب الاضطراب الظاهر في اخباره والاخطاء الموجودة فيما ذكره عن الصين . حتى ان بعض نقاده شكوا في أمر وصوله الى تلك البلاد، ولكن

---

(١) ٦٣٤ — ٦٥٨ ﻫ ، وقد حكم دمشق ايضاً منذ سنة ٦٤٨ ﻫ (٢) النفح ١ : ٤٥١

(٣) النفح ١ : ٤٥٢ (٤) نقل صاحب النفح جملة من اشعار الناصر في رثائه لملكه ، فليرجع اليها في ١ : ٥٠٢

ليس بين مؤرخيه اجماع على هذه المسئلة[١] واخبار رحالتنا ممتعة وتتجلى فيها مقدرته ونشاطه وحبه للتقصي . وكان الرجل يستمتع بالحياة ويحافظ على ناحيتها الروحية . ويقوم بالفروض الدينية . وقد امتدت أسفاره ثمانية وعشرين عاماً بدأها من طنجة وسار الى مصر بطريق شمال افريقيا . ثم زار سوريا وحج وتنقل في فارس وبلاد العرب ووصل الى شرقي افريقيا ثم زار القرم والفولغا الادنى ودخل القسطنطينية فاحتفى به ملكها ، قسطنطين الرابع(١٣٤٤ — ١٣٦٣ م) . واتجه بعدها شرقاً الى خوارزم وبخارى وتركستان وافغانستان والهند .وخدم ملك دلهي ثماني سنوات . وتعرّف الى جزر الهند الشرقية والصين وعاد الى طنجة .لكنهُ قام بعد ذلك برحلتين الواحدة الى اسبانيا والثانية الى اواسط افريقيا وصل فيها الى تمبكتو وأبحر في نهر النيجر وعاد الى فاس بطريق الصحراء الكبرى.وقد قدرت المسافة التي اجتازها بنحو ١٢٠ ٠٠٠ من الكيلومترات

وابن بطوطة مولود في طنجة ١٤ رجب سنة ٧٠٣ هـ — ٢٤ شباط (فبراير) ١٣٠٤م وبها توفي سنة ٧٧٠ هـ —١٣٦٨-١٣٦٩م) .وأسرته معروفة باشتغالها بالعلوم الشرعية. وقد كان هو نفسه عالماً . وقد عرف الحاج له فضله فقدموه قاضياً عليهم وهم بعد في تونس [٢]. وعمل ابن بطوطة قاضياً في جزائر ملديف ايضاً

يعنى الكاتب بذكر اخبار البلدان التي يمر بها باختصار وقد ينقل الوصف عمن سبقه[٣]وهو كثير الاهتمام بالاشخاص الذين يلقاهم فيذكر اجازتهم له وتحديثه اياهم . ويروي في تضاعيف رحلته قصصاً وكرامات كثيرة تشوّق القارىء وتطلعه على نواحي المجتمع في زمنه . ونحصل منها بين آن وآخر على معلومات تجارية ذات قيمة خاصة . كالذي رواه من ان حاكم قسطنطينة أهداه احراماً بعلبكيّاً[٤]مما يدل على اتساع تجارة المنسوجات السورية آنئذٍ . ومثله ذكره مجبى بلد بين الاسكندرية ومصر بانه ٧٢٠٠٠ دينار [٥]

من السهل ان يتابع القارىء تنقل ابن بطوطة في مصر وقد جاء الاسكندرية

---

(١) Travels & Travellers p. 100 (٢) بدأ رحلته سنة ٧٢٥ هـ — ١٣٢٥م

(٣) نقل خبر الاسكندرية عن المسالك (الرحلة ص ٩) ووصف حلب ودمشق وبغداد عن ابن جبير ، وهو امر يؤسف له . فقد كان بين الرجلين قرن ونصف القرن ، وكنا نود لو ان ابن بطوطة نقل الينا تأثراته الشخصية (٤) الرحلة ص ٦ (٥) هي تروجه ، الرحلة ص ١٤

ورحل منها الى مصر. ومرّ في طريقه بشيخ فوه الذي تنبأ له برحلة طويلة عريضة. فأثار همته. واتجه من القاهرة الى عيذاب ميناء الحاج الافريقي. لكن السفر الى الحجاز لم يتيسر له لان الحدربي سلطان البجاة كان في حرب مع الاتراك وقد خرق المراكب وهرب الترك امامه. فعاد ابن بطوطة الى مصر واجتاز الى الشام بطريق سيناء فوصل القدس. اما تنقل ابن بطوطة في سوريا فمن الصعب متابعته فيه. ولعله اذ أملى رحلته أو قصّ اخباره على راويته لم يعن بالترتيب الذي سار عليه وانما روى ما تذكر ولكن شيئاً من التنظيم يعود الى روايته في طريق الحاج الشامي وفي انتقاله من الحجاز الى العراق. وليس هذا الأمر غريباً في هذين الطريقين

وكتاب ابن بطوطة هو عبارة عن نسخة من الصور التي ارتسمت في ذهن الرحالة عن الاشخاص وعن الناس الذين ألقت بهم الصدف في طريقه. فهو صفحة من التاريخ الاجتماعي الاسلامي اكثر منه كتاباً في تقويم البلدان والجغرافيا [١]

***

وبين الرحلات التي وصلت الينا من ايام المماليك رحلة رسمية قام بها الملك الاشرف قايتباي [٢] ٨٧٢—٩٠١ هـ — ١٤٦٨—١٤٩٦ م في سورية سنة ٨٨٢ هـ — ١٤٧٨م

كانت شمال سوريا معرضة آنئذٍ للخطر العثماني، بعد ان استقرّ العثمانيون في شبه جزيرة آسيا الصغرى كلها، فأراد السلطان ان يشرف بنفسه على حصون البلاد [٣] وقلاعها وطرقها وجسورها، فقام بهذه الرحلة التي امتدت من آخر جمادى الاولى الى أواخر رمضان من تلك السنة زار الملك خلالها تلك الاجزاء كلها، وأمر باصلاح ما كان قد تهدّم من مراكز الدفاع والثغور

خرج السلطان من القاهرة المحروسة في آخر جمادى الاولى دون ضجة اوحفلات [٤] ولم يكن رفقاؤه في الرحلة يتجاوزون الاربعين نفراً، بينهم الامير تاني قره بك وجاني بك ويشبك الجمالي وشاهين الجمالي وقاضي القضاة قطب الدين الخداري، قاضي الشافعية بدمشق

---

(١) الدكتور محمد مصطفى زيادة في دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية، مادة ابن بطوطة مجلد ١ ص ١٠٠)

(٢) كان قايتباي محباً للاسفار — راجع المماليك — ميور — ص ١٥٧—١٦٢ «الترجمة العربية». (٣) الرحلة — ص ١٣ (٤) ابن اياس — كتاب تاريخ مصر — «بولاق ١٨١١» المجلد الثاني ص ١٧٥ «نقلته السيدة ديفونشير في ملحق لترجمتها الفرنسية لرحلة قايتباي»

مرّ بطريقه بالصالحية والعريش وغزة وقاقون والناصرة وصفد وبعلبك وطرابلس واللاذقية وانطاكية وبغراس (بغرص) وعينتاب وديار بكر ووصل قلعة المسلمين ثم عاد من ديار بكر بطريق حلب وسرمين وحماه وحمص والنبك ودمشق وسعسع وجسر بنات يعقوب وخان منية وقاقون . ومن هنا اتبع نفس الطريق التي جاءها الى القاهرة

وأصاب السلطان مرض شديد ايام اقامته بدمشق وقد اهتمّ فضلاً عن التفتيش على القلاع والجسور واصلاح ماتهدّم منها ، بمقابلة الحكام والامراء المحليين. فقد كان يدعوهم اليهِ ويبحث معهم شؤون المناطق التي يحكمونها. وقد عقد مثل هذه المؤتمرات في بغراس وعزاز وحمص ودمشق [1] وكم كنا نود لو ان مؤلف الرحلة التي بين أيدينا أعطانا اخباراً مفصلة عن الامور التي تحدّث فيها السلطان الى نوابه . ولكن كل ما نقلهُ الينا هو اسماء الامراء الذين دعاهم لمقابلته . على اننا متى تذكرنا ان الرحلة كانت عسكرية قبل كل شيء سهل علينا ان نعرف المواضيع التي طرقها المجتمعون . ولعلنا نستطيع أن نضيف ان الموارد المالية للدولة كانت ضمن ما تحدثوا به، لان هذه كانت مشكلة رئيسية في عهد قايتباي ، كما كانت في عهد اكثر المماليك. ولم يكن مجرد مصادفة ان يعنى قايتباي بالغاء الاحتكار والضريبة اللازمة له في كل من طرابلس ودمشق [2] وكان الامراء في الطريق يقدمون هدايا ثمينة للسلطان ورجال حاشيته. وكان السلطان نفسه يخلع في مناسبات كثيرة على الأمراء والنواب . فنحن نجد انه أهدى إلى نائب حلب الامير قانصوه اليحيوي سلارية بيضاء عليها فرو . وأهدى صاحب صفد سلارية زرقاء [3] وأقام حفلاً فخماً في حلب أهدى فيهِ إلى أمراء التركمان الأطالس المزركشة بالذهب وغير ذلك [4] واغتنم فرصة عودته ومروره بخان منية فأهدى الى صاحب صفد كاملية [5]

ولعلّ اكبر الهدايا هي ما أعطاه لاسحق باشا رسول الناصري ابن عثمان [6] صاحب مملكة الروم ورفقائهِ . فقد بعث السلطان اليهِ بهدية فاخرة بمناسبة سفره لاداء فريضة الحج [7] . وقد شملت الهدية الف دينار وثلاثمئة رأس من الغنم ومئتي

---

(١) الرحلة ص ١٢—١٣ و ١٤ و٢٢—٢٣ و ٢٥—٢٦
(٢) الرحلة ص ٩و٢٧ (٣) الرحلة ص ١٨ (٤) الرحلة ص ١٩ (٥) الرحلة ص ٣٠
(٦) الاشارة هنا الى محمد الثاني « الفاتح » ، وقد كان المماليك الى ذلك الحين يطلقون على دولته اسم مملكة الروم (٧) الرحلة ص ٢٤—٢٥

اردب من الشعير وأربعمئة قنطار من البقسماط ومئتي طير دجاج وخمسين اوزة وعشرة قناطير سكر وعشرة قناطير رمان وعشرة قناطير دبس . وخمسة عشرة اردبّا من الارز المقشور . على انهُ لم يقتصر على الزاد بل تعداه الى الثياب الفاخرة ، ومعدات السلاح. فأرسل اليهِ احدى وخمسين تفسيلة اسكندرية وعشرة دبابيس من صنع بزدغان وعشرة اكفات مذهبة وعشر حراب وثلاث درعيات جلدية وخمسين قصبة للحراب وعشر قطع موصلين من صنع مشتول (في دلتا مصر) وسكر نبات من إنتاج حماة واربع جرار من العصير الكابولي (١)

***

وقد كتب رحلة قايتباي ابو البقا بن جيعان وهو أحد الذين رافقوا السلطان وسماها (القول المستظرف في رحلة مولانا الملك الأشرف) . ولم يحاول ان يزخرف عبارتها ، بل انهُ لجأ الى البساطة التامة . وقد قال ابو البقا انه أراد أن يدوّن أخبار هذه الرحلة لأنها منقطعة النظير (٢) . ونحن نرى ان الرحلة كتبت بناءً على طلب الملك الأشرف نفسه أو بتشجيع منهُ ، ولعلهُ قصد منها الدعاية للملك



---

(١) العصير الكابولي هو عصير مستخرج من قصب السكر منسوب الى كابول وهي اليوم قرية صغيرة على مقربة من عكاء ، لكنها كانت من امهات اماكن زرع قصب السكر وانتاج السكر في العصور الوسطى (٢) هذه الرحلة مطبوعة في تورينو بايطاليا سنة ١٨٧٨م مع تعليق لناشرها ر.ف. لانزون . لكننا لم نستطع الحصول على الاصل العربي فاعتمدنا ترجمة افرنسية منقولة بقلم السيدة هنرييت ديفو نشير ومطبوعة بالقاهرة سنة ١٩٢١م

الفصل الخامس

الرحالون الاوروبيون في زمن الصليبيين

ما كادت جيوش الصليبيين تحتل سوريا وتفتح القدس حتى أخذ الحجاج يهبطون الاراضي المقدسة زرافات ووحداناً . فقد أصبحوا يفدون بلاداً يحكمها قوم منهم . فصادفوا على أيدي بني جنسهم تيسيراً لاقامتهم وحماية لهم ورعاية لشؤونهم

وقد وصلنا من اخبار هؤلاء الرحالين الشيء الكثير. إذ يزيد عدد الكتب التي بين أيدينا على الثلاثين وهذا فضلاً عن الرسائل العديدة والمذكرات التي حفظها لنا التاريخ

وكما ضمت جموع الصليبيين التي جاءت سوريا وحدات من شعوب أوروبا المختلفة فقد كان الرحالون أيضاً يمثلون السكان على اختلاف أجناسهم . فبينهم الولشي والنروجي والروسي والألماني واليوناني والفرنسي والاسباني

وتغلب على سياح الجزء الاول من فترة الحروب الصليبية السرعة والعناية بالاماكن المقدسة خاصة . ولذلك نجد ان كتابات سيولف لا تعدو كونها جدولاً يحوي أسماء الكنائس التي زارها في القدس ، وان كان تعرض لبعض النواحي الاخرى القليلة بشيء من التفصيل . أما الذين زاروا البلاد في النصف الثاني من الفترة فتغلب عليهم الدقة والعناية . ولعلّ السبب يرجع الى انهم جاءوا بعد أن جنى العالم ثمرة الاختلاط بين الشرق والغرب ، فكان وصفهم دقيقاً وجاءت معرفتهم صحيحة . ونظروا الى البلاد نظرة عامة شاملة بدل النظرة القديمة الجزئية . حتى ان بعضهم رسم خرطاً لسوريا أو لأجزائها مثل بركارت

وتحامل كتاب القرن الاول من العصر الصليبي على العرب والاسلام . ولكن

ذلك تبدّل في أوائل القرن الثالث عشر . فنحن نرى ان تمار يحاول أن يدرس الاسلام ويفهمه فيتصل بالمسلمين ويستفسرهم الكثير من المسائل التي تمر بهِ

***

كان اول الرحالين في هذه الفترة سيولف الولشي[١] الذي زار فلسطين بعيد مجيء الصليبيين ببضع سنوات ١١٠٢ م او ١١٠٣ م . وقد اقتصرت اسفاره على اجزاء من فلسطين تشمل القدس والجليل وما بينهما . نزل هذا الحاج في مرفأ يافا . وبعيد وصوله الى البر بقليل قامت عاصفة قوية أغرقت ثلاثاً وعشرين سفينة كانت في الميناء ولولا انهُ رغب في ذكر نجاته من هذه العاصفة بأعجوبة[٢] لما حصلنا من سيولف على شيء يشير الى سعة الميناء الذي يتسع لهذا العدد من السفن. ويقضي سيولف يومين في الطريق بين يافا والقدس ويعرض لوصف وعورة الطريق واخطارها . فهي وعرة لانها جبلية . اما الاخطار فتأتي من مرابطة بعض السكان في الطريق . ومن الحيوانات المفترسة الكثيرة . ونحن بعد ان نقرأ هذا الوصف نأمل ان يطيل السائح الحديث عن الاماكن التي يزورها . لكنهُ يخيب أملنا ويكتفي بذكرها ويختم كلامه بقوله « اما وقد انتهينا من زيارة الاماكن المقدسة فقد قفلنا راجعين الى يافا »

سيولف شديد النقمة على العرب . فلا يعثر على مكان خرب أو متهدم حتى يسرع فيتهمهم بذلك[٣] . ويلاحظ بلس ان الامر الوحيد الذي نستفيده من سيولف هو وصفه لكنيسة القبر المقدس قبل أن يمسها الصليبيون باصلاح أو اضافة[٤]

***

جاءَ دانيال الروسي[٥] الى فلسطين في سنة ١١٠٦ أو ١١٠٧ م وهو راهب من أتباع الكنيسة الارثوذكسية ، ومن ثمّ فقد اهتمّ بالاديرة كثيراً فوصف دير مار سابا[٦] وتمتع دانيال بسعة من وقته ، فزار الاردن أربع مرات ، وقضى عشرة أيام على شواطىء بحيرة طبرية ومكث في عكاء أربعة أيام . ومن ثمّ فقد رأى أكثر

---

(١) PPT Vol. IV, Early Travels pp. 31-50 (٢) Early Travels p. 34
و PPT p. 6 (٣) PPT p. 22

(٤) Bliss 84 (٥) PPT Vol IV Introduction pp. VII — VIII

(٦) يقع دير مار سابا على نحو خمسة عشر كيلو متراً الى الجنوب الشرقي من بيت المقدس . وقد بني في اواخر القرن الخامس للميلاد ، على يد مار سابا الذي كان الرئيس العام للرهبان المتفردين

مما رأى غيره من الرحالين المسرعين . وان كانت ملاحظاته لا تعدو كونها لفتات[١] فهو يتنبه الى قحولة جبال القدس واعتماد المدينة على ماء المطر . أما الخليل وما جاورها فانها « بلاد الله المرجاة ، كثيرة القمح والكروم والزيتون وجميع أصناف الخضراوات وأغنامها تلقح مرتين في العام، ونحلها يبني خلاياه في صخور جبالها الجميلة ، المكسوة سفوحها بما لا يحصى من الاشجار المثمرة كالزيتون والتين والخرنوب والتفاح . . . ليس تحت السماء مكان يعدل هذه البقعة [٢]

وقد اصطحب دانيال معه راهباً متقدماً في السن ليرشده في تجواله وهو يؤكد لنا ان معلوماته هي نتيجة مشاهداته، فاذا نقل شيئاً عن غيره أسرع الى الاعتراف به [٣] ولعلّ المسافات الخاطئة التي يذكرها دانيال جاءت من اعتماده على روايات غيره[٤]

ويظهر ان دانيال كان على علاقة طيبة جدًّا مع حكام اللاتين في فلسطين . فانهُ لما اعتزم زيارة الجليل رافق الجيش الذي كان يعده بلدوين الاول ١١٠٠ — ١١١٨ م لمهاجمة دمشق وكان ذلك باذن الملك نفسه . ويضيف دانيال الى هذا الخبر انهُ بذلك أمن بطش السكان . اذ انهُ تعرض للاخطار بين القدس وبيت لحم . ويقول انهُ امتنع عن زيارة لبنان لانهُ كان بيد سكان البلاد . ومن هذه الملاحظات نرى ان الصليبيين لم يكونوا قد ضبطوا امور البلاد تماماً ، حتى في مكان قريب الى القدس مثل بيت لحم

وفي القرن الثاني عشر كثرت عناية الكتّـاب بالحجاج . فظهر عدد كبير من الكتب التي وضعت لارشادهم . وهذه الكتب خالية من أثر المؤلف الشخصي . لان الغاية كانت اعطاء الحاج المعلومات اللازمة . ويعدُّ دليل فتلوس[٥] ١١٣٠ م نموذجاً لهذا النوع من الكتب فقد ذكرت فيه اسماء مئة وعشرة أماكن في سوريا وفلسطين لها علاقة بالكتاب المقدس . ولا سيما بالاماكن التي وقف فيها بنو اسرائيل في صحراء التيه . وعينت المسافات بينها. ورويت القصص والاساطير التي حفظتها الاجيال المتعاقبة عن هذه الاماكن او اختلقتها لها [٦]

لم يحاول الكاتب ان يصف البلاد وصفاً عامًّـا . مع انهُ جمع الاماكن الواقعة في

---

(١) PPT p. 26 (٢) نفس المكان ص ٤٥ (٣) PPT Introduction p. IX
(٤) ذكر ولسن امثلة كثيرة من اخطاء دانيال فليرجع اليها في PPT Introduction p XI
(٥) PPT Vol. V (٦) منها ان آدم خلق في الخليل (ص ٨) وان صفاء الماء في البحر الميت يمكن الناظر من رؤية آثار المدن المتهدمة (ص ١٣)

منطقة واحدة معاً . فان انتقاله من منطقة الى أخرى لم يكن له أساس طبيعي او منطقي لكن الواقع ان هذا الدليل فيه محاولة للتعرف على الاماكن المقدسة من حيث علاقتها بتاريخ الكتاب المقدس وجغرافيته[1]

***

وقبل معركة حطين بمدة قصيرة زار فلسطين رحالان المانيان هما يوحنا وثيودوريتش . وقد كان الاول كاهناً في ورتزبرغ ولعلّ الثاني كان مطران المدينة نفسها . والمرجح ان الاول زار البلاد بين سنتي ١١٦٠م و ١١٧٠ م[2] والثاني جاءها سنة ١١٧٢ م[3] . وثيودوريتش أدق وأكثر عناية بالتفصيل من يوحنا . ولذلك فسنتناوله أولاً . ونحن لا ننسى ان الرجل كان قبل كل شيء حاجّاً، وعنايته اتجهت الى وصف الاماكن المقدسة ، لكنهُ أول كاتب أوروبي في القرون الوسطى يعنى بوصف فلسطين وصفاً عامّاً قبل أن ينتقل الى الأجزاء والمدن . فهو في طليعة الذين نظموا دراسة الجغرافية الطبيعية لفلسطين . بدأ كتابه بفصل سماه « تدمير البلاد (فلسطين) وتغيير أسمائها » يشير فيه الى جهل المحدثين (من الصليبيين) للبلاد وخلطهم في تعيين الاماكن . ثم يعمد الى تقسيم فلسطين الى أقسامها الثلاثة الطبيعية — الجليل والسامرة وجبال القدس ، ويتخلص الى ذكر حدود القسم الثالث منها ، ثم يقول ان بلاد القدس جبلية وتبلغ أقصى ارتفاعها حول المدينة المقدسة ، وهذه الجبال صخرية لكن صخورها جميلة ، فيها الابيض والاحمر والرخام المتعدد الألوان وكلها صالحة لأخذ حجارة البناء . أما حيث يتجمع بعض التراب بين الصخور، فتنمو جميع أنواع الفواكه ، وتكون الجبال مكسوة بالكروم والزيتون والتين ، أما الأودية فتملأها الحبوب والبساتين[4] . وفي الفصل الثالث يرتب ثيودوريتش ذكر جبال القدس وأوديتها ويوضح علاقتها بعضها ببعض . ويذكر عين سلوان ويعرض لأسطورة تقول انماء هذه العين يأتي من شيلوه ثم ينقدها ذاكراً استحالة هذا الأمر من ناحية طبوغرافية

والظاهر ان اختبار ثيودوريتش الشخصي في فلسطين لم يتعدّ القدس ووادي

---

(١) راجع مقدمة فتلوس بقلم مكفرسن في PPT Vol. V p. XIII

(٢) رحلة يوحنا موجودة في PPT Vol. V راجع المقدمة ص IX — XII

(٣) رحلة ثيودوريتش موجودة في المجلد نفسه، راجع المقدمة ص III — IX (٤) PPT Vo. II

الاردن والسامرة والجليل ، أما الاجزاء الاخرى فينقل أخبارها عن غيره ، لذلك خلت من الصبغة الشخصية وجاءت جافة [١]

ولم يتخلص الكاتب الدقيق تماماً من الايمان بالعجائب . فالبحر الميت يعيد ذكرى تدمير سدوم وعمورة كل سنة إذ تطفو على وجه الماء فيه أحجار وأخشاب تذكر الناس بما أصاب هذه المدن وأهلها

***

أما يوحنا الذي عاصر ثيودوريتش فقد اهتمّ بالمسيح والاماكن المتصلة به مباشرة لذلك فهو يرتب أخباره ووصفه للاماكن بحيث تتدرج مع حياة المسيح . وإذ يعرض لتقليد يناقش أصوله التاريخية [٢] ويعنى يوحنا بنقل النقوش التي يمر بها نقلاً أميناً فهو من هذه الناحية يفوق ثيودوريتش في مقدار ما نقل

***

ويجدر بنا أن نذكر الآن السائحين اليهوديين بنيامين التودلي الاسباني ١١٦٠ م — ١١٧٣ م وبتاحيا بين ١١٧٠م و ١١٨٧ م وهذان يمثلان الحجاج اليهود الغربيين الذين جاءوا الشرق لزيارة بني جنسهم فيه

بدأ بنيامين[٣] اسفاره من سرقوسه في اسبانيا فجاء ايطاليا ثم بلاد اليونان ومنها الى القسطنطينية [٤] ثم زار جزر الارخبيل اليوناني ونزل في انطاكية واتجه بطريق عكاء ونابلس الى القدس . ومنها ذهب الى دمشق . ثم الى بغداد . على انهُ لم يكن يتتبع في أسفاره اتجاهاً واحداً دائماً. وكثيراً ما عاد الى مدينة او قرية ليتحقق من بعض الاخبار . وبعد اقامة في بغداد وغربي فارس دامت سنتين او ثلاثاً سافر الى مصر بطريق بلاد العرب والنوبة ومنها الى صقلية ثم الى اسبانيا بعد ان ساح في المانيا

ونرى من هذا ، المدى الذي بلغته اسفار بنيامين ، فهو في الواقع اول اوروبي تجاوز الاراضي المقدسة وما جاورها مباشرة ، في رحلته . والملاحظ في اخبار بنيامين

---

(١) الصفحات ١ — ٤٩ تظهر شخصية الكاتب اما الباقي (ص ٥٠ — ٧٤) فتنعدم فيه هذه الشخصية ، ولعل القسم الاكبر منها منقول (٢) راجع قصة شعر مريم المجدلية (الفصل السادس) والجلجلة (الفصل العاشر) في PPT Vol V

(٣) راجع Jewish Travellers، Early Travels pp.XXII-XXV pp. 38-64

(٤) وصف بنيامين القسطنطينية وصفاً مسهباً . راجع Early Travels pp 74–6

انهُ يعنى عناية خاصة باخبار اليهود في كل مكان يمر به — فيذكر عددهم واعمالهم وحالهم عامة . ثم يعطينا اسماء كبارهم ورجال الدين منهم لكن اشر يرى ان بنيامين ، وان كان من رجال الدين . فقد كان قبل كل شيء تاجراً . ولذلك اهتمَّ بأعمال اليهود وصناعتهم وتجارتهم

ونحن اذا تناولنا اخبار بنيامين وجدنا انهُ يحدثنا عن الهند وغيرها من بلاد المشرق حديثاً طويلاً . ومن رأي اشر ان سياحات بنيامين لم تتعد العراق شرقاً . اما ما يرويه من اخبار الشرق الاقصى فهو مما سمع من التجار والمسافرين الذين قابلهم في بغداد وفي الطريق . ويبني اشر حكمه هذا على ان بنيامين يذكر اسماء كبار اليهود في البلاد التي وصلها ، أما في البلاد الاخرى فيشير الى اثنين فقط في كل أخباره [١]

وقد حفظ لنا بنيامين أخباراً عن سوريا ومصر لم يعن بهـا الحجاج المسيحيون المعاصرون ، كالزلزال الذي هزَّ سوريا قبيل زيارته بمدة قصيرة ، فدمر طرابلس وقتل من أهل فلسطين عشرين الفاً [٢] ووصف هيكل وثني في جبيل ، والدروز في لبنان ، وأحوال السامريين في نابلس . ويروي بنيامين قصة [٣] مؤداها ان عاملين كانا يعملان في جبل صهيون (القـدس) عثرا على قبر الملك داود ورأيا قاعة كبيرة مزينة بالذهب والفضة لكنهما لم يكادا يدخلان حتى عصفت ريح شديدة قذفت بهما خارج القـاعة فاقدي الوعي ، ولم يجرؤا بعد ذلك على العودة الى المكان نفسه . وقد سد المكان المنفتح بجدار . لكن بنيامين يقول ان القبور الحقيقية موجودة في الخليل ويستطيع المرء أن يراها اذا رشا أمين المكان

ويحدّثنا بنيامين عن جبيل انها كانت يدير شؤونها سبعة من الجنويين يتزعمهم امبراكو [٤] وينقل الرحالة أخباراً عن الدروز يبدو فيها التحامل وقبول ما يقال له ، لكنه يشير الى اعتزازهم ببلادهم ، والى زيارات تجار اليهود لهم لكنهم لا يقيمون بينهم [٥] ويذكر صناعة الزجاج والسفن في صور . وتنال كل من دمشق وبغداد حظاً كبيراً من عنايته

---

(١) Early Travels, Introduction p XXIV (٢) Early Travels p.79

(٣) نفس المكان ص ٨٤. (٤) احتل وليم امبراكو الجنوي جبيل سنة ١١٠٩ م ، فاقطع المدينة واحتفظ خلفاؤه بزعامة المدينة بعده والظاهر انه لما جاء بنيامين كان هوغو الرئيس وكان الاعضاء الستة الآخرون مندوبي جمهورية جنوه (Early Travels p.79) .

(٥) راجع Early Travels p. 80

ويمر بنيامين بالنوبة في طريقه الى اسوان ، ويرسم لنا صورة لحياة الكسل التي يحياها الناس هناك . وللطريق التي يقنص بها تجار الرقيق من اسوان اهل النوبة . فانهم يلقون أمامهم التين والزبيب والحبوب فيأتون لاخذها فيلقون القبض عليهم

ويتابع سائحنا النيل الى القاهرة ومنها الى الاسكندرية ويعنى بالتحدث عن طرق القوافل التي تتفرّع من اسوان والقاهرة وغيرها شرقاً وغرباً

اما الاخطاء التي يرتكبها بنيامين فعلى نوعين . الاول منها ما يعود سببه الى تصديقه روايات لها علاقة بالاماكن المقدسة بحيث يصعب على مثله رفضها. والثاني يرجع الى نقله انباء البلاد القاصية من رواتها وتدوينها على انها من اختباراته ، فمن النوع الاول خلطه في اسماء المدن الفلسطينية عند ذكر حوادث التوراة[١] ومن الثاني ما ذكره عن الدروز والهنود وعدد اليهود في شرقي ايران والهند ودين سكان ملبار[٢]

ويذكرنا رايط ان بنيامين لم يؤثر الا قليلاً في معرفة اوروبا الجغرافية في القرون الوسطى[٣] لكننا مع ذلك نجد في المعلومات التي يعطينا اياها ما يساعدنا على فهم حال الشرق العربي في القرن الثاني عشر للميلاد[٤]

***

أما بتاحيا فقد ولد في راتزبون وقضى جزءًا كبيراً من حياته في براغ . وقام بين سنة ١١٧٠ و١١٨٧ م برحلة واسعة النطاق زار فيها بولونيا وكيف (روسيا) وشبه جزيرة القرم وبلاد التتار وأرمينيا ومادي وفارس والعراق وسوريا (بما في ذلك فلسطين) وبلاد اليونان . وقد كان في دمشق بين سنتي ١١٧٤ و١١٨٧م وأخباره التي بين أيدينا دوّنها من مذكراته الأصلية يهوذا الصالح بن شمويل[٥] . ويتفق بتاحيا مع بنيامين في انهُ رحل للتعرف على أحوال اليهود في العالم ، لكن أخباره أقل قيمة من أخبار الآخر[٦]

---

(١) Bliss p 100 (٢) Early Travels pp. 100, 115, 118 (٣) نفس المكان المقدمة ص ٢٤ (٤) يظهر مما ذكره ان عدد اليهود في سوريا كلها لم يكن يتجاوز عشرة آلاف في أيامه، وقد ذكر بتاحيا انه كان في القدس ايام زارها يهودي واحد فقط هو الحاخام ابراهيم الصباغ، وسمي كذلك لانه كان يعمل في هذه الصناعة (راجع بتاحيا — ترجمة غرنهوت الالمانية — ص ٤٤)

(٥) Jewish Travellers p. 64

(٦) Carmoly pp VII ff, Bliss p. 101 note 2

كان بين رحالي القرن الثاني عشر راهب كريتي اسمه فوكاس ، وهو الذي ترك لنا « وصفاً مختصراً » [(١)] لسوريا في سنة ١١٨٥ م أي قبل معركة حطين بسنتين . وأسلوب فوكاس في وصفه أسلوب أدبي رائع فالمعلومات التي نحصل عليها ليست جديدة علينا ، ولكن صوره كثيرة الألوان متناسبتها ، واضحة الخطوط مميزتها ، على نحو ما نرى في وصفه لانطاكية ودفنه وينابيع لبنان وميناء بيروت ونواحي عكاء الكثيرة الأمراض . فميناء بيروت صنعها الفن هلالاً واحتضنتها المدينة عاطفة عليها . . . وفي نهايتها برجان كبيران في أحدهما أصل سلسلة ضخمة تسحب منهُ الى الآخر فتحفظ السفن في الميناء [(٢)] . واذ يصل الى بيت لحم ويدخل كنيسة المهد تعجبه الرسوم فيها فيصفها وصفاً دقيقاً جميلاً حتى ليخيل اليك انك تراها أمامك وأنت تقرأه

لكن مما نأسف له ان الكاتب لم يسبغ على القدس أسلوبه الرائع فلم نحظَ منهُ على صور غنية تمثل حياة السكان في البلد المقدس . والخبر الوحيد ذو القيمة الذي نعرفهُ منهُ عن كنيسة القبر المقدس هو ان القبر كان مزيناً بالذهب الذي أهداه امبراطور بزنطية [(٣)] عمانويل كومنينوس ١١٤٣ — ١١٨٠ م وقيمة هذه المسألة ترجع الى ان عملاً كهذا تمَّ في وقت كانت فيهِ الكنيسة اللاتينية البابوية هي صاحبة السلطان في فلسطين

وغريب ان فوكاس يكتفي بتعداد الاماكن الهامة بالقدس لكنهُ لا يكاد يبتعد عنها حتى تعاوده روعة اسلوبه وتعود صوره الفنية الى الظهور ثانية . كالذي نراه في وصفه للاديرة المنتشرة في وادى الكات ودير مار سابا . ويختم فوكاس كتابه بقوله : « فاما وجد القارىء فيما كتبت فائدة ، فانني أحسب نفسي قد جوزيت خير الجزاء عما بذلت من جهد . والاَّ فليعد ابني هذا اليَّ فان صراخه يعيد الى نفسي ذكريات عذبة من الاماكن المقدسة تبعث في خيالي النشوة » [(٤)]

***

ومن مخلفات العصر الصليبي مجموعة من كتابات حجاج مجهولين لا نعرف عن شخصياتهم شيئاً [(٥)] ومن هذه المجموعة واحدة كتبت قبيل سنة ١١٨٧ م . وقد عني كاتبها بتحديد فلسطين أولاً ثم تناول جبالها وحيوانها ونباتها وثمارها ومدنها وما

---

(١) PPT, Vol. V (٢) الفصل الخامس (٣) الفصل ١٤ في PPT, Vol. V
(٤) الفصل ٣٢ (٥) Tobler pp. 22-23 ، PPT Vol. VI

اعتورها من تغيير في أسمائها [1] وتحدث عن الفرق الدينية المختلفة عند النصارى فتناول اليونانية والسريانية والأرمنية والكرجية واليعاقبة والنساطرة . وقد فصل أنظمة بعضها الاكليريكية ، وقارن الشرقية منهـا بالكنيسة الغربية [2]

والحق ان هذا الكتاب الذي لا يتجاوز الثلاثة آلاف كلمة يختلف عما سبقه بأنه أوسع أفقاً وأكثر عناية بالناحية الانسانية [3]

ومع اننا سنقتصر في هذا الكتاب على الرحالين دون المؤرخين ، فاننا نرى لزاماً علينا أن نشير في هـذا الفصل الى ما نفيده من الملاحظات النفيسة التي نعثر عليها في صفحات « تاريخ الصليبيين » [4] لوليم الصوري رئيس أساقفة صور الذي كتبهُ سنة ١١٨٣ م ووصفه لسوريا جاء عفواً بمناسبة تأريخه للاماكن . فهو يرى ان سوريا تمتد من أعالي دجلة الى مصر ومن كيليكيا الى البحر الاحمر ، ثم يقسمها الى الجزيرة الفراتية وسوريا الشمالية والداخلية ولبنان وفنيقيا والعربيتين [5] وادوم وفلسطين التي هي ثلاثة أجزاء ، وعواصمها على الترتيب هي القدس وقيسارية وبيسان

***

ويرى بلس ان الذي يجب أن نعنى بهِ هنـا هو ان معلومات وليم ليست بذات قيمة في ذاتها ، لأن الرجل لم يعرف البلاد معرفة صحيحة ، ولكن المهم فيها انها ترينا اتجاهاً نحو فهم البلاد فهماً شاملاً جامعاً . والوصف الطبوغرافي للقدس هو دون الذي تركه لنا ثيودوريتش ، لكن وليم هو أول غربي خصّ دمشق بوصف دقيق . وكتابه خالٍ من بحث عن أديان السكان في سوريا ، هذا باستثناء ما ذكره عن الحشاشين [6]

وفي الفترة الثانية من العصر الصليبي وهي المدة التي تبدأ بمعركة حطين سنة ٥٨٣ هـ ١١٨٧ م وتنتهي بسقوط عكاء في أيدي الملك الاشرف قلاون سنة ٦٩٠هـ — ١٢٩١م ، جاء الى الشرق العربي عدد كبير من الرحالين . وبعضهم اتسعت رقعة أسفاره بحيث شملت جزءاً كبيراً من الشرق كله . وقد أشرنا من قبل الى ان رحالي القرن الثالث عشر أوسع أفقاً ، وأبعد مدى ، وأكثر شمولاً ، وأوسع احاطة بالبـلاد التي زاروها ووصفوها

---

(١) XXIII و PPT Vol. VI cc XVI—XVIII (٢) نفس المكان فصل ٢—٦
(٣) Bliss p. 98 (٤) William of Tyre وكتابه منشور في Gesta. Dei
(٥) هما حوران وشمال شرق الاردن (٦) Bliss pp 98-9

ولعلّ ذلك يرجع الى انهم جنوا ثمار الاختلاط بين الشرق والغرب ، فكانت معرفتهم أصح ، وملاحظاتهم أدق

***

ولعلّ ولبرند [١] أول سائح في القرن الثالث عشر وصلتنا أخباره . زار سوريا وحجّ سنة ١٢١١ م ووصف الموانىء السورية وصفاً مختصراً لا نجد فيه في الحقيقة شيئاً لم يذكره الذين جاؤوا قبله

***

على اننا متى عثرنا على أخبار تمار لا نأسف على تفريط ولبرند . جاء تمار سوريا سنة ١٢١٧ م ابان هدنة بين المسلمين والصليبيين . ومع انهُ يمر بالقدس مرّ الكرام معتذراً عن الاطالة بأن الذين سبقوه أفاضوا في وصف المدينة المقدسة وكنيسة القبر [٢] فقد عوض عن ذلك بوصف دقيق لدمشق ، غني بالصور والألوان . فقد شبهها بالجنة لكثرة مايحيط بها من الحدائق ذات الاشجار المنوعة والازاهير المتعددة الالوان التي تسرح فيها العنادل وتغرّد حتى في الخريف . وتطرّق الى ذكر خيراتها فذكر ان الزائر يجد فيها عشرين نوعاً من انواع الخبز . ويستطيع ان يدخل المطعم ويأكل دون ان يخشى غشّاً فلن يقدم له طعام بائت . ويحدثنا عما تتمتع بهِ الامم — الجماعات — المختلفة الكثيرة العدد المقيمة في دمشق من الحرية في اعمالها وفي دينها . ويلاحظ بلس ان هذه النغمة تختلف عما عودناه من السياح السابقين [٣]

ونجد تمار في بغداد . لكننا لا نعثر عنده على ذكر للطريق التي اتبعها ، وهو إغفال نأسف له ، اما وصفه لسفرته من القدس الى جبل سيناء عن طريق شرق الاردن فهي قطعة من الأدب الحي . فوادي الموجب (ارنون) وما أثاره في نفسه من الرعب ، وقلعة الكرك ، وضيافته في الشوبك [٤] كل اولئك فيه طابع الشخصية الفنية فقد لقي في الشوبك سيدة فرنسية مترملة عطفت عليه وزوّدتهُ بالخبز المجفف والجبن والخمر والفواكه وأرفقته بالجمال . والسائقين ويمر تمار بالبتراء فيصفها وصفاً مجملاً مختصراً

ويرى بلس ان تمار يمثل نزعة جديدة بدأت تظهر في الغرب عندئذٍ وهي محاولة فهم الاسلام فهماً صحيحاً . فهو ينقل رأي الاسلام في المسيح ويعطي تاريخاً مختصراً لحياة النبي وخلاصة للتعاليم الاسلامية [٥]

---

(١) Willbrand Von Oldenborg

(٢) لعل الاختصار يرجع الى صعوبة الحصول على المعلومات المفصلة (Bliss p. 102)

(٣) Bliss p. 102 (٤) هي القلعة التي يسميها الافرنج Montreal (٥) Bliss p.103

وقد ترك لنا رحالة فرنسي مجهول وصفاً لمدينة القدس يرجع الى حول سنة ١٢٢٠ م عرض فيه لشوارع المدينة وابوابها واسواقها . وذكر أسماءها . ثم أتبع ذلك بوصف عام مقتضب لفلسطين

وقد استطاع كوندر ان يحصل من هذا الوصف على مسافات لنحو ثلاثين من المدن الفلسطينية وقابلها بما وصل اليه هو فوجدها صحيحة [1]

***

وكما كان للقرن الثاني عشر مؤرخ، فقد كان للقرن الثالث عشر مؤرخهُ وهو يعقوب مطران عكاء . سيم يعقوب مطراناً لعكاء سنة ١٢١٧م ، بعد ان كان قد أقام عشر سنين في سوريا . « وتاريخه » يحوي معلومات جغرافية أكثر مما يحتوي كتاب وليم الصوري . واخباره عن الطوائف النصرانية ، دقيقة اما فيما يتعلق بالاسلام فقد قبل ما سمع دون تمحيص أو تدقيق . على ان هذه الظاهرة تبدو فيما كتبه عن أمور أخرى كثيرة . فبينا هو يتحدث عن اهل البلاد تراه ينقل قصصاً خرافية عن اقزام او رجال ذوي قرون أو أذناب ، وبينا يذكر عين سلوان (بالقدس) ينتقل بنا الى الحديث عن العيون والينابيع ويروي ما يعتقده الناس بشأن أنواع الماء وعلاقتها بالعقم والحمل. ومع كل ذلك نجد ملاحظات نفيسة منشورة في تضاعيف الكتاب تتعلق بمناخ فلسطين وزروعها ونباتها [2] وتقسيم سوريا ، وغير ذلك . لكن يعقوب يبلغ غاية الدقة في وصف تنظيم الامارات اللاتينية [3] ومملكة القدس (التي كان مركزها آنئذٍ عكاء) والمدن الكبيرة مثل ادسا وانطاكية وطرابلس وغيرها . فاننا نعثر عنده على وصف مفصل لثلاثين مدينة تقع على الساحل السوري بين اللاذقية ومصر [4] . اما من مدن الداخل فدمشق هي المدينة الوحيدة التي نعثر لها على وصف صحيح

***

رغبت اوربا في القرن الثالث عشر للميلاد في الاتصال بالتتار الذين كانوا قد أصبحوا قوة رهيبة في غرب آسيا [5] وشرق اوربا . وقد حسب بعض رؤساء اوربا آنئذٍ انهُ من الممكن نشر النصرانية بين المغول « فيصبحون عوناً للاوروبيين على المماليك

---

(١) راجع PPT, Vol VI (٢) وان كان يخلط بين ما هو موجود في فلسطين من الحيوان والنبات وبين ما هو في غيرها من بلاد الشرق (٣) راجع الفصول ٣٠—٣٤ (٤) راجع الفصول ٣٨—٤٤ (٥) امتدت فتوحات المغول الى فارس وروسيا وارمينيا . وفي سنة ١٢٤٤ م نهبوا القدس وقضوا على جيش صليبي قرب غزة على ما رواه ماتيو البارزيسي (راجع Sykes, p. 66)

الاتراك في مصر وسوريا » . وعلى ذلك ارسلت بعثتان الى المغول : اما الاولى فقد كان فيها يوحنا كاربيني[1] وقد ارسلها البابا انوسنت الرابع سنة ١٢٤٥ م. واما الثانية فكانت بعثة ملك فرنسا لويس التاسع سنة ١٢٥٢ م ، اذ ندب وليم روبروك[2] ليحمل رسالة الى الخان . ومع ان يوحنا بدأ رحلته من اوروبا ووليم بدأها من عكا[3] فقد اتخذ الاثنان القسطنطينية نقطة لابتداء الرحلة عبر آسيا الى قره قورم . والاخبار التي خلفها لنا الراهبان ذات قيمة كبيرة للبحث الجغرافي والتاريخي . لكنها تخرج عن نطاق هذه الفصول [4]

***

وليس من شك في ان اكبر رحالي القرن الثالث عشر هو ماركو بولو

ولو كنا نؤرخ للرحلة او للكشف الجغرافي لكان لزاماً علينا ان نخصهُ بأكبر قسط من هذا الكتاب. أما ونحن نكتب عن رواد الشرق العربي . فاننا مضطرون الى الاكتفاء بالقليل عن هذا الرحالة . على اننا نأمل ان يرجع القراء الى مظان البحث عنه ليعرفوا أخباره المفصلة وليستمتعوا بقراءة ما كتبه بنفسه عن رحلاته التي شملت جزءاً كبيراً من آسيا [5]

كان نيقولو بولو وأخوه مفيو البندقيان يشرفان على تجارتهما في القسطنطينية ، فخطر لهما أن يبحرا الى شبه جزيرة القرم فيزوران مصرفيهما في صلدايا (صدك الحديثة) ثم يقصدان سراي ، مقر بركا خان الفولغا ، وقد تمَّ لهما ذلك وأقاما عنده سنة ، ثم تعذرت عليهما العودة بنفس الطريق بسبب حرب نشبت بين أمراء المغول . فاتجها نحو بخارى ومنها رافقا وفداً كان في طريقه الى قوبلاي خان (في الصين) وقد سرَّ قوبلاي بهما وأحسن وفادتهما ، وعهد اليهما في حمل رسالة الى البابا يطلب فيها الخان منهُ أن يبعث اليه بمائة من حكماء بلاده ليعلموا المغول . وطلب من الاخوين أن يأتياه ببعض الزيت من قبر المسيح بالقدس . فعاد الاخوان أدراجهما بطريق آسيا الصغرى فوصلا عكا سنة ١٢٦٩م ، بعد غياب يزيد على عشر سنوات

---

(١) John de Plano Carpini (٢) William of Rubric (٣) كان لويس التاسع في حملة صليبية هي المعروفة بالحملة السادسة (٤) راجع Baker pp 40-6 (٥) رحلات ماركو بولو منشورة في طبعات كثيرة . والطبعة التي اعتمدنا عليها هي التي نشرها M. Komroff وفي اولها بحث تاريخي واف لدراسة ماركو بولو في اوروبا

وتلكأ الاخوان سنتين في انتظار انتخاب البابا الجديد زارا خلالها البندقية وعادا وقد صحبهما ماركو بن نيقولو . وبدأ الثلاثة رحلتهم من عكاء سنة ١٢٧١م فأبحروا[١] الى اياس (لجازو) في خليج اسكندرونة [٢] ومنها اجتازوا ارمينيا الى تبريز فهرمز على الخليج الفارسي . وقد كان الرأي القديم هو ان الجماعة مرت بالموصل وبغداد وشط العرب والبصرة في طريقها الى هرمز [٣] . ولكن السر برسي سيكس يرى ان ماركو لم يمر ببغداد ولم يجار دجلة الى الخليج الفارسي [٤] ، وهو يعتقد ان وصفه للموصل وبغداد منقول عمن اجتمع بهم في تبريز وغيرها ، كذلك القصة التي يرويها

ومن هرمز اخترق ماركو آسيا متبعاً طريق القوافل الى الصين . وقد غاب في الصين سبع عشرة سنة ١٢٧٥ — ١٢٩٢ م وعاد الى هرمز بطريق المحيط الهندي ، ومنها الى تبريز فطرابزون فالقسطنطينية فالبندقية التي وصلها في شتاء سنة ١٢٩٥ م

فاركو بولو تهمنا رحلاته من حيث انهُ نقل الينا وصفاً لبغداد بعيد حملة هولاكو عليها سنة ١٢٥٨ م بقليل

وقد كان ماركو دقيق الملاحظة كثير العناية بالمتاجر وموارد الثروة ، ومن هنا كانت اخباره وصوره ذات قيمة خاصة . ونجد عنده ملاحظات قليلة متفرقة عن موانيء الشرق العربي مثل عدن والاسكندرية والبصرة [٥]

***

وآخر رحالي الفترة الصليبية هو بركارد الراهب الدومنيكاني الالماني [٦] ، الذي كتب عن الارض المقدسة سنة ١٢٨٣ م وكان قد اقام في القدس [٧] وسكن عكاء ، وتجول في

---

(١) في هذه الفترة من تاريخ سوريا يلاحظ ان الاوربيين كانوا مضطرين الى السفر من عكاء الى فارس عن طريق كيليكيا (ارمينية الصغرى) ، وذلك بسبب الحملات العنيفة الناجحة التي شنها الملك الظاهر بيبرس على الصليبيين فاستولى بذلك على الحصون والقلاع والمدن الداخلية كلها مثل الناصرة وصفد وحتى انطاكية نفسها

(٢) كان في رفقتهم راهبان ارسلهما البابا من عكاء لكنهما خافا وعادا من هذا الميناء .

(٣) هذا رأي يول (Yule) (٤) Sykes, p. 70

(٥) راجع مثلا ص ٣٠١ و ٣٠٦ و ٣١١ من Travels of M. Polo

(٦) PPT Vol XII (٧) اقام هنا في دير على جبل صهيون ولذلك يسمى Burcard of Mt. Zion

البلاد كثيراً لذلك جاءت اخباره نتيجة اختبار شخصي ، أتمهُ حيث احتاج، بما حصل عليه من اهل البلاد — من المسلمين والنصارى. وقد حاول بركارد ان يتبع تنظيماً خاصًّا في وصف فلسطين ، فقسمها الى اربعة اجزاء وجعل عكاء نقطة الابتداء في كل قسم. فنتج من ذلك ان القارئ يجد نفسه في عكاء بعد انتهائهِ من كل قسم. وحال التقسيم دون معالجة بعض الوحدات الطبيعية دفعة واحدة . فنحن نجد مثلاً ان المدن المحيطة ببحيرة طبريا من الغرب تعالج على ثلاث دفعات منفردة — فكفر ناحوم (تلحوم) وخورازين (كرازة) تقعان في جزء ، وطبريا تقع في جزء ثانٍ ، وبيت صيدا والمجدل في جزء ثالث . وقد رسم بركارد خارطة لفلسطين[1] لكنها لم تصل الينا مع كتابه . ولعلها كانت تساعد القارئ في تتبع طريقة المؤلف في الوصف والتقسم

ويمتاز بركارد عمن سبقهُ بعنايته بالآثار[2] ومحاولته التعرف على الاماكن الوارد ذكرها في الكتاب المقدس[3] محاولة منظمة ، ودقة وصفه لطبوغرافية القدس[4] وفي آخر كتابه أورد بركارد فصلين عامين عن فلسطين الواحد عنوانه «ثمار الارض المقدسة وحيوانها » والآخر اسمه « الديانات المختلفة في الارض المقدسة » . وقد حمل فيه على اللاتين الاوروبيين [5] ، وأجمل القول في المسلمين فكان دقيقاً ومعتدلاً

ويقول لورنت ، ويوافقه بلس على ذلك ، ان بركارد أبرز حجاج القرون المتوسطة وأكبرهم شأناً

ونحن إذ نقرأ وصفه لعكاء وصيدا والحولة ومنتجات فلسطين وغيرها لا يسعنا إلاّ أن نعترف لهُ بأثر كبير في تنظيم الدراسة الجغرافية للبلاد المقدسة

---

(١) هي اول خارطة رسمت لفلسطين في العصور الوسطى

(٢) راجع PPT, cc 4, 7, 8 (pp. 27, 51, 72)

(٣) عنده خمسة وأربعون مكاناً لم يرد ذكرها في فتلوس (٤) اذا قوبلت بوصف ثيودوريتش مثلا . راجع PPT, c 8 (?p. 67)

(٥) حملهم بركارد مسؤولية تأخر مصالح الاوروبيين في الشرق ، فقال عنهم انهم ينهبون الحجاج بعد ايوائهم في بيوتهم ص ١٠٢ وقال ايضاً انهم يتقاعسون عن العمل لاسترجاع الارض المقدسة من ايدي العرب ص ٣

الفصل السادس

أدب الدعاية

احتل المماليك عكا سنة ٦٩٠هـ — ١٢٩١ م وبذلك قضي على دولة الصليبيين في سوريا وكان المنتظر أن يثير ذلك اوروبا الى القيام بحملة جديدة لاسترجاع سوريا أو فلسطين على الأقل ولكن شيئاً من ذلك لم يكن. كان عهد الحملات الصليبية الواسعة النطاق[1] قد انقضى. على اننا نجد في النصف الاول من القرن الرابع عشر بعض الدعاة الذين لم يفت في عضدهم تقاعس اوروبا، فاندفعوا يكتبون محرضين الامراء والملوك والبابوات مبينين لهم ولغيرهم الواجب الملقى على عواتقهم، مطالبين إياهم بتجريد حملة أو أكثر للقضاء على سلطان المماليك ووقف تقدم الاتراك في آسيا الصغرى واسترداد الملك المفقود. والغالب على هذا الأدب المحرض أربعة أمور: — أولها البحث في أسباب فشل الصليبيين في آخر عهدهم وانكسارهم ونقد تصرف المسؤولين عن المملكة الصليبية، وثانيها البحث في الطرق المؤدية من اوروبا الى الشرق — البحري منها والبري، وثالثها درس موارد المماليك الاقتصادية وقواهم العسكرية في سوريا ومصر والتعرف الى طريقة اضعافهم اقتصاديًّا تمهيداً لاحتلال البلاد، ورابعها التحالف مع المغول. والذي نستطيع أن نستنتجه من استعراضنا لهذه المادة من الادب المحرض التي وصلت الينا هو ان الامر كان يشغل بال عدد كبير من الناس، وان الكتّاب كانوا يرمون الى التأثير في الرأي العام[2] لذلك حاولوا أن ينشروا كتبهم بين أكبر عدد ممكن من شعوب أوروبا

---

(١) Brehier p. 250 (٢) نفس المكان ص ٢٥٠

لعلّ أقدم ما وصل الينا من أدب الدعاية بعد سقوط عكاء هو ما كتبه تاديو النابلي [١] الذي وصف سقوط المدينة من الناحية الواحدة ، وبين الدور الذي لعبته كل جماعة كانت داخل المدينة في الدفاع أو التخلي عن المدينة أو الهرب . على ان الكتاب مقصود به مبدئيًّا أن يكون دعاية لحملة صليبية جديدة . فهو رسالة موجهة الي أمم النصرانية ، يحاول تاديو فيها ان يثير حماستها للقيام بهذا العمل [٢]

***

وفي مقدمة الدعاة الكبار اثنان كانا في مقدمة رجال القانون في أيام فيليب الجميل ١٢٨٥ — ١٣١٤ م هما بيير دوبوا وغليوم دي نوغاره [٣] فقد تقدم الاول سنة ١٣٠٧ م الى ادوارد الاول ملك انكلترا برسالة تناول فيها جميع المسائل المتعلقة بحملة صليبية الى الشرق . وقد اعترف الكاتب بأن ما بين الدول الاوروبية النصرانية من خلاف هو السبب الرئيسي في انصراف امرائها عن اعداد الحملة . فهو يقترح : (١) عقد مؤتمر عام يقر السلم بين الدول ويفرض رأيه على المتردد بالقوة [٤] (٢) منع الاتجار مع الشرق منعاً باتًّا (٣) ارسال جماعات من رعايا الدول لسكنى فلسطين (٤) انشاء محكمة مؤلفة من ثلاثة اساقفة وثلاثة من الرجال العلمانيين [٥] تفصل في الخصومات (٥) جعل الدولة الجديدة في الشرق ملكاً موروثاً على ان يكون اول ملوكها أميراً فرنسيًّا . ثم يتولى بيير تفصيل النظام الحكومي الذي يقترحه لهذه الدولة وجيشها ويتخلص من ذلك الى التنبيه على الذين سيتولون ادارة البلاد انهُ يتحتم عليهم ان يعيدوا الكنائس الشرقية الي حظيرة الكنيسة الكاثوليكية وان ينشروا النصرانية بين المسلمين . وفي سبيل تحقيق هذا الامر يجب ان يتعلم المستعمرون رجالاً ونساءً

---

(١) Thadeo of Naples في Historya de Desolacione et Conculcacione Civitatis Acconensis (٢) Atiya, Crusades. pp·30-33

(٣) Pierre Dubois و Guillaume de Nogaret

(٤) وصل الينا كتاب باسم « طريق مصر » (Chemin de Babloine) يرجع تاريخه الى ١٢٨٩ — ١٢٩١ م يبحث فيه كاتبه في خير الوسائل لتجنيد اوزوبا وارسال حملة كبيرة لتصد تقدم المماليك السريع في سوريا . والمؤلف الذي نجهله يصف قوة السلطان في مصر وسوريا ويعطي تفاصيل وافية عن الطريق من غزة الى دمياط ورشيد . والظاهر انه كان يعرف التركية فان الأسماء صحيحة اللفظ والكتابة ، وهو يشير الى هذه المعرفة اشارة خفية

والكتاب يعود الي قبيل سقوط عكاء فان الدعوة لوقف فتوح المماليك واسترجاع فلسطين كانت بدأت قبل خروج الصليبيين من البلاد . راجع AOL Vol· II p. 89 ff

(٥) يرى بيير ان يكون الجميع ممن لا تغريهم الرشوة

لغات الشرق المختلفة، في مدارس خاصة يتولى الإشراف عليها فرسان الهيكل والمستشفى. وفي السنة التالية) ١٣٠٧ م ارسل بيير مذكرة في الموضوع نفسه الى فيليب الجميل عرض عليه فيها ان يجعل ابنه الثاني (فيليب) ملكاً على (مصر وبابليون) [١] وان يسعى إلى توحيد جمعيات الفرسان المختلفة تحت سلطان ملك قبرص

***

أما دي نوغاره فقد أثار [٢] على فرسان المستشفى حملة شعواء وحملهم مسؤولية الفشل الذي أصاب الحملات الصليبية في القرن الثالث عشر، ثم اقترح أن يضع فيليب يده على أملاك الكنيسة وينفقها في سبيل إعداد الحملة، لأنه رأى ان المال أمر ضروري لنجاح مثل هذه الحملة [٣]

على ان البحث في الحملة الصليبية والدعوة اليها وتبيين سبل نجاحها لم يقتصر على جماعة واحدة من المفكرين ولكنه شمل الامراء والمبشرين والتجار وغيرهم من الناس. والطريف فيما كتبوه انهم يتفقون في الخطط العامة بحيث لا يختلفون إلاّ في التفاصيل واختيار الطرق، فقد اقترح دي بادو [٤] غداة سقوط عكاء، مقاطعة التجارة الشرقية وحصر مصر تجاريًّا لتضعف ويسهل احتلالها. وهذا يتم بحسب رأيه بواسطة أسطول كبير يحتل مصب النيل وجيش قوامه ثلاثون الفاً من الجنود ينزلون قرب الاسكندرونة في شمال سوريا ويزحفون الى مصر بعد أن يلتقوا بالمغول الهاجمين من الشرق. وفكرة انشاء أسطول كبير يحرس البحر المتوسط ويحصر تجارة مصر نجدها في مشاريع شارل الثاني ملك نابلي ١٢٩١—١٢٩٢ م وجاك مولي رئيس الهيكليين سنة ١٣٠٧ م ووليم آدم سنة ١٣١٠ م. وفي مذكرة للبابا كلمنت الخامس أرسلها سنة ١٣١١ م الى هنري الثاني ملك قبرص ١٢٨٥—١٣٢٤ م وفي ما كتبه مارينو سنودو. وقد اقترح هذا انشاء أسطول يكون تحت إمرة مندوب يختاره البابا ويرجع اليه في تلقي أوامره. والغرض من ذلك أن يكون الاسطول مستقلاً عن المدينتين التجاريتين الكبيرتين البندقية وجنوه لأن مصالحهما التجارية قد تحملهما على تضحية المصلحة الاوروبية العامة في سبيل ما تريدان [٥]

---

(١) Babylon — اشارة الى « باب اليون » في مصر القديمة . وقد كان كتاب العصور الوسطى الاوروبيون يطلقون بابليون على المدينة كلها . وقد ادت هذه التسمية الى الخلط كثيراً بين مصر وبابل
(٢) سنة ١٣١٠ م (٣) Brehier p. 254 (٤) Fedince de Padoué (٥) نقل (Brehier p. 255) ان سفينة جنوية كانت تحمل بضاعة مرسلة لمصر قبض عليها سنة ١٣١٠م، فانتقمت جنوه بأن وجهت اسطولها ضد رودس

والاختلاف على الطرق التي يمكن اتباعها للوصول الى الشرق أمرٌ طبيعي ، لأن المجال أمام الرحالين والكتّاب واسع . فثمة الطريق البري من أواسط أوروبا الى القسطنطينية ومنها بطريق آسيا الصغرى وسوريا . وهناك من اقترح طريق البر أولاً ثم طريق البحر من بزنطية الى سوريا . والحملات البحرية نفسها بصرف النظر عن مكان ابتدائها ، قد تتخذ عكاء او غيرها من موانىء سوريا هدفاً لها ، وقد تتجه غيرها نحو الاسكندرية او غيرها من المدن المصرية رأساً ، بحيث يمكن الزحف على القاهرة والقضاء على مركز السلطان اولاً . وقد بُحث في احتمال ارسال حملة الى مصر بطريق تونس

اما التحالف مع المغول فقد دافع عنه دي بادو وغرانسوت وآدم وسنودو(١)

***

وقد يكون من حق هيتون ان يشار اليه بهذه المناسبة . كان هيتون اميراً ارمنيًّا وفي سنة ١٣٠٧ م كتب «تاريخ الامم الشرقية» وعرض فيه لتاريخ الشرق منذ زمن المسيح الى ايامه وختمه بدعوة اوروبا لحمل السلاح لاسترجاع فلسطين ووقف الخطر التركي . وهذا الجزء من كتاب هيتون ثلاثة اقسام . الاول : يبحث فيه المؤلف نواحي القوة والضعف عند المماليك ، والثاني يعرض فيه للحملة الصليبية المنتظرة ، والثالث يتناول فيه الطرق

ففي القسم الاول يعزو المؤلف تقدم مصر الى (١) قوة السلطان الشخصية التي تمكنه من التغلب على الفتن والثورات (٢) الهدنة الطويلة مع التتار (٣) وفرة الغلات في مصر وسوريا (٤) اطمئنان الدولة الى ان الطرق التجارية البرية والبحرية في امان (٥) السلم القائم بين مصر والنوبة والعرب في الصحراء الشرقية . ولذلك فهو ينصح اولي الامر في اوروبا بان يتحينوا فرصة اضطراب احد هذه الامور عند المماليك فيهجموا على الشرق . وهذا الاضطراب قد يحدث اذا تكاثر الثائرون على السلطان او عادت الحروب مع التتار او الاحباش او هجم العرب على املاك السلطان او امتنع النيل عن الفيضان فقلّ الانتاج الزراعي

ويقترح هيتون ان تأتي اول الامر حملة صغيرة من نحو اربعين الفاً من الرجال

---

(١) Brehier pp. 257-8

يصحبها اسطول قوي فتنزل في ارمينيا الصغرى (كيليكيا) ومن هناك يمكن الاستيلاء على طرابلس وغيرها من الموانىء السورية . ويكون الرسل قد نجحوا في اقناع التتار بالهجوم من الشرق ، وعندها تبدأ الحملة الكبيرة . وهنا يتناول هيتون الطرق المختلفة التي يمكن للحملة أن تتبعها واحدة واحدة ويفضل الطريق البحري ، بحيث تصل الحملة انطاكية في سوريا في الخريف ، وتبدأ الزحف من الشمال الى الجنوب [1]

اعترى أدب الدعاية للحملات الصليبية بعض الفتور في أواسط القرن الرابع عشر بسبب اهتمام أولي الامر في أوروبا باعداد الحملات فعلاً وبقيادتها[2]. فلما لم تؤت هذه البعثات العسكرية ثمراً عاد الكتّاب الى الدعاية من جديد . وفي هذه المرة كانوا من رجال السياسة . ولاشك ان الاتجاه الجديد يتضح من دراسة حياة بيير دي توماس وفيليب ميزيير .

ولسنا نريد أن نتناول حياة هذين الرجلين بالتفصيل ، بل نكتفي بالاشارة اليهما اشارة موجزة محيلين القارىء الى الفصل النفيس الذي كتبه عنهما الدكتور عطية[3]، ومنه أخذنا هذه الخلاصة .

* * *

ولد بيير دي توماس [4] في أواخر القرن الثالث عشر وانصرف في شبابه الى طلب العلم فظهرت مواهبه للبابا أنوسنت السادس ١٣٥٢ — ١٣٦٢ م فاختاره سفيراً له لدى ملك ابوليا ثم لدى ملك سربيا ثم عند امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة وسامه مطراناً في صقلية ثم بطريركاً لاتينيًّا في القسطنطينية ، وأخيراً عين بيير قاصداً رسوليًّا في الشرق . وفي سنة ١٣٥٧ م زار فلسطين .

وقد صرف بيير همه الى ثلاثة أمور اعتبرها رسالته في الحياة : الاول رد نصارى الشرق الى حظيرة الكثلكة . والثاني التبشير بالنصرانية بين المسلمين . والثالث الدعوة الى حملة صليبية لاسترداد الارض المقدسة . ولم يأل جهداً في احدى هذه المحاولات . ومما لا شك فيه انه كانت له يد كبرى في تهيئة الحملة ضد الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م

---

(١) Atiya, Nicopolis pp. 20-23 (٢) الاشارة هنا الى الحملة ضد رودس سنة ١٣٠٧ م وحملة همبرت الثاني سنة ١٣٤٥م وبطرس لوزنيان وأميديو سافوي ولويس بوربون
(٣) Atiya, Crusades, Chap. VII (٤) Pierre de Thomas

ومن الغريب أن يموت بيير عقيب ارتداد المحاربين عن المدينة بعد أن نهبوها (توفي سنة ١٣٦٦ م)

***

لكن بيير خلّف فيليب[1]، تلميذه وخليفته الروحي . ولد فيليب سنة ١٣٢٧ م ودعا الى حملة صليبية في فرنسا واسبانيا وتقلد منصب المستشار الملكي لبيير لوزنيان ملك قبرص ١٣٥٩ — ١٣٦٩ م، فلما اغتيل هذا رحل الى فرنسا وعمل مربياً لولي عهد المملكة ، فلما توفي الملك شارل الخامس (ملك فرنسا) سنة ١٣٨٠ م قرر فيليب اعتزال العالم ، واعتكف في دير بالقرب من باريس . وهناك شغل نفسه باملاء رسائله وكتبه ومذكراته التي كانت كثيرة العدد ، متنوعة المباحث ، على ان أهم ما جاء فيها ، من حيث علاقته بموضوعنا، يمكن تلخيصه في ما يلي : —

١ — رأى فيليب ان فرق الفرسان التي نشأت قبلاً قد اختصمت فيما بينها حتى أدّت خصومتها الى ضياع الاراضي المقدسة ، لذلك اقترح انشاء فرقة جديدة من الفرسان بحيث تُجتَنب فيها الاخطاء السابقة

٢ — إعداد الحملة الصليبية والبحث في الطريق التي تسلكها الجيوش للوصول الى غايتها

٣ — ضرورة قيام السلم بين انكلترا وفرنسا لتتمكن الامتان من الاشتراك في الحملة الصليبية

٤ — وهناك اقتراح جديد وهو ارسال سفراء الى البلاط السلطاني الشرقي يحملون الهدايا والرسائل الودية الى السلطان ورجاله

وها نحن أولاء نكتفي بهذا القدر اليسير عن أدب الدعاية للحملات الصليبية في القرن الرابع عشر ، ضاربين صفحاً عن جماعات كثيرة غير الذين ذكرنا ، وفي مقدمتهم المبشرون ، على اننا نرى من الخير للقارىء أن نحيله الى ما كتبه الدكتور عطية عنهم [2].

---

(١) Philip de Mezieres

(٢) Atiya, Crusades pp. 29-187

الفصل السابع

رحالو القرن الرابع عشر

هؤلاء الرحالون كثيرو العدد متباينو الغايات والاغراض، لكنهم يتفقون في انهم أرادوا أن يفهموا الشرق فهماً صحيحاً وأرادوا أن يتعرفوا الى اسباب فشل الحملات الصليبية لتداركها في المستقبل

***

وأول الرحالين الذين تطالعنا اسماؤهم بعيد سقوط عكاء هو ريكولدو دي مونت كروشي[١] الذي قضى وقتاً طويلاً من حياته في الشرق . ولد ريكولدو بالقرب من فلورنسا سنة ١٢٤٢م وتوفي سنة ١٣٢٠ م . وكان يرى ان من الخير للبشر ان يعتنقوا الكثلكة — سواء في ذلك النصارى الشرقيون والمسلمون واليهود . ورأى ان يقرع الحجة بالحجة مع أهل الاديان المختلفة،فأقام في الشرق ليدرس العقائد المختلفة فتعلم العربية واستقرّ في بغداد زمناً لدرس القرآن الكريم وامهات الكتب الاسلامية. وكان همه في سوريا وغيرها ان يجمع ما تصل اليه يده من الآثار المقدسة ويحملها الى اوروبا [٢]. فالبعض منها ابتاعه والبعض الآخر أخذه من الاديرة . وقد خلف ريكولدو ثلاث مجموعات من الآثار المكتوبة ، اولها «اسفار» وهي التي ارادها دليلاً للحجاج والصليبيين ، وثانيها الرسائل التي وصف فيها ما مرّ به من حوادث ، وصوّر ما عنّ له من الخواطر وما دار بخلده من الآمال اثناء اقامته في الشرق[٣]. وثالث هذه

---

(١) Ricoldo de Monte Croce (٢) كان من اهم ما جمعه في نظره آثار القديس جورج St. Georges, Moralia (راجع Atiya, Crusades p 160 Note 3)

(٣) راجع AOL II Documents 258-63

المجموعات كتاباته الدينية البحتة وفيها رسالات ثلاث موجهة الى الاسلام والنصرانية الشرقية واليهودية [١]

***

ويطالعنا في مفتتح القرن الرابع عشر سائح آخر من رجال السياسة والتبشير هو وليم آدم. ولد سنة ١٢٧٥ م في جنوب فرنسا، والتحق بالاخوة الدومنيكان في شبابه وفي سنة ١٣٠٥ م انتدبه البابا كلمنت الخامس [٢] للقيام بأعمال تبشيرية في الشرق، فزار بسبب ذلك آسيا الصغرى وسوريا. وانتدب ثانية لزيارة فارس والتبشير في الهند. وقد طاف فيها ومرّ بعدن وعرج على شرق افريقيا. وبعد تردد على الشرق غير مرة عين رئيساً لأساقفة السلطانية (عاصمة مملكة الفرس) ثم نقل الى انتواري، وقد تغيب عن مركز عمله كثيراً وتوفي في انتواري سنة ١٣٤١ م.

والعمل الذي وقف وليم حياته عليه هو إثارة اوروبا لاعداد حملة لاسترداد سوريا والقضاء على سلطان مصر. ويظهر هذا جليًّا من اسم كتابه ومحتوياته [٣] فان الكاتب يتناول فيه مسألتين كبيرتين: الاولى ثروة مصر وسبيل القضاء عليها، والثانية الطريق التي يجب اتباعها لاحتلال مصر. والاولى هي التي تهمنا في هذا المقام. فمصر تعتمد في ثروتها على الاتجار مع الامم البعيدة عنها بالاضافة الى جاراتها. فبزنطية تبعث اليها بالقمح، والرقيق يحمل اليها من ارمينيا وما وراءها، والهند تمدها بمصنوعاتها وطرائفها، وعدن تجمع ما تحتاج اليه مصر من جنوب بلاد العرب وافريقيا الشرقية، وكل هذه المتاجر ينقلها الجنويون والبنادقة والبيزيون وتجار قطالونية الى أوروبا. ومصر تسيطر على الطرق السورية بحكم ان سوريا جزء من السلطنة المصرية. ولا سبيل الى احتلال سوريا والقضاء على مصر، كما يرى المؤلف، الا بمنع الاتجار مع مصر. ويرى ان ذلك يتطلب القيام بأمور اربعة. (١) ضرب الحصر التجاري على مصر وحرمان نصارى اوروبا الذين يخالفون ذلك ويتاجرون معها. (٢) احتلال الامبراطورية البزنطية وارغام أهلها على اعتناق الكثلكة، (٣) وعندها يمكن

---

(١) اسماؤها على الترتيب هي Liber contra Nationes و Confutatio Orientales و Liber contra errores Judaeorum (٢) من سنة ١٣٠٥ م الى سنة ١٣١٤ م (٣) اسم الكتاب De Modo Sar. extirpandi

تحويل التجـارة من الطريق المصري السوري الى طريق فارس — آسيا الصغرى القسطنطينية . (٤) انشاء اسطول قوي في المحيط الهنـدي يكون عمله الحيلولة دون وصول متاجر الهند الى عدن فيضطر التجار الى المرور بطريق الخليج الفارسي . فمتى تمَّ ذلك ضعفت مصر عن المقاومة . وسهل ابتلاعها وخصوصاً لان الشرقيين جبناء لا يجرأون على القتال (!) [١] ولا ينسى وليم ان يوجّـه نظر الاوروبيين الى وجوب عقد محالفة مع المغول . لزيادة مصاعب المصريين . وامكان مهاجمتهم من ناحيتين في وقت واحد

***

وبروكارد [٢] في مقدمة الاوروبيين الذين قضوا فترة طويلة في الشرق حول سنة ١٣٠٨ م ونجده في سنة ١٣٢٣ م في البلاط الارمني يعمل على نشر الكثلكة وقد قال هو عن نفسه انهُ اقام اربعاً وعشرين سنة في ربوع الشرق [٣]

ويمكن اجمال القول فيه انهُ كان داعية للكثلكة متعصباً حتى انه جعل فرضها على نصارى الشرق البزنطيين غرضاً رئيسيًّـا من ارسال حملة صليبية . ولذلك نراه يحمل على الجماعات النصرانية في الشرق حملات شعواء، فيتهمهم بالجبن والخداع والغش وغير ذلك من الرذائل [٤]

قدم بروكارد كتابه [٥] لفيليب السادس سنة ١٣٣٢ م إذ كان الملك يعـد حملة صليبية عسكرية يوجّـهها الى الشرق. وقد جعله في مقدمة وجزئين، فأشار في المقدمة الى السرور الذي ملأ قلوب القوم إذ سمعوا بنبأ الحملة. ثم تناول في الجزء الاول الجيش وما يحتاج اليه والطرق الصالحة . وعرض في الثاني للخطة التي يجب اتباعها بالتفصيل

ولسنا هنا في معرض البحث عن تاريخ الحملات الصليبية فنفصل في درس كتاب بروكارد [٦] ولـكننا نحاول أن نرسم صوراً لما رآه الرحالون في الشرق العربي في هذه الفترة . والاثر الذي يتركه بروكارد في نفوسنا هو انهُ لم يفهم الشرق ولم يقدر سكانه. فهو يرمي نصارى الشرق من غير الكاثوليك بالتهم يكيلها لهم جزافاً ، كما ذكرنا ،

---

(١) Atiya, Crusades pp. 64—8 (٢) هو غير بركارد المذكور قبلا (راجع فوق الفصل الخامس ص ٨١) والمعروف عنه قليل (٣) Reiffenberg p. 228

(٤) Reiffenberg pp. 296 300-1 . راجع ايضاً Atiya, Crusades notes

(٥) Directorium ad Philippum regem Franciae) pp. 106, 107,

(٦) راجع Atiya, Crusades, pp. 95-113

ويقول عن الاتراك انهم يسهل قهرهم لأسباب متعددة ، منها انهم أشرار فالله يعاقبهم ومنها انهم فاسدون منقسمون وجيوشهم ضعيفة هزيلة ، وجندهم من عتيق اليونان وقادتهم لا يعرفون من فنون الحرب شيئاً ، وسلاحهم لا يعتد به لنزرته ، وخيولهم هزيلة. ويختم بروكارد وصفه لهم بقوله: « والخلاصة انهم بعد اليونان والمصريين أحط من حمل السلاح من أمم الشرق » ولكن أوروبا لم تنتظر طويلاً حتى ثبت لها خطأ ما رواه بروكارد عن الاتراك

ونحن وان كنا نترك هذا الرحالة آسفين لاننا لانجد عنده صوراً للحياة الشرقية ، فاننا ننتقل الى رحالة آخر يعتبر ما خلفهُ من خير ما وصل الينا لدرس الحياة الاقتصادية للشرق في القرون المتوسطة . هذا هو مارينو سنودو

***

ومارينو سنودو هذا بندقي المولد ولد حول سنة ١٢٧٠ م وقد كان أبوه قاضياً وعضواً في المجلس الكبير في البندقية ودوقاً لجزيرة نكسوس التي احتلها أثر سقوط القسطنطينية بأيدي اللاتين [١] ومن المعروف ان أباه تزوج أميرة بزنطية ، لكننا لا ندري هل كان مارينو ابنها أو ابن زوج أخرى

ساح مارينو كثيراً ، وزار ايطاليا واليونان وارمينيا وسوريا ومصر غير مرة . والذي نعرفه انهُ أقام في عكاء في الحي البندقي سنة ١٢٨٦ م [٢] وفي رودس من سنة ١٣٠٩ الى ١٣١١ م

وفي سنة ١٣٢١م [٣] تقدم مارينو الى البابا يوحنا الثاني والعشرين (١٣١٦ — ١٣٣٤ م بكتابه المسمى [٤] « أسرار حملة صليبية » وهو الذي تناول فيه الخطة الواجب اتباعها في اعداد حملة عسكرية لاستعادة الشرق بتفصيل دقيق [٥] والكتاب يشمل ثلاثة أمور رئيسية . الاول سبيل القضاء الاقتصادي على مصر [٦] ، والثاني احتلال مصر

---

(١) سنة ١٢٠٤ (٢) راجع PPT, Introduction (٣) ٢٤ ايلول (سبتمبر)

(٤) Secreta fidelium crucis منشور الجزء الخاص بفلسطين منه في PPT,

(٥) من الراجح ان مارينو بعث بكتابه كله او اجزاء منه الى عدد كبير من اولي الامر في اوروبا مثل فيليب السادس (فلوي) ودوق اللورين وملك انكلترا (ادورد الثاني) وملك قبرص ورئيس الفرسان الهيكليين (٦) يرى مارينو انه اذا قوطعت مصر ثلاث سنوات تجارياً ضعفت وأصبح في وسع قوة اوروبية التغلب عليها . والمتاجر التي يجب ان تقطع عنها هي الاخشاب والعبيد والحديد « راجع Brehier p. 255 »

العسكري ، والثالث الاحتفاظ بمصر والبلاد المقدسة وكيفيـة تأمين ذلك . والناحية العسكرية البرية والبحرية في الكتـاب ليست مما يعنينا هنا ، لكننا نريد ان ننوّه بالفائدة التي يجنيها مؤرخو الشرق في القرون الوسطى من مراجعة الحياة الاقتصادية في القرن الرابع عشر الميلادي[١] . وقد وصف مارينو جغرافية الارض المقدسة وطبوغرافيتها وصفاً دقيقاً ، كما تناول الملاحة في الشرق الادنى وطرقها والسفن وانواعها واوقات اقلاعها وقدومها

ومما يزيد في قيمة كتابه الخرائط التي رسمها خصيصاً له . وقد وصلنا منها ثلاث خرائط للعالم وللشرق وللارض المقدسة ، ورسمان واحد للقدس والثاني لعكاء[٢]. اما خارطة البحر المتوسط فقد فقدت

وقد استقى مارينو معلوماته من اسفاره العديدة ومؤلفات وليم الصوري ويعقوب دي فتري المؤرخين[٣] وممن عاشرهم من اهل الحل والعقد . ومتى عرفنا انهُ صرف نحو خمسة عشر عاماً في تحضير كتابه أدركنا السبب في الدقة التي نلمسها في هذا المؤلف النفيس واستغربنا نواحي الضعف التي نقلها عن سابقيه دون ان يصححها[٤]

***

وفي نفس الوقت الذي كان مارينو يعد فيه رسـالته كان يقيم في بيسان يهودي منفي هو الحاخام استوري بن موسى هابارخي . جاء بيسان سنة ١٣١٤ م وأقام فيهـا سبع سنين صرفها في درس فلسطين وشرق الاردن من حيث علاقة جغرافيـة البلاد

---

(١) لقد استقى هايد الكثير من معلوماته عن مارينو ، راجع كتابه ، المجلد الثاني (٢) راجع Roehricht, ZDPV, XXI (1898) pp. 84-128 . وقد لاحظ كوندر في مقدمته لترجمة الجزء الخاص بفلسطين من كتاب مارينو (PPT, Intr. P. IX) الاخطاء التالية التي ارتكبها مارينو في رسم خرائطه (ا) خلط بين خليج العقبة وخليج العجم (ب) جعل الدجلة والفرات يصبان في البحر عند دير القديسة كاترينا في صحراء سينا . لكنه يعترف بأن اسماء الاماكن الساحلية في سوريا واسيا الصغرى صحيحة

(٣) حتى انه نقل بعض اخطائهما (راجع Bliss P. 114) (٤) يروي ستيوارت ان مارينو لم يعرف الشاطىء المصري معرفة وافية . ويرى كوندر ان عكاء هي المدينة الوحيدة التي عرفها في فلسطين ، وانه نقل طبوغرافيتها عن وليم ويعقوب (راجع PPT, Introdiction pp. VI, IX) . ومن المؤسف ان كتابات مارينو ليس لها المسحة الشخصية التي نلمسها عند كثيرين من معاصريه حتى ان وصفه لعكاء لا يدل على انه زارها ، بل انه يصف كمن سمع خبرها وهذا مع انه اقام فيها مدة

بالتوراة . وقد أتمّ كتابه سنة ١٣٢٢ م . ويرى المحدثون من الكتّاب ان أبحاث استوري وتعرفه الى الاماكن القديمة ومقارناته وتقصيه في كل هذا، تجعله في مصاف كبار الجغرافيين الفلسطينيين [١]

***

وفي سنة ١٣٣٣ م نزل راهب الماني اسمه وليم فون بلدنزل [٢] مدينة روما حيث حصل على اذن في زيارة الاراضي المقدسة. وعند عودته الى المانيا سنة ١٣٣٦ م نشر كتاباً [٣] وصف فيه بلاد اليونان وجزيرتي رودس وقبرص ومصر وسوريا وسيناء ، مع عناية خاصة بالمدن الرئيسية مثل يافا وغزة والقدس ودمشق والقاهرة . ومن المحتمل أن يكون وليم قد وصل بغداد . لكن كتابه في الحقيقة دليل للاراضي المقدسة قبل كل شيء

***

ومما لا يرتاب فيه ان أظرف رحالي القرن الرابع عشر هو يوحنا مندفيل [٤] ويعرّفنا يوحنا بنفسه بقوله « أنا يوحنا مندفيل الفارس . . . المولود في انكلترا [٥] ركبت البحر في سنة ١٣٢٢ م في يوم القديس ميخائيل . . . وزرت بلاداً مختلفة . . . وجزراً كثيرة واجتزت بلاد التتار وفارس وأرمينيا الصغرى والكبرى ، وليبيا والعراق وجزءاً كبيراً من اثيوبيا وامازونيا والهند الكبرى والصغرى وجزراً كثيرة حول الهند .. حيث تقطن شعوب متباينة القوانين والعادات والاشكال البشرية » [٦].

ويقدم الينا كتابه بهذه العبارة« ..وقد نقلت هذا الكتاب من اللاتينية الى الفرنسية ثم من هذه الى الانكليزية ليفهمه كل فرد من بني قومي ...وليتمكن كل سيد وفارس وغيرهم من النبلاء الذين لا يعرفون إلاّ القليل من اللاتينية من فهمه ، واذا أوقعني ضعف الذاكرة في خطأ استطاع الذين زاروا البلاد الواقعة وراء البحار أن يصححوا ذلك» [٧]

ولكن المؤرخين ارتابوا في الامرين اللذين تحدث عنهما يوحنا بوضوح . فهم

---

(١) Bliss p. 114

(٢) لهذا الرجل اسماء كثيرة عرف بها هي: Boldensleeve, Baldesel, Boldensel

(٣) اسمه Hodoeporicon . ويرجح ان وليم كتبه باشارة من الكردينال ايلي (Elie) الذي كان البابا بندكتوس الثاني عشر قد عهد اليه في الدعوة الى حملة صليبية، فأراد ان يكون بين يديه دليل يعينه على تعرف الاماكن الهامة . والكتاب منشورة له ترجمة انكليزية في مجموعة PPTS

(٤) John Mandeville (٥) في سنت البانز (St. Albans)

(٦) Early Travels p. 129 (٧) نفس المكان

ينكرون انهُ انـكليزي ، ويرى بعضهم انه بلجيكي من أهل لياج اسمه يوحنا أوترميز[١] وانهُ انتحل الاسم الآخر ليكسب ثقة معاصريه . أما أسفار يوحنا ومداها فقد شغلت الكتاب أكثر من اسمه وأصله. ذلك ان الاساطير التي يحويها الكتاب وأجيال الناس التي يزعم انه رآها ليس لها وجود . ولعلّ من الحق أن نقرر هنا مسألتين هامتين . الاولى : ان يوحنا وصل الشرق العربي في سياحاته ، ووصف سوريا ومصر وجزءاً من العراق وصف من رأى وسمع . والثانية : انهُ نقل عن مصادر مختلفة اخباراً وقصصاً متنوعة حشاها في كتابه . فقد أخذ عن وليم بلدنزل والامير هيتون الارمني ووليم آدم[٢]، والراهب اودوريك[٣] بوردينون ويوحنا كاربيني وبليني وسولينوس[٤] .

وقد لاحظ رايط ان المؤلف كان في مصر سنة ١٣٤١ م[٥] بدليل ذكره السلطان الاشرف الصغير . وهذا هو التاريخ الوحيد الذي يدلنا على شيء صحيح عن يوحنا (منديفيل)[٦]

واذن فنحن نستطيع ان نعتمد الصور التي أعطانا اياها عن الشرق العربي الى درجة كبيرة . ونستطيع ان نضم المؤلف الى الدعاة الذين حاولوا ايقاظ أوروبا لاعداد حملة صليبيـة لاسترجاع الارض المقدسة[٧] . ومن ثمّ نالت فلسطين من عنايته الحظ الاوفى[٨]

يبدأ يوحنا كتابه بذكر الطريق من المغرب الى القسطنطينية مارّاً بالمانيا وهنغاريا وبلغاريا ثم ينقلنا الى القدس بطريقين — البري[٩] مخترقاً آسيا الصغرى مارّاً بنيقيا ، والبحري[١٠] ومراكزه رودس وقبرص الى صور . ويتناول الطرق الموصلة من سوريا

---

(١) Jean Outremeuse أو Jean Bourgongne. راجع ايضاً Travels p·160 و Ency. Bri· art., Mandeville

(٢) Atiya, Crusades, p. 162 (٣) الظاهر ان اخبار الهند وما اليها اخذها عن اودوريك ثم حشاها بالقصص المختلفة (راجع EB, art Mandeville ورحلات اودوريك في طبعة Everyman's) (٤) Travels p· 160. ويرى الاستاذ نيوتن انه اخذ عن هذين بوساطة فنسنت بوفيه Vincent Beauvé) (٥) Early Travels pp. XXVI,146

(٦) وثمة شبهة في ذلك . وثمة من يرى ان يوحنا زار مصر في زمن الملك المظفر ١٣٤٦—١٣٤٧م (راجع EB, art· Mandeville) (٧) Early Travels pp. 128-9

(٨) Early Travels pp. 137-198 (٩) نفس المكان ص ١٣٧—١٤٣ (١٠) نفس المكان ص ١٥٥.

الى مصر[١] ويحدّثنا عن المدن المصرية وعادات السكان وأخلاقهم [٢] وقوة المماليك الحربية [٣]

***

وممن ماصر يوحنا مندفيل واهب اسمه غيا كومو دي فيرونا[٤]. خرج غيا كومو من فيرونا في السابع من شهر ايار (مايو) سنة ١٣٣٥ م ليؤدي فريضة الحج الى القدس ، فوصل يافا في ٣٠ تموز (يوليو) بعد ان مرّ بكريت وقبرص . وفي ٥ آب (اغسطس) وصل القدس . وهنا يبدأ بوصف الارض المقدسة ويشير الى القرى والمدن المأهولة والمحصنة . ومن القدس ذهب الى جبل سيناء بطريق غزة [٥] ، ثم استمرّ في ترحاله الى القاهرة فوصلها في ٣٠ ايلول (سبتمبر) . وقد وجدها مدينة حصينة منيعة يقيم فيها نحو عشرين الفاً من الجند النظامي لكنهم ينقصهم السلاح الجيد والعدة الكاملة والخيول القوية . ويهتم بالنيل ويظهر قيمته كطريق طبيعي للمواصلات بين القاهرة والاسكندرية . ويزور دمياط ثم يعود منها برّاً الى غزة . ويذكرنا بمناسبة حديثه عن ميناء دمياط بأنها قد تراكمت الاحجار والصخور في مدخلها فحالت دون دخول السفن اليها على نحو ما أصاب موانىء صور وعكاء ويافا وغزة . ويخصص غيا كومو فصلاً للبحث عن الاسلام والنبي ، ويصف اضطرابات شهدها بين غزة والقدس وأخرى حدثت في طريقه إلى الناصرة . ومن الناصرة توجه الى دمشق فبعلبك فصيدا فصور فعكاء فبيروت حيث عاد الى بلاده ، فوصل فيرونا في تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٣٣٥ م .

وكتاب [٦] غيا كومو في جملته دليل للحجاج ودعوة لحملة صليبية . وهو شديد العناية بأوقات الاسفار والازمنة اللازمة لقطع المسافات .

***

والرحالة الآخر الذي ماصر مندفيل هو لودلف فون سوخم[٧] (سودهيم) الذي

---

(١) Early Travels p. 14? (٢) نفس المكان ص ١٩٤—٢٠٠ (٣) نفس المكان ص ١٤٤

(٤) Giacomo di Verona (٥) لعل هذه الطريق لم تكن معروفة للغربيين لمدة طويلة قبله (راجع Atiya, Crusades, p. 166) ، لاحظ ان تيمار سافر الى مصر بطريق شرق الاردن

(٦) Liber Peregrinationis (٧) Ludulf Von Suchem (Sudheim)

قضى خمس سنوات في الشرق ١٣٣٦ — ١٣٤١ م وكتب « وصف الارض المقدسة والطرق المؤدية اليها [١] » في سنة ١٣٥٠ م ، وأهداه الى مطران بادربورن [٢] رفيقه في السفر [٣]

كتب فون سوخم أخبار رحلته بعد اتمامها بعشر سنوات ، فاعتذر عما قد يقع فيه من الاخطاء بأنه يعتمد على فهمه المتواضع وذاكرته الضعيفة . وهو بالاضافة الى ذلك ، يحذّر قراءه من ان يحسبوا انهُ رأى كل مكان وصفه أو زاره بنفسهِ ، انما لخص بعض أنبائه وأوصافه ممن سبقه ، ونقل الروايات التي سمعها من ثقات النقلة

ويتناول فون سوخم في الجزء الاول [٤] من كتابه ، « الطرق المؤدية الى الارض المقدسة » فيصفها باختصار ودقة ، دون أن يغفل أحدها — فالطريق البري الهنغاري الاناضولي ، والبحري من البندقية أو مرسيليا ، والطريق الافريقي البري — كلها مذكورة [٥]

وأما الجزء الثاني ، فيمكن اعتباره قسمين : أولها [٦] يشمل ذكر الاماكن المقدسة واحداً واحداً بالتفصيل . وثانيهما [٧] يتناول فيه فون سوخم البلاد المقدسة وما جاورها من بلاد المشرق من الناحية الجغرافية [٨] والتاريخية والاجتماعية . فيتحدث عن الطوائف النصرانية المختلفة كاللاتينية والسريانية واليونانية والارمنية والمارونية وغيرها ، ويخصص جزءًا من كتابه للتحدث عن الاسلام . لكنه يخلط بين التاريخ الحق والقصص والشائعات خلطاً كبيراً ، كأنه يدوّن كل مايصل الى سمعه .

---

(١) Description of the Holy Land and the Way Thither وهو منشور في PPT. Vol· VI

(٢) Paderborn (٣) يرى ستيوارت ان فون سوخم قد اوفد الى الشرق في مهمة سياسية « راجع PPT, Introduction p. IV »

(٤) De Itinere Terre Sancte (٥) والطرق البحرية تنتهي في مصر وسوريا بواحدة من الموانىء التالية — الاسكندرية وطرابلس وبيروت وجبيل ويافا وصيدا وصور وعكاء (PPT, p 45) . ولعل سوخم رتبها بحسب اهميتها

(٦) De Liter Locurum Terre Sancta (٧) Descriptio Geographica et ethnoca

(٨) يعتبر روبنصن رحلة فون سوخم خير الرحلات التي وصلتنا من القرن الرابع عشر « راجع Robinson, Palestine 1, XXIII و PPT Intro· p. VIII »

كما انه يخطىء في فهم العلاقة بين الكنائس المختلفة والبابوية [1]

***

اما اسحق بن يوسف بن شلو فقد ولد في اراغون بأسبانيا[2]. وفي سنة ١٣٣٣ م هاجر الى القدس مع أسرته وأقام هناك ، وفي سنة ١٣٣٤ م بعث الى أبيه وأصدقائه بكتاب فيه وصف مختصر للقدس وأتبعه بوصف مفصل للطرق التي تصل القدس بأمهات المدن الفلسطينية حتى أطراف البلاد في الشمال والجنوب . وقد اهتم اهتماماً خاصاً بأمرين . أولهما : اليهود في فلسطين فأشار الى الاماكن الموجودين فيها وأعمالهم. وثانيهما : علاقة المدن والقرى بالحوادث الوارد ذكرها في التوراة وأخبار أئمة اليهود ومشهوري رجالهم

يتحدث اسحق اولاً عن ابواب القدس ثم يعدد الابنية العجيبة في المدينة المقدسة ، وهي في نظره برج داود وقصر سليمان وقبر النبية هلدا وقبور الملوك وقصر الملكة هيلانة وباب حطة والباب الغربي

وبعض هذه لم يكن قائماً في زمن الكاتب ، ولكنهُ آثر ذكره احياءً لتاريخ جماعته ، مثل قصر سليمان ، فانه يقول عنه « ان مكانه اليوم تقام فيهِ سوق كبيرة » . والملكة هيلانة يقول عنها انها جاءت القدس واعتنقت اليهودية (؟) وان قصرها يقطنه اليوم القاضي ومستشاروه . ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة اننا لا نجد ذكراً لقبة الصخرة أو المسجد الاقصى أو كنيسة القيامة فيما كتبه اسحق عن القدس

والجماعة اليهودية في القدس كانت موضع عناية اسحق فقال عنها « والطائفة اليهودية في القدس مكونة من آباء عائلات جاءت من كل أجزاء العالم خصوصاً من فرنسا . وزعماء الطائفة وكبار حاخاميها جاءوا من المملكة الاخيرة ... ويعيش اليهود هنا بسعادة وطمأنينة ، كل بحسب وضعه وموارده ، وذلك لأن الحكومة عادلة . . . وكثيرون من أفراد الطائفة يعملون في الصناعة كالدباغة والخياطة وصنع الاحذية وغير ذلك ، وغيرهم يعملون في التجارة ولهم حوانيت أنيقة ، وبعضهم منصرف الى

---

(١) لقد اعتمد بيترو دي بنا « Pietro di Penna » على فون سوخم لما ألف كتابه « Libellus de Locis Ultramarinis » راجع Atiya, Crusades p. 172

(٢) راجع Adler Intro. pp. XVIII-XIX

الاشتغال بالعلوم كالطب والفلك والرياضيات . لكن الفريق الأكبر من علمائهم يصلون آناء الليل بأطراف النهار في دراسة الشرع المقدس والحكمة القبالية . وهؤلاء تنفق عليهم الطائفة »

والطرق التي يعالجها اسحق سبع هي (١) من القدس الى جنوب فلسطين (٢) من القدس الى يافا (٣) من القدس الى نابلس (٤) من القدس الى عكاء (٥) من القدس الى طبريا (وهي تتمة للطريق السابقة) (٦) من طبريا الى صفد (٧) من القدس الى بانياس (دان)[١]

***

وكان بين السياح الايطاليين الذين هبطوا الشرق الادنى في القرن الرابع عشر ليوناردو فرسكوبالدي[٢] الفلورنسي الذي قام بالحج الى بيت المقدس سنة ١٣٨٤ م . بدأ رحلته مع جماعة من الفرنسيين والبنادقة من البندقية فاتجهوا رأساً الى الاسكندرية[٣] حيث حلّ ضيفاً في فندق كونتاديني البندقي . وهناك لقي تجاراً من ايطاليا وفرنسا وقطالونيا وغيرها وانتقل ليوناردو مع صحبه الى القاهرة على سفينة نهرية متبعين في طريقهم ترعة الاسكندرية (المحمودية اليوم ؟) ، ثم رياح رشيد من النيل ، ثم النيل نفسه . وقد رأى ليوناردو أموراً كثيرة في مصر أثرت فيه منها ثروة الاسكندرية والملاحة النهرية واتساع القاهرة واستتباب الامن حتى ان الناس يتنقلون بدون سلاح على خلاف ما اعتاده القوم في بلاده

ومن القاهرة سافر ليوناردو مع قافلة الى سيناء وعرج على دير القديسة كاترينا ثم الى فلسطين ، وأخيراً الى بيروت عائداً الى البندقية بطريق قبرص وكريت

***

وبعد ليوناردو ببضع سنوات جاء الى الشرق توماس سوينبورن[٤] سنة ١٣٩٢ م

---

(١) للتفاصيل راجع Adler pp. 130–150

(٢) Lionardo di Nicolo Frescobaldi راجع Heyd Vol. II تحت اسم فرسكوبالدي في الفهرست

(٣) هذه اول مرة وصلنا خبرها تبحر فيها الجماعة الى مصر قبل فلسطين ، وكانت العادة عكس ذلك

(٤) Thomas Swynburne

الذي دوّن رفيقه توماس برغز أخبار رحلته [١] والطريق التي اتبعتها هذه الجماعة هي طريق ليوناردو وجماعته . وليس في أخبار برغز من جديد. لكن الكاتب يُعنى بذكر مواعيد السفر وتاريخه كما انهُ يدوّن نفقات السفرة فيعطينا أسعار الحاجيات وأجور التراجمة ورسوم الجمارك [٢]

***

ونختم بحثنا عن سياح القرن الرابع عشر بسائح افرنسي هو أوجييه (الثامن) دانغلور [٣] جاء اوجييه الى الشرق سنة ١٣٩٦ م، وكان شديد العناية بأسفاره حتى انه لا يكتفي بذكر اليوم وتاريخه، ولكنه يعين حتى الساعة التي يصل فيها بعض الأماكن او يغادرها .

كانت أول مدينة سورية هبطها اوجييه هي بيروت، اذ وصلها في ٢٨ ايلول (سبتمبر) وقضى في سوريا ثلاثة اسابيع أتمّ في خلالها حجه، ونزل في وادي الأردن في نزل بناه السلطان لايواء الحجاج والغرباء . وبعد زيارته للقدس ذهب الى غزة حيث استعد مع جماعته لزيارة جبل سيناء ودير القديسة كاترينا . وفي الطريق لقيتهم قوافل الحجاج العائدين من الحجاز، وكان عددهم عشرة آلاف

وبعد زيارة الدير استأنف اوجييه سيره الى مصر فوصل المطرية في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) وبعد يومين دخل القاهرة . واذ يترك صاحبنا الارض المقدسة تفقد أخبار رحلته ما فيها من الجفاف وتظهر فيها الحياة . فالقاهرة المدينة الكبيرة الواسعة فيها ١٢٠٠٠ مسجد و ٤٠٠٠٠ دكان لبيع اللحم المطهي، وهي كثيرة النافورات الجميلة والميادين الفسيحة ولها قلعة شماء . وقد حاول اوجييه أن يصف الكنائس القبطية القديمة، لكنهُ أخطأ في هذه الناحية نخلط بينها . وسار بعد ذلك مصعداً في النيل وزار الأديرة القبطية في الصحراء العربية . ثم عاد بنفس الطريق الى القاهرة ورحل الى الاسكندرية . ويذكرنا اوجييه بملاحظة ليوناردو عن كثرة التجار الاوروبيين في الاسكندرية . وقد أعجب اوجييه بالمدينة اعجاباً كبيراً . ومن الاسكندرية رحل مع جماعته الى قبرص

---

(١) Itinerarium in Terram Sanctam, راجع AOL, II, Doc. 380-81

(٢) نفس المكان (٣) Ogier VIII d'Anglure

الفصل الثامن

الرحالون في القرن الخامس عشر

في سنة ١٣٩٦ م انكسرت جيوش اوروبا النصرانية في نيكوبوليس ، وهي الحملة التي أعدتها أوروبا لدفع خطر العثمانيين عنها ، ولاسترداد الشرق العربي . وكان أثر هذا الانكسار العسكري كبيراً . فقام عقيب ذلك عدد من الكتّاب يدعون من جديد إلى حملة كبيرة واسعة النطاق . ومن هؤلاء ثلاثة نشملهم في بحثنا عن الرحالين لأنهم ساحوا في الشرق العربي وتركوا لنا صوراً عن نواحي الحياة السياسية والحربية والاقتصادية والاجتماعية ، بالاضافة الى دراسة الخطط التي وضعوها للحملة على البلاد . وهؤلاء هم غلبرت لانوي وبرتراندون دي لا بروكيير وعمانول بيلوتي [1]

***

ولد لانوي في سنة ١٣٨٦ م في أسرة نبيلة . وفي سنة ١٤٠١ م قام سيده [2] بالحج الى الاراضي المقدسة واصطحبه معه . أبحرت الجماعة من جنوة الى فلسطين وزارت دير القديسة كاترينا في سيناء والقاهرة ورودس وقبرص وتركيا وبزنطيـة ، وعاد الحجاج الى أوروبا بعد غياب سنتين

لكن هـذه الزيارة الاولى لم تكف لانوي وظلّ يتحين الفرص للسفر الى الشرق وقد أتيحت له الفرصة سنة ١٤٢٠ م لما عهد اليهِ ملكا انكلترا وفرنسا في السفر الى الشرق

(١) Ghilbert Lannoy, Bertrandon de la Brocquiere, Jean de Warchin (٢) Emanuelle Piloti,

لدراسة أحواله وتقديم تقرير سياسي مفصل عنهُ . فسار في السنة التاليـة الى كافا في شبه جزيرة القرم ومنهـا أبحر الى القسطنطينية فرودس فكنديا (في كريت) فالاسكندرية . ثم سار الى رشيد ومنها ركب النيل الى القاهرة . واتخذ هذه مقرًّا لهُ زار منها سيناء أولاً ثم ديرى القديسين انطونيوس وبولس في الصحراء العربية . ثم أبحر في النيل الى دمياط ومنها بحراً الى فلسطين . وبعد زيارة الاراضي المقدسة عاد الى البندقية بطريق رودس

وقد روى أنباء سفرته في الجزء الأول من كتابه المسمى « أسفار وسفارات »(١). وأما الجزء الثاني فقد خصصه لتعداد الأماكن المقدسة وآثار القديسين وما يحوطها من قصص وأساطير (٢) لكن الجزء الثالث من كتابه هو أهم أجزائه ، اذ أفرده للحديث عن مصر وسوريا (٣) وعرض فيه لقوة المماليك السياسـية والعسكرية ووصف المدن وأسوارها والقـلاع والحصون والطرق . فالاسكندرية ، وهي أول مدينة ذكرها ، يعطينا لها صورة مفصـلة للاسوار والبيوت والمينائين والابراج والحصون والشوارع والسكان ، والفنادق والتجار الاوروبيين . ومثلها القاهرة وقلعتها . هـذا مع العناية بالطريق النيلي من رشـيد الى القاهرة . ثم يتناول لانوي الدولة المصرية المملوكيـة فيحدثنا عن قوة السلطان وتركيز السلطة في يده وكيفية وصوله الى العرش وما يصاحب قتل السلطان أو اغتياله من اضطراب ، وعن الجند وسبيل تجنيدهم وأصلهم ومواكبهم في الحرب والسلم ، وعلاقتهم بسكان مصر الذين لا يدخلون الجيش ولـكنهم يعملون في الارض . ويهتم لانوي بأسلحة الجيش وعدّته وخيوله . ولا يغفل النيل وفيضـانه وأثره في زراعة مصر ومصادر ثروة المماليك التجارية

ثم ينقلنا لانوي الى سوريا ويطلعنا على مدنها الساحلية يافا وعكاء وصور وبيروت ويعطينا وصفاً مفصلاً للقدس لـكنهُ يقتصد في وصفه دمشق . وفي كل هـذا ينتبه لانوي لمواطن القوة والضعف في هذه المدن . لأنه ينظر اليها من الناحية الحربية ، ليرى امكان فتحها (٤)

---

(١) Voyages et Embassades راجع ص ١ — ٤٨ ، ١١٩ — ١٢٩

(٢) نفس المكان ص ٤٨ — ٦٩ (٣) نفس المكان ص ٦٩ — ١١٨ (٤) عاد لانوي سنة ١٤٢٣ الى اوروبا وذهب الى انكلترا ليقدم تقريره لملكها هنري السادس (١٤٢٢ — ١٤٦١ م)

ودي لابروكيير (١) جاء الشرق لأن فيليب الطيب دوق برغندية أوفدهُ في مهمة سياسية . وقد أظهر لنا بروكيير نفسه الغرض من كتابه في المقدمة بقوله « انهُ كتبه ليجذب قلوب الناس الراغبين في رؤية العالم وليرضي سيده دوق برغندية وليقدم المعلومات اللازمة عن البلاد الواقعة وراء البحار لمن تحدثهُ نفسه من ملوك النصرانية وأمرائها بفتح القدس »

أبحر بروكيير في ٨ ايار (مايو) ١٤٣٣ م من البندقية الى يافا ومنها اتجه الى القدس بطريق الرملة . وبعد زيارتها وما حولها ذهب الى سيناء وعاد دون أن يزور مصر (٢) ولكنه تنقل في سوريا مفتح الأذن والعين فوصف مدنها وصفاً مسهباً — يافا وعكاء وصور وبيروت ودمشق وحلب . ونالت الطرق التي تصل المدن السورية بعضها ببعض من عنايته ما نالته المدن نفسها . ولفتت نظره ثروة دمشق وتجارتها وتجارها الاجانب من الفرنسيين (٣) والجنويين (٤)

ويغادر بروكيير سوريا الى أرمينيا ويجتاز آسيا الصغرى الى بروصة حيث يقضي عشرة أيام في ضيافة تاجر جنوي أنزله في فندق فلورنسي . وهذا يتيح له فرصة لزيارة المدينة زيارة وافية فيطلع على الكثير من شؤونها التجارية التي منها بيع الحرير والجواهر واللؤلؤ والرقيق . ثم يجتاز البوسفور عائداً الى بلاده بعد أن يقضي ردحاً من الزمن في القسطنطينية وفي أقطار جنوب شرقي أوروبا فيصل فرنسا سنة ١٤٣٩ م

ويختم بروكيير كتابه بالحديث عن قوة الاتراك العسكرية وخططهم الحربية وسلاحهم وعدتهم ويعرض لحملة نيكوبوليس ويحلل أسباب فشلها

والنتيجة التي نصل اليها هي أن بروكيير لم يشجع على حملة ضد الاتراك ، هذا اذا

---

(١) اخبار دي لابروكيير منشورة في Early Travels pp. 283-383

(٢) يرى الدكتور عطية ان بروكيير عهد اليه في زيارة الشرق العربي دون مصر « راجع Atiya, Crusades p. 198 » ونحن نوافقه ، خصوصاً متى لاحظنا الدقة التي وصف بها لانوي مصر . ولانوي اعتمده فيليب الطيب ايضاً . فلعل الرحالين اقتسما الشرق العربي فيما بينهما

(٣) مثل جاك كور (٤) مثل جنتيل الذي كان في طريقه الى كافا لابتياع رقيق للسلطان « راجع Early Travels p. 293 »

لم نقل انهُ نهى عنها . لكن ذلك لم يعجب فيليب الذي ثابر على تأليب البلاطين الفرنسي والانكليزي ضد الأتراك

ويعنى بروكيير بذكر ما يعرض له مفصلاً ، ولذلك نحصل منهُ على وصف للمجتمع الشرقي في أوائل القرن الخامس عشر . فهو يحدثنا عن نزوله في ميناء يافا [١] ومرضه في طريقه الى سيناء [٢] وسجنه في دمشق [٣] وعودة قافلة الحج من الحجاز الى دمشق [٤] وشرائهِ للثياب العربية استعداداً لمرافقته لهذه القافلة الى شمال سوريا [٥] ويذكر المِمْطَر من اللباد الذي ابتاعه في حماة [٦] .

***

أما ثالث الدعاة بيلوتي [٧] فقد كان كريتي الأصل لكنهُ قضى في الشرق نحواً من خمس وثلاثين سنة كان في أولها قنصلاً تجاريًا لجنوة في الاسكندرية ثم التحق بخدمة البنادقة . ولما انتصر الاتراك في معركة نيكوبوليس أرسل الملك العثماني مئتين من أسرى الاوروبيين هدية الى السلطان المصري (سيف الدين برقوق) [٨] وقد رآهم بيلوتي وتحدث اليهم فأحزنهُ ذلك وأحفظه على الاتراك ، لذلك لما رأى الفرصة المناسبة تقدم بكتابه [٩] ليرشد رؤوس اوروبا الى الطريقة العملية التي يتمكنون بها من الثأر لنيكوبوليس واسترداد الارض المقدسة وبقية الشرق

يعالج بيلوتي الشروط والصفات الواجب اجتماعها في قائد الحملة الصليبية، ثم يشير بوجوب توجيه الحملة ضد مصر لا ضد فلسطين أولاً ، ليتسنى للمحاربين احتلال الاسكندرية ثم القاهرة ومن ثمَّ القضاء على الرأس . لذلك يصف بيلوتي الطريق من الاسكندرية الى القاهرة بإسهاب . ولعلهُ أراد أن يبعث الطمأنينة الى نفوس الاوروبيين فأشار الى أمرين يجعلان احتلال مصر ميسوراً . الاول : حكومة السلطان

---

(١) Early Travels p. 286 (٢) نفس المكان ص ٢٩٠ — ٢٩١
(٣) Early Travels p. 307 وقد انقذه تدخل قنصل البندقية مع حاكم دمشق
(٤) نفس المكان ص ٣٠١ — ٢ (٥) نفس المكان ص ٢٩٩ — ٣٠٥
(٦) نفس المكان ص ٣١١ (٧) نشر كتابه سنة ١٤٤٠
(٨) حكم برقوق من سنة ٧٨٤ — ٨٠١ هـ — ١٣٨٢ — ١٣٩٨ م
(٩) De Modo, Progressu, ordine ac diligenti providentia habendis in passagio christianorum pro conquesta terrae Sanctae

السيئة . والثاني : ما قد يقوم بين الامراء من الخصومات والمذابح. وذكر بيلوتي جند مصر وقدّره بأنهُ سبعة أو ثمانية آلاف فارس من المماليك يملكون نحو عشرة آلاف الى خمسة عشر الفاً من الابل والبغال للحمل ونحو الفين من الخيل . وأضاف الى ذلك حرس السلطان لكنهُ لم يذكر عددهم

وبيلوتي يرى انهُ من الضروري أن يلاطف الاوروبيون أهل الشرق متى احتلوا بلادهم لأنهُ اعتقد ان ذلك يحملهم على اعتناق النصرانية !

ومع ان الكتاب الذي بين أيدينا كتاب دعاية عسكرية ، فان فيه من المعلومات الاقتصادية ما يجعلهُ جليل النفع للباحث في التاريخ الاقتصادي في تلك العصور . فهو من هذه الناحية تتمة لما كتبه مارينو سنودو [١]

ونحن واجدون بالاضافة الى هؤلاء السياح السياسيين والدعاة جماعة من الرحالين والحجاج الذين قاموا بزيارة الشرق عامة وفلسطين خاصة بقصد الحج . ومن هؤلاء يوحنا بولونر ، وبيرو تفور ، ووليم واي ، وفيلكس فابري ، وبريتنباخ [٢]

***

كان يوحنا بولونر المانيّا على مايرى طوبلر وبولونيّا على رأي الكونت ريان . زار سوريا ١٤٢١ — ١٤٢٢ م، ويلاحظ ستيوارت [٣] ان الاماكن التي رآها بولونر تتفق مع الأماكن التي زارها فابري بعده بأكثر من نصف قرن . ولعل بولونر أول سائح رسم خارطة للاراضي المقدسة قسم فيها البلاد الى مربعات كثيرة العدد [٤]

ولم يصف بولونر كنيسة القيامة بالقدس مع انهُ عني بالكنائس ، ولذلك يعتقد بعض الباحثين ان جزءاً مما كتبه قد فقد [٥] . وعلى كل فليس في الكتاب معلومات جغرافية أو اجتماعية تزيد معرفتنا بالبلاد في ذلك الوقت . أما الكنائس وأماكن الزيارة فشروحة مرتبة ، ولذلك فان المؤرخ الذي يعنى بهذه الناحية يجد عند بولونر بعض حاجته

***

وبيرو تفور اسباني، ولد في قرطبة حول سنة ١٤١٠ م والراجح انه زار الشرق

---

(١) Atiya, Crusades p. 211

(٢) John Paloner, Pero Tafur, William Wey, Felix Fabri و Von Braitenbach

(٣) PPT Introduction p. IV (٤) كان في الخارط ٨٣ خطاً عرضياً و ٢٨ خطاً طولياً (٥) PPT Introduction P. V

بين ١٤٣٥ و ١٤٣٩ م . وكان ابحاره الى فلسطين من البندقية ونزل في يافا . ويحدثنا تفور انهُ زار الاماكن المقدسة عند النصارى في القدس ويصفها، لـكنه بالاضافة الى ذلك تمكن من الدخول الى المسجد الأقصى متخفياً. ويعود الى يافا ويبحر الى بيروت[١] ثم الى قبرص فدمياط [٢] ومنها الى القاهرة في النيل . ويقيم شهراً في العاصمة المصرية فيرى ما فيها ، ويترك لنا وصفاً للحياة اليومية في مصر . ويمنحه السلطان [٣] اذناً في زيارة سيناء ويصحبه أحد أعوانه مع ثلاثة من الابل تحمل حاجياته. ويروي تفور انهُ أثناء اقامته في دير القديسة كاترينا وصل الى الدير نيكولو دي كونتي [٤] البندقي عائداً من الشرق الاقصى ومعه متاجر من جميع الاصناف من التوابل واللآلىء والأحجار الكريمة والذهب والعطور والأقمشة والببغاوات والقطط من الهند . . . وقد كانت الاحمال كثيرة حتى ان تفور أبى أن يذكر عدد الابل . حتى لا يتهم بالمبالغة . وتدور بين الاثنين أحاديث يظهر منها تفور رغبته في زيارة الشرق الاقصى لـكن نيكولو يقنعه بالعدول عن ذلك . ويرجع الاثنان معاً الى القاهرة ثم يبدأ تفور سفرة طويلة عائداً الى ايطاليا ، فيمر بالاسكندرية ودمياط وقبرص ورودس والقسطنطينية وأدرنة وطرابزون وكافا والبندقية وقد زار تفور فيأدرنة بلاط السلطان العثماني مراد الثاني ١٤٢١ — ١٤٥١ م ووصف جيش السلطان وعرض للاتراك فوفاهم حقهم إذ وصفهم بالشجاعة والامانة والاحسان

* * *

أما وليم واي فانكايزي [٥] تخرج في اللاهوت وعمل في اكسفورد [٦] . وفي سنة ١٤٥٧ م سمح له ملك انكلترا بالحج ، فقام بزيارة القدس لأول مرة في السنة التالية ، وفي سنة ١٤٦٢ م زارها للمرة الثانية

وليس فيما تركه واي من جديد إذا نحن نظرنا في الناحية الجغرافية والسياسية ، لكننا عندما نتقصى جهات الحياة العامة نرى ان واي جاءنا بالجيد عن أمور ثلاثة :

---

(١) كان ينوي الذهاب الى دير القديسة كاترينا في سيناء ، لـكنه تأخر عن القافلة فذهب الى بيروت (٢) استطاع وهو مقيم في نيكوسيا « قبرص » ان يحصل من السلطان على الاذن في زيارة مصر (٣) هو الاشرف سيف الدين برسباي (٤) Nicolo de Conti (٥) يرجح انه من ديفونشير (٦) في كلية اكستر اولاً ثم في كلية ايتون لما انشأها هنري السادس ١١ تشرين اول (اكتوبر) سنة ١٤٤٢م

أولها ، انه ذكر أنواع النقد المستعمل في البلاد التي زارها وعلاقتها بعضها ببعض[١]. وثانيها ، انه أعطانا أسعار المآكل[٢]. وثالثها ، انهُ ذكر المسافات بين مدن اوروبا الرئيسية [٣] وقد اضطرَّ واي الى الاكتفاء بزيارة القدس . فلم يزر وادي الاردن وامتنع عن الذهاب الى مصر أو بقية سوريا بسبب ما كان عليه المماليك من خصومة وحروب فيما بينهم وبسبب هجوم الاعراب من الشرق [٤]

وقد ترك واي أخبار رحلته الى الارض المقدسة [٥] في كتاب اسمه Itineraries of William Wey ذكر فيه الاماكن المقدسة بشعر انكليزي ثم ذكرها منظومة شعراً لاتينيّـا. وقد غادر واي البندقية في المرة الاولى في ١٨ ايار (مايو) فوصل يافا في ١٨ حزيران (يونيو) وقضى في القدس المدة الواقعة بين ٢٤ حزيران و٢ تموز (يوليو) وكانت سفرته الثانية أطول مدة بين البندقية ويافا ، لكنهـا كانت في الصيف أيضاً . وفي هذا الجزء من كتابه يذكر واي الاماكن التي يمر عليهـا ذكراً عاديًّـا لامعلومات فيه ولا صور للحياة

ويتبع هذا الفصل بمجموعة من الكلمات اليونانية [٦] يذكرها لمصلحة المسافرين

ويعرض واي لمسائل شغلته كثيراً في رحلته الثانية [٧] منها انقطاع النور المقدس وغير ذلك، لكنهُ لايترك القدس إلاّ وقد حلها حلاًّ يرضي نزعاتهِ الروحية ، فيغادر المدينة قرير العين

ويذكر الكاتب أسماء المدن والقرى في فلسطين والمسافات بينها [٨]

ورسم واي خارطة لفلسطين تمتد من دمشق الى بئر السبع ومن صيدا الى غزة وضع فيها أسماء المدن ثم صوَّر فيها المباني الكبيرة بالألوان وأضاف صوراً لبعض الشخصيات التي لها بها علاقة تاريخية ولبعض الحوادث المرتبطة بحوادث العهد الجديد ففي كفر كنا مثلاً صور الاجران[٩].

---

(١) Itineraries pp. 1—3 (٢) Iti. pp. 4-7 (٣) Itinerarie pp. 79-81

(٤) يروي واي ان هذا الهجوم كان قويا حتى ان اهل اريحا انفسهم هاجروا الى القدس « راجع ايضاً المقدمة ص ٢٠ — ٢٥ »

(٥) لم يذكر الكاتب رحلة ثالثة الى فلسطين . والرحلة الثالثة المدونة اخبارها في كتابه هي رحلة الى يوحنا دي كومبستلو في اسبانيا

(٦) It. pp. 102-116, 140-2 (٧) نفس المكان ص ١٢٦ وما بعدها (٨) نفس المكان ص ١٣٢—١٤٠. (٩) It. Introduction p. XVI

لكن الرحالة الذي ترك لنا أخباراً عن الشرق العربي في القرن الخامس عشر من درجة تستحق العناية والتقدير ، هو فلكس فابري ، راهب الم [١]. زار فابري الشرق مرتين سنة ١٤٨٠ و١٤٨١م، وبعد عودته من الزيارة الثانية استقرّ في ديره في الم وكتب أخبار أسفاره [٢] ورحلاته بأمانة الراهب العالم ، وتفصيل الرحالة القوي الملاحظة ، ودقة الحريص على كل شاردة وواردة . ونقل أخبار ما لم ير من البلاد من مصادر وثق بها ورحالين سابقين ، مثل فون سوخم وبركارد . ومن ثمّ كانت الصورة التي يعطينا إياها عن الارض المقدسة في آخر القرن الخامس عشر تكاد تكون كاملة

بدأ فابري وصحبه الرحلة من البندقية ونزلوا في يافا وكانت سفرتهم مليئة بالأنباء المروعة عن تقدم أسطول محمد الثاني الفاتح في شرق البحر الابيض المتوسط الى رودس وما جاورها من الجزر مما أرعب المسافرين لكنهُ لم يحملهم على العودة . وفي هذه المرة اكتفى فابري برؤية الارض المقدسة سنة ١٤٨٠ م

أما في سفرته الثانية سنة ١٤٨٣ — ١٤٨٤ م فقد تنقل فابري في مصر وسوريا . يبدأ أخباره بذكر ما يجب أن يكون عليه الحاج من المظهر اللائق بهِ من حيث الثياب واللحية . وينقل لنا الاتفاقية التي عقدها الحجاج مع ربان السفينة البندقي ، ثم يكتب مذكرات يومية عن كل ما يرى ويفعل ، من أول الرحلة الى آخرها ، فهو يصوّر أخطار البحر والحياة في السفينة وعلاقة الركاب بعضهم ببعض وأسباب التسلية وغير ذلك فاذا وصل يافا صوّر لنا نزول القوم الى البر. وفي فلسطين يحتل كل من الأماكن المقدسة مكانه في مذكرات فابري خصوصاً ماكان في القدس أو حولها

وبعد أن يورد فابري خلاصة لتاريخ القدس [٣] يذكر الشعوب التي تقطن الاراضي المقدسة ومذاهبها [٤] وأقواله عن الاسلام أقرب الى الصواب من أقوال كثيرين ممن سبقه . ولفابري ملاحظات نفيسة عن المماليك وحكمهم وعلاقتهم بالشعب

وبعد الفراغ من التنقل في الارض المقدسة انتقل فابري وصحبه الى دير سيناء ثم الى القاهرة « أكبر مدينة في الدنيا » ، ومنها الى الاسكندرية بالنيل . وكانت هذه آخر مدينة شرقية زارها فابري ، فقد عاد منها الى أوروبا

---

(١) Ulm (٢) ملشورة في ترجتها الانكليزية في PPT Vol. VII—X

(٣) استقاها ممن سبقه من الكتاب من يوسيفوس الى فون سوخم (راجع Vol IX, pp· 262-84 (٤) Vol X pp· 384-94

ونرى انهُ من الواجب علينا أن نشير الى أن فابري كان لا يؤمن باعداد حملة لاسترداد الارض المقدسة . « لا يعنى النصارى (في الغرب) اليوم بحكم المسلمين في القدس إلا قليلاً . وكل ما يهمنا هو ان يسمح لنا بحرية الوصول الى كنيسة القبر المقدس ، دون أن نخشى شيئاً أو نزعج أو نحمل على دفع المال الكثير » . ويلاحظ الدكتور عطية ان هذه الفكرة كانت سائدة في اوروبا ، وانها تبين اتجاهاً جديداً في الخصومة الطويلة بين الشرق والغرب (١)

***

وثمة رحالان آخران زارا الشرق العربي في أواخر القرن الخامس عشر هما ميشولم ابن مناحم وعوبديا جاريه(٢)

. زار ميشولم الشرق العربي في سنة ١٤٨١ م . وصل الاسكندرية من رودس يوم الاربعاء في ٦ حزيران (يونيو) وغادر بيروت الى ايطاليا في ٩ ايلول (سبتمبر) ، فيكون قد قضى فصل الصيف بكامله متنقلاً بين الاسكندرية والقاهرة وغزة والخليل والقدس ويافا وبيروت ودمشق . وميشولم دقيق الملاحظة شديد العناية بالتعرف على الاشخاص والأماكن ، يصف ثياب النـاس ، وأكلهم وعاداتهم وعقائدهم ومدنهم وأسوارها وأسواقها وشوارعها . وتمتاز أخباره بالصبغة الشخصية التي تكسو حركاته وتنقلاته . فهو يصف حفلات القاهرة وكيف تجنب الشرب فيهـا (٣) ويوضح كيف وصلت اليه المعلومات عن عدد سكان مصر القديمة (٤) ويلفت نظر بني قومه الى الفائدة التي تعود عليهم من التزيي بزي تجار المسلمين مع القوافل الكبيرة(٥) ويقص علينا أخبار المؤامرة التي دبرت ضده وضدّ رفيقه بين الخليل والقدس(٦) ويحدثنا عن الآلام التي كانت تنتابه والاوجاع التي أحسّ بها (٧) ويروي كيف تخفى بزي تجار الافرنج حتى

---

(١) تعمدنا اغفال بريتنباخ في هذه المناسبة لان خير ما تركه هو صور خارطة لفلسطين ، ومن ثم فهو حري بأن يكون موضوع عناية الباحث في تطور خارطة فلسطين . راجع بحثاً عنه في ZDPV, Vol XXIV (1901) pp. 129-136

(٢) Meshullam b. R. Menahem و Obadia Jaré (٣) Adler p. 169

(٤) نفس المكان ص ١٦٦ — ٧ (٥) نفس المكان ١٧٧ — ٨ (٦) ص ١٨٧ — ٨

(٧) ص ١٩٦ و ١٩٧

يسمح له بالسفر في السفينة بين يافا وبيروت وكيف صانع الاشراف الالمان والفرنسيين فيها [١]

وقد أشار عوبديا الى ميشولم بقوله عنه انه تاجر[٢] ولعلّ هـذه الاشارة ترجع الى رحلة ثانية لميشولم

***

جاء عوبديا الى القدس سنة ١٤٨٧ م واستقرّ بها الى وفاته سنة ١٥٠٠ م . كتب الرسالة الاولى الى أبيه ووصف فيها سفره من ايطاليا (أبحر من نابلي) الى الاسكندرية بطريق جزر الارخبيل اليوناني ، والاسكندرية والقاهرة والحياة اليومية فيهما ثم انتقل الى القدس بطريق الصالحية والعريش وغزة والخليل وبيت لحم وتحدث عن اليهود في الاماكن المختلفة وبيت المقدس بشكل خاص وعن الضرائب وغير ذلك . وكان تاريخ الرسالة الاولى ٨ ايلول (سبتمبر) ١٤٨٨ م . ثم كتب رسالتين أخريين واحدة الى أخيه وأخرى الى تاجر عظيم اسمه عمانويل شاي [٤] كان عوبديا قد أودع عنده أمواله ليتاجر له بها ويبعث اليه بأرباحها . ورسالة عوبديا الى أخيه طريفة من حيث انه يخبره فيها انه تلقى مئة دوكة[٥] من عمانويل ، دفع منها عشراً للسفينة التي استقلها من ايطاليا الى القدس وعاش هو بالتسعين الباقية مقتنعاً . ومعنى هذا ان عوبديا كان يعيش على حوالي سبعة عشر جنيهاً في السنة

---

(١) Adler ص ١٩٧—٨ (٢) نفس المكان ص ٢١٥ (٣) نفس المكان ص ٢١٣ تعليقة «٢»
(٤) Adler p. 249 note 14 (٥) هذا التقدير مبني على أساس ان الدوكات كانت فضية لان عوبديا يستعملها في مناسبات مختلفة . والدوكة الفضة تساوي نحو ١٩٠ ملا (١٩٠ فلساً او ١٩٠ مليما)

القسم الثاني

صور للحياة في الشرق العربي

مقتبسة من رحالي العصور الوسطى وهو سبعة فصول

الفصل الاول

الشرق العربي عند المقدسي وناصري خسرو

١ — المقدسي

﴿الشام﴾ والتجارات به مفيدة ، يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والفوط — ومن بيت المقدس الجبن والقطن وزبيب العينوني والدوري غاية والتفاح وقضم قريش الذي لا نظير له والمرايا وقدور القناديل والآبر — ومن اريحا نيل غاية — ومن صغر[1] (زغر) وبيسان النيل والتمور — ومن عمان الحبوب والخرفان والعسل — ومن طبرية شقاق المطارح والكاغد وبز — ومن قدس ثياب المنيرة والبلعيسية والحبال — ومن صور السكر[2] والخرز والزجاج المخروط والمعمولات — ومن موآب قلوب اللوز — ومن بيسان الرز — ومن دمشق المعصور والبلعيسي وديباج ودهن بنفسج دون الصفريات والكاغد والجوز والقطين والزبيب — ومن حلب القطن والثياب والاشنان والمغرة — ومن بعلبك الملابن . ولا نظير لقطين وزيت الانفاق ، وحوارى ومبازر الرملة ، ولا لمعنقة وقضم قريش وعينوني ودوري وترياق وترذوغ وسبح بيت المقدس . (المقدسي ١٨٠ — ١٨١)

---

(١) ذكر المقدسي ايضاً ألبان زغر التي تباع بكثرة في القدس ، وكذلك ألبان عمان . المقدسي ص ١٧٥ و١٨٠) (٢) راجع ايضاً دي فتري ص ٢٨ و ٣٠

﴿ اليمن ﴾ عدن بلد جليل عامر آهل حصين خفيف ، دهليز الصين وفرضة اليمن وخزانة المغرب ومعدن التجارات ، كثير القصور مبارك على من دخله مثر لمن سكنه مساجد حسان ومعايش واسعة . (المقدسي ٨٥*)

ولما ركبت بحر اليمن اتفق اجتماعي مع ابي علي الحافظ المروزي في الجلبة ، فلما تأكدت المعرفة بيننا قال لي قد شغلت والله قلبي قلت بماذا قال أراك رجلاً على طريق حسنة تحب الخير وأهله وترغب في جمع العلوم وقد قصدت بلاداً قد غرّت كثيراً من الناس وصدّتهم عن طريق الورع والقناعة وأخشى ان أنت دخلت عدن فسمعت ان رجلاً ذهب بألف درهم فرجع بألف دينار وآخر دخل بمائة فرجع بخمسمائة . . . طلبت نفسك التكاثر ،قلت أرجو ان يعصم الله . فلما دخلتها وسمعت أكثر مما قال غرني والله ما غرّ القوم وعملت على الذهاب الى ناحيـة الزنج وآتيت ما ينبغي أن يشترى وتقدمت فيه الى الوكلاء فبرّد الله عزّ اسمه ذلك على قلبي بموت شريك كنت عاقدته وكسرت نفسي بذكر الموت وما بعده . (المقدسي ٩٧)

وأكثر ما يوقدون مصابيحهم بالصيفة وهو دهن السمك يحمل من مهرة ونورتهم سوداء مثل الماخالقة . وباليمن يلزقون الدروج ويبطنون الدفاتر بالنشا — (المقدسي ١٠٠)

﴿ المكوس ﴾ والضرائب والمكوس يؤخذ بجدة من كل حمل حنطة نصف دينار وكيل من فرد الزاملة وعلى سفط ثياب الشطوى ثلاث (كذا) دنانير ومن سفط الدبيقي ديناران وحمل الصوف ديناران (المقدسي ١٠٤)

﴿ أهل بغداد ﴾ من رسومهم التجمل والتطليس . يكثرون التنعل وتسطيل العمائم ولبس الشروب . أقل ما يقورون الطيالسة . واذا كان بوقت حمل التمر الحديث الى واسط نظر اول سفينة تصل فيزين لها ذلك البيع الشط الى دكانه بالانماط والستور وللهر امين مواضع فوق دكاكينهم فيهـا الحصر والموائد والمري وخدام وطشوت وأباريق واشنان فاذا انحدر الرجل دفع دانقاً

واذا كان أول البنفسج داروا به في الأسواق وتجملوا عليه ، وعلى أبواب الجامع مياضيء بالكرى — (المقدسي ١٢٩)

٢ — مصر كما رآها ناصري خسرو

القاهرة مدينة كبيرة . . . وأقدّر ان بها ما لا يقل عن عشرين الف حانوت كلها ملك للخليفة ومنها عدد كبير يؤجر واحدها بمقدار عشرة دنانير مغربية بالشهر وليس فيها ما يؤجرْ بأقل من دينارين

وفنادقها وحماماتها وسائر أبنيتها العامة كثيرة بحيث لا يمكن إتعدادها وكلها ملك للسلطان . . . وقد روى لي ان بالقاهرة ومصر (أي الفسطاط) عشرين الف منزل يملكها الخليفة ويؤجرها مشاهرة ... وقصره يتوسط القاهرة . . . (ناصري خسرو ١٢٧)

وقد قدر المهندسون سعته بقدر مدينة ميافارقين كلها... وفيه من الحراس الف رجل ... ومن الخدم ١٢٠٠٠ . . ويؤكد البعض انْ سكانه يبلغون ٣٠٠٠٠ نسمة (ناصري خسرو ١٢٨)

وماء الشرب يؤخذ من النيل ويحملهُ السقاؤون على جمال يبلغ عـددها اثنين وخمسين الفاً ... ويحمل الرجال القرب حيث يتعذر على الجمال الدخول ...

وتفصل المنازل بعضها عن بعض داخل المدينة بساتين وحدائق غناء

وكان أيام اقامتي بالقاهرة ان أجر المنزل العادي ذي الأربع طبقات بأحد عشر ديناراً بالشهر . والمنزل الذي أقمت فيه كانت ثلاث طبقات منهُ مأهولة ، فطلب مني صاحبه خمسة دنانير مغربية في الشهر أجرة الطابق الرابع (ناصري خسرو ١٣٢)

وتبعد مصر أقل من ميل عن القاهرة ، في اتجاه الجنوب والارض بينهما مغطاة بالحدائق التي يغمرها ماء النيل في الصيف (فصل الفيضان) ، عدا حديقة الخليفة فانها تقع على مكان مرتفع (ناصري خسرو ١٣٦)

﴿ الفسطاط ﴾ في مصر (الفسطاط) بيوت من أربعـة عشر دوراً وبعضها من سبع طبقات . وقد سمعت ممن يوثق به ، ان ثمة رجلاً أنشأ حـديقة على سطح بيت ذي سبعة أدوار ... وغرس فيها البرتقال الحلو والموز وغيرها من الاشجار المثمرة والرياحين والزهور . . . وفي مصر دور كبيرة للتأجير تتسع الواحـدة منها لثلثمائة وخمسين شخصاً . . . وبعض أسواق مصر وشوارعها تضـاء فيها المصابيح باستمرار

وذلك لأنها مسقوفة فلا يصل اليها نور الشمس . (ناصري خسرو ١٤٦)

ينتقل التجار والسماسرة في مصر بين البيت والسوق على حمر ذات سروج جميلة ، يرى المرء عدداً كبيراً منها عنـد مداخل الشوارع والاسواق . وأجرة الحمار قليلة . وفي مصر نحو من خمسين الف حمار للتأجير . وركوب الخيل مقصور على الجنـد والأشخاص المنتمين الى الجيش . (ناصري خسرو ١٥٤)

﴿ ثروة مصر ﴾ وتصنع في مصر كل أنواع القيشاني فتصنع المزهريات والكؤوس والصحون وغيرها من الأوعية وتزخرف هذه بألوان تشبه تلك التي تلوّن بها أقمشة الابوقلمون ، بحيث تتغير انعكاساتها بتغير المكان الموضوعة فيه المزهرية . وتصنع فيها كؤوس شفافة صـافية كأنها الزمرد وتباع بالدرهم (وزناً) بحيث يبلغ ثمن الدرهم الواحد منها ، على ما روى لي الثقة ، ثلاثة دنانير مغربية . (ناصري خسرو ١٥١)

والبيع في مصر بالسعر المحدد ، فاذا غشّ بائع شهّر بهِ على جمل

والبائع ، سواءٌ في ذلك البقال أو العطار أو بائع الخردوات ، يعنى بوضع ما يبيعه في الوعاء المناسب له سواء أكان ذلك كأساً أو آنية أو ورقة ، فلا يضطر المشتري الى تحضير الوعاء .

ويستخرج من بذر الفجل واللفت زيت يسمى الزيت الحار . والسمسم ليس كثيراً في مصر وزيته غالٍ والتجارة بزيت الزيتون مرابحها كبيرة . (ناصري خسرو ١٥٣)

رأيت في مصر خاناً اسمه دار الوزير تقوم فيه تجارة القصب . ففي الطبقة السفلى منه الخياطون وفي الطبقة العليا العمال ، فسألت الامين عليه عن أجرته فقال انها كانت عشرين الف دينار في السنة لـكنها الآن اثنا عشر الفاً لأن جزءًا منهُ متهدم . وقد أكد لي العارفون ان بمصر عشرة خانات بعضها مثل هـذا وبعضها أكبر منه . (ناصري خسرو ١٥٦)

كان ابن سعيد وابنه وأخوه من كبار الاغنياء ، بحيث ان ثروتهم لا يعلمها الا الله . وقد روى ان ابن سعيد عمل على سطح داره حديقة فيها ثلثمئة اصيص من الفضة ، غرس في كل منها شجرة مثمرة . (ناصري خسرو ١٦٠)

لست أعرف بلداً آخر يستمتع بالطمأنينة على نحو ما تستمتع بها بلاد مصر . رأيت نصرانيـاً من كبار المثرين في مصر ، لا يعرف احد ما له من السفن ولا يحصي

ارزاقه أو أملاكه . دعاه الوزير مرة اليه وسأله عن كمية القمح التي يمكنه بيعها أو هبتها للسكان ، لأن المحصول كان رديئاً ، وقد أهم الخليفة ما يعانيه شعبه من الفاقة . فأجاب الرجل بأنه عنده من القمح ما يكفي مدينة مصر ست سنوات . (وعدد سكان مصر كان عندها خمسة أضعاف سكان نيسابور) ، ومع ذلك فلم يخش الرجل على ثروته ولم يخف مصادرتها لأنه مطمئن الى عدل الخليفة ووزيره (ناصري خسرو ١٥٥)

﴿ الجوامع ﴾ تقام صلاة الجمعة في القاهرة في أربعة جوامع . الاول : الجامع الازهر . والثاني : جامع النور . والثالث : جامع الحاكم . والرابع : جامع المعز . (ناصري خسرو ١٣٤)

وتنفتح أبواب الجامع (جامع عمرو) على الأسواق ... وفي ساحة الجامع يجلس الاساتذة والمقرئون باستمرار [١] . هنا مجتمع أهل المدينة الكبيرة ، وقلما يرى فيها أقل من خمســة آلاف رجل بين طالب علم وغريب وكاتب عام يقوم بكتابة رسائل الصرافين والعقود وغيرها ... (ناصري خسرو ١٤٨)

ويعقد قاضي القضاة مجلس القضاء في هذا الجامع . . والى جهة الشمال من المسجد يوجد سوق القناديل التي ليس لها مثيل معروف في قطر آخر . فيها يجد المرء التحف النادرة والثمينة التي تحمل اليها من أصقاع العالم كله . رأيت فيها صناديق وأمشاطاً وأيدي للسكاكين مصنوعة من الصدف ولاحظت أشياء فنية مصنوعة من الصخر البلوري ، ويؤتى بمادته الآن من بحر القلزم وكانت قبل من واردات المغرب . وما يأتي منه القلزم أنقى وأصفى . وثمة العاج الآتي من زنجبار ويبلغ وزن الناب الواحد ما يزيد عن مئتي من . ويحمل من الحبشة جلد حيوان يشبه جلد الفهد تصنع منه زخارف للاردية ، كما تحمل الطيور الأليفة الجميلة التي يتزين بريشها (ناصري خسرو ١٤٨)

﴿ موكب جبر الخليج ﴾ وفي هذا اليوم (يوم جبر الخليج) تسير كل أجناد الخليفة كل فرقة على حدة

---

(١) ومن ذلك ما رواه المقدسي قال : « وبين العشائين جامعهم مغتص بحلق الفقهاء وأئمة القراء وأهل الادب والحكمة ودخلته مع جماعة من المقادسة فربما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين دوروا وجوهكم الى المجلس فننظر فاذا نحن بين مجلسين . على هذا جميع المساجد » . (المقدسي ٢٠٥)

فأولها كتامة التي جاءت من القيروان مع المعز لدين الله . وعددها عشرون الفاً من الفرسان . والثانية ، باتله وهم مغربيون استقروا في مصر قبل أيام المعز لدين الله، ويبلغ عددهم خمسة عشر الف فارس

ويأتي بعد ذلك المصامدة وهم سود وعددهم ، على ما أكد لي الثقة ، عشرون الفاً. والمشارقة من الترك أو الفرس . . . عددهم عشرة آلاف ولهم هيئة فخمة . . . ثم يأتي عبيد الشراء ، وهم الرقيق المشري في السوق ويقـدّر عددهم بثلاثين الفاً ... وثمة فرقة أخرى من بدو الحجاز مؤلفة من خمسين الفاً من حملة الرماح . وجماعة الاستاذين يؤلفون فرقة عددها ثلاثون الف رجل وهم من الرقيق الاسود والابيض ، ويقومون بخدمات منوعة

وهناك عشرة آلاف هم بخدمة القصر وثلاثون الفاً من الزنج (ناصري خسرو ١٣٨)

٣ — ناصري خسرو في بلاد العرب

﴿ الحياة في فلج ﴾ تقع فلج في وسط الصحراء . . . ثمرها لذيذ وكثير . . . يتعامل أهلهـا بالدينار النيسابوري الذهب . . . أقمنا بها أربعة شهور . . . أهلها جياع ... عراة تغمرهم جهالة فاضحة . يذهبون الى الجامع للصـلاة مسلحين بالسيف والترس . لا يبتاعون كتباً البتة . نزلنا بالجامع ... وقد زينت لهم المحراب لقاء مئة منّ من التمر (ناصري خسرو ٢٢١)

﴿ الحسا ﴾ لأمير الحسا ثلاثون الف عبد حبشي يعملون في الزراعة والبستنة . والسكان لا يدفعون ضريبة ولا عشراً . واذا أعسر أحدهم أقرض ما يحتاجه ليتمكن من تدبير شأنه . ويعيد المدين المبلغ الاصلي ، أي رأس المال فقط ... والغريب عند وصوله يعطى مبلغاً من المال يستعين بهِ على قضاء حاجته ، ومتى ابتاع مواده وعـدة صناعته ، يعيد المبلغ الاصلي فقط على الطريقة التي يرغب فيهـا .٠. واذا تهدمت دار أو مطحنة ولم يكن لدى صاحبها ما يصلحها به ، خصص الحكام بعض عبيدهم لاصلاح ذلك ، دون تكليف المالك دفع شيء أبداً

والمطاحن الخاصة بالحـكومة في الحسا يطحن الناس فيها قمحهم مجاناً . . .

وتصنع في الحسا الفوط الجميلة الجيدة وتحمل الى البصرة وغيرها

ولا يشرب أهلها الخمر أبداً (ناصري خسرو ٢٢٧ — ٢٢٨)

الفصل الثاني

الشرق العربي في القرن الثاني عشر

١ — مصر

﴿ الاسكندرية ﴾ أوله[1] يوم الأحد ثاني يوم نزولنا بالاسكندرية ، فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا بأن طلع أمناء الى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم وسئل كل واحد عما لديه من سلع او ناض ليؤدي زكاة ذلك كله ، دون ان يبحث عما حال عليه الحول من ذلك او ما لم يحل . وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم فلزموا اداء زكاة ذلك دون ان يسأل هل حال عليه حول أم لا . واستنزل احمد بن حسان منا ليسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب فطيف به مرقباً على السلطان أولاً ثم على القاضي ثم على أهل الديوان ثم على جماعة من حاشية السلطان وفي كل يستفهم ثم يقيد قوله فخلي سبيله وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم وما فضل من أزودتهم . وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم وبحمل جميع ما أنزلوه الى الديوان فاستدعوا واحداً واحداً وأحضر ما لكل واحد من الأسباب والديوان قد غص بالزحام، فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دق منها وما جل[2] واختلط بعضهم ببعض وأدخلت الأيدي الى أوساطهم بحثاً عما

---

(١) شهر ذي الحجة سنة ٥٧٨ ﻫ (٢) روى برنارد الحكيم عن نفسه (في القرن التاسع للميلاد) انه فتش في الاسكندرية وحقق معه ودفع ستة دنانير ذهبية (Early Travels pp. 24-5)

عسى أن يكون فيها ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم ما وجدوا لهم أم لا . وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الايدي وهذه لا محالة من الأمور الملبس فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين ولو علم بذلك على ما يؤثر عنه من العدل وايثار الرفق لأزال ذلك [1] (ابن جبير ٣٩ — ٤٠)

والمدينة تجارية ، وأسواقها تتسع لجميع الأمم . فيأتيها التجـار من بلنسية وتسكانيا ولومباورديا وابوليا واماليي وصقلية وقطالونيا واسبانيا والمانيا وسكسونيا والدنيمرك وانكلترا وفلندره وفرنسـا ونورمانديا وبرغنديا وجنوه وبيزا وغسقونيا ونافار . كذلك يأتيها تجار المسلمين من الاندلس وافريقيا وبلاد الغرب كما يصل اليها قوم من الهند والحبشـة والنوبة واليمن والعراق . وتستورد من الهند جميع أنواع التوابل التي يبتاعها التجار الاوروبيون . ولكل أمة في المدينة فندقها الخاص بهـا (بنيامين ١٢٢ — ٣) .

ومن الغريب أيضاً في أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار في جميع أحوالهم وهو أكثر بلاد الله مساجد حتى ان تقدير الناس لها يطفف فمنهم المكثر والمقلل ، فالمكثر ينتهي في تقديره الى اثنى عشر الف مسجد والمقلل ما دون ذلك لا ينضبط . فمنهم من يقول ثمانيـة آلاف ومنهم من يقول غير ذلك . وبالجملة فهي كثيرة جدًّا تكون منها الاربعة والخمسة في موضع ، وربما كانت مركبة وكلها بأيمة مرتبين من قبل السلطان فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية في الشهر وهي عشرة مؤمنية (ابن جبير ٤٣)

---

(١) قال العبدري بعد وصفه للاسكندرية وعجائبها لما زارها سنـة ٦٨٨ هـ « ومن الامر المستغرب والحال الذي أفصح عن قلة دينهم (يعني أهل الاسكندرية) انهم يعترضون الحجاج ، ويجرعونهم من بحر الاهانة الملح الاجاج ، ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج ويبحثون عما بأيديهم من مال ، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال ، وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشتد له عجبي ، وجعل الانفصال عنهم غاية اربي ، وذلك لما وصل اليها الركب جاءت شرذمة من الحرس لا حرس الله مهجتهم الخسيسة ، ولا أعدم منهم لأسد الآفات فريسة ، فدوا في الحجاج أيديهم وفتشوا الرجال والنساء وألزموهم أنواعاً من المظالم وأذاقوهم ألواناً من الهوان ثم استحلفوهم وراء ذلك كله ، وما رأيت هذه العادة الذميمة والشيمة اللئيمة في بلد من البلاد ولا رأيت في الناس أقسى قلوباً ولا أقل حياء ومروءة ولا أكثر اعراضاً عن الله سبحانه وجفاء لاهل دينه من أهل هذا البلد نعوذ بالله من الخذلان » (رحلة ابن جبير ٢٧—٢٨)

ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة الى سلطانه المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد ، يفدون من الاقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوى اليه ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعليمه واجراء يقوم به في جميع أحواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء . وقد رتب أيضاً فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة وينهون الى الاطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم . ومن أشرف هذه المقاصد أيضاً ان السلطان عين لأبناء السبيل من المغربة خبزتين لكل انسان في كل ما بلغوا ونصب لتفريق ذلك كل يوم انساناً أميناً من قبله فقد ينتهي الى الفي خبزة أو أزيد ، بحسب القلة والكثرة (ابن جبير ٤١)

﴿ دلتا مصر ﴾ وضفاف فروع النيل الاربعة تقوم عليها المدن والقرى والمزارع ويكثر تنقل المسافرين فيها ، في البر والنهر . والحق انه لا يوجد على سطح البسيطة مكان آخر يزدحم فيه السكان وتستغل فيه الارض استغلالاً تامًّا مثل مصر ، هذا على اتساع أرضها وكثرة موارد الثروة فيها (بنيامين ١٢١)

﴿ القاهرة ﴾ المارستان الذي بمدينة القاهرة وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً أو احتساباً ، وعين قيماً له من أهل المعرفة ، وضع لديه خزائن العقاقير ومكّنهُ من استعمال الأشربة واقامتها على اختلاف أنواعها . ووضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسي . وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية ، فيقابلون من الأغذية والاشربة ما يليق بهم وبازاء هذا الموضع، موضع مقتطع للنساء المرضى ولهنّ من يكفلهنّ ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين ، ولهم أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها . والسلطان يتطلع لهذه الاحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد (ابن جبير ٥١)

﴿ محو المكس ﴾ ومن آثاره (أي صلاح الدين) التي أبقاها ذكراً جميلاً للدين والدنيا ازالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين . فكان الحجاج يلاقون من الضغط في استئذانها عنتاً مجحفاً ويسلبون فيها خطة خسف باهظة. وربما ورد منهم من لا فضل لديه على نفقته أو لا نفقة عنده فيلزم اداء الضريبة المعلومة . وكان سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية ، التي هي خمسة عشر ديناراً مؤمنية ، على كل راس ويعجز عن ذلك فيتناول بأليم العذاب بعيذاب فكانت كاسمها مفتوحة العين . وربما اخترع له من أنواع العذاب التعليق من الانثيين أو غير ذلك من الامور الشنيعة نعوذ بالله من سوء قدره . وكان بجدة أمثال هذا التنكيل واضعافه لمن لم يؤدّ مكسه بعيذاب ، ووصل اسمه غير معلم عليه علامة الاداء . فمحى هذا السلطان هذا الاسم اللعين ودفع عوضاً عنه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها ، وعين مجبى موضع معين بأسره لذلك ، وتكفل بتوصيل جميع ذلك الى الحجاز (ابن جبير ٥٥)

﴿ التجارة في مصر ﴾ : ورمنا في هذا الطريق احصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا، ولاسيما القوافل العيذابية المتحملة لسلع الهند الواصلة الى اليمن ثم من اليمن الى عيذاب [1] وأكثر ما شاهدنا من ذلك احمال الفلفل . فلقد خيل الينا لكثرته انه يوازي التراب قيمة . ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء انك تلتقي بقارعة الطريق احمال الفلفل والقرفة وغيرها من السلع مطروحة لا حارس لها تترك بهذه السبيل إما لاعياء الابل الحاملة لها أو غير ذلك من الاعذار . وتبقى بموضعها الى ان ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المار عليها من أطوار الناس . (ابن جبير ٦٧)

﴿ تجارة البحر الاحمر ﴾ : عيذاب وهي مدينة على ساحل بحر جدة غير مسورة أكثر بيوتها اخصاص وفيها الآن بناء مستحدث بالجص . وهي من أحفل مراسي الدنيا بسبب ان مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها ، زائداً الى مراكب الحجاج الصادرة والواردة . وهي في صحراء لا نبات فيها ولا يؤكل فيها شيء الاّ مجلوب . لكن أهلها ، بسبب الحجاج ، تحت مرفق كثير ولا سيما مع الحاج لان لهم على كل حمل

---

(١) راجع ايضاً ما ذكره يوحنا مندڤيل عن كثرة القوافل وتشعب طرقها في صعيد مصر في القرن الرابع عشر (Early Travels p. 118)

طعام يجلبونه ضريبة معلومة خفيفة المؤونة ، بالاضافة الى الوظائف المكوسية والتي كانت قبل اليوم التي ذكرنا رفع صلاح الدين لها . ولهم أيضاً من المرافق من الحاج اكراء الجلاب منهم وهي المراكب فيجتمع لهم في ذلك مال كثير في حملهم الى جدة وردهم وقت انفضاضهم من اداء الفريضة وما من أهلها ذوي اليسار الا من له جلبة والجلبتان فهي تعود عليهم برزق واسع . (ابن جبير ٦٩)

والجلاب التي يصرفونها في هذا البحر الفرعوني ملفقة الانشاء لا يستعمل فيها مسمار البتة . انما هي مخيطة بامراس من القنبار ، وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه الى ان يتخيط ، ويفتلون منه أمراساً يخيطون بها المراكب [1] . ويخللونها بدسر من عيدان النخل فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصنعة سقوها بالسمن او بدهن الخروع او بدهن القرش وهو أحسنهـا . ومقصدهم في دهان الجلبـة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعـاب المعترضة في هذا البحر . ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسماري . وعود هذه الجلاب مجلوب من الهند واليمن كذلك القنبار المذكور . ومن أعجب أمر هذه الجلاب ان شرعها منسوجة من خوص شجر المقل فمجموعه متناسب في اختلال البنية ووهنها (ابن جبير ٧٠)

---

(١) جاء في رواية لعوبديا « القرن الخامس عشر » انه يوجد في البحر الاحمر مغناطيس لذلك فان السفن التي تتنقل في انحائه لا يستعمل الحديد في بنائها ، حتى انه لا يوجد فيها مسمار قط (راجع ادلر ص ٢٢٥)

٢ — سوريا

﴿ القدس ﴾ : يغلب على شوارعها انها مبلطة بألواح كبيرة من الحجارة وانها مسقوفة بعقود حجرية فيها نوافذ يدخل منها النور [١] وبيوتها مبنية من الحجر الجميل النقش ، وأسطحتها مستوية ، ليست كأسطحة بيوتنا المنتهية بخروط ويجمع السكان ماء المطر في آبار لأنه لا يوجد أي ماء آخر في بلدهم . والخشب غالي الثمن في بلادهم ، لبعد مورده — لبنان — عنهم (ثيودوريتش ٥)

بالقرب من كنيسة يوحنا المعمدان يقوم مستشفى يقيم فيه عدد كبير من الرجال والنساء المرضى ، وينالون العناية التي تكلف نفقات باهظة . وقد بلغني ، لما كنت هناك ، ان عدد المرضى أولئك بلغ الالفين ، وقد يبلغ عدد الموتى منهم الخمسين في اليوم الواحد . . . وقد يعالج في العيادة الخارجية مثل عدد المرضى المقيمين في المستشفى هذا فضلاً عن أعمال الاحسان التي لا تقدر إذ يتصدق يومياً على السائلين وأبناء السبيل بالخبز [٢] ... (ورتزبورغ ٤٤)

﴿ دمشق ﴾ : جنة المشرق ومطلع حسنه المؤنق المشرق وهي خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها وعروس المدن التي اجتليناها [٣] قد شملت بأزاهير الرياحين وتجلت في حلل سندسية من البساتين ، وحلت في موضوع الحسن بالمكان المكين وتزينت في منعتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله عليهما منها الى ربوة ذات قرار ومعين . ظل ظليل وماء سلسبيل تنساب مذانبه انسياب الأراقم

---

(١) جاء في وصف لمدينة القدس لمؤلف مجهول من القرن الثاني عشر ان اسواقها كان يباع فيها كل ما يحتاج اليه الانسان . ويصف الكاتب اسواق اللحامين والعطارين بعناية خاصة ويقول ان الحوانيت التي يباع فيها الطعام المطهو كثيرة : راجع City of Jerusalem (PPT) pp. 6-11

(٢) يقول ثيودوريتش ص ٢٢ ان عدد الاسرة فيه بلغ الفاً او يزيد . أما بنيامين (Early Travels p. 83) فيذكر انه كان ثمة مستشفيان في القدس

(٣) دمشق كبرى مدن الشرق من حيث حجمها وعدد سكانها (دي فتري ص ٢٣)

بكل سبيل ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل . تتبرّج لناظريها بمجتلى صقيل وتناديهم هلموا الى معرش للحسن ومقيل . قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت الى الظمأ فتكاد تناديك بها الصم الصلاب اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . قد أحدقت بها البساتين احداق الهالة بالقمر واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر . فكل موضع لحظتها بجهاتها الاربع نضرته اليانعة قيد النظر ولله صدق القائلين عنها . « ان كانت الجنة في الارض فدمشق لا شك فيها، وان كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها » (ابن جبير ٢٦٠—٢٦١)[١]

دمشق مدينة كبيرة ، تقع على حدود مملكة نور الدين . . . وهي مدينة جميلة يدور بها سور ، وتحيط بها بلاد فائقة الحسن ، تمتد نحو ١٥ ميلاً . وحدائقها وبساتينها تبلغ من الجمال حداً قلما يوجد مثله في الدنيا . . . يخترقها نهر أمانا (أبانا) الذي تحمل مياهه الى دور كبار الناس فيها في أنابيب كما تنقلها القساطل الى الشوارع والاسواق ... تجارتها واسعة ، يقيم بها تجار من جميع الاقطار . . . وجامعها قلما يساويه بناء آخر في فخامته . . . (بنيامين ٩٠)

وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم تعرف بكنيسة مريم ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها . وهي حفيلة البناء تتضمن من التصاوير أمراً عجيباً تبهت الافكار وتستوقف الابصار ، ومرآها عجيب . وهي بأيدي الروم ولا اعتراض عليهم فيها . وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة وبها مارستانان قديم وحديث ، والحديث أحفلهما وأكبرهما وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر دينار وله قومة بأيديهم الازمة المحتوية على اسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون اليها في الادوية والاغذية وغير ذلك . والاطباء يبكرون اليه في كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون باعداد ما يصلح من الادوية والاغذية حسبما يليق بكل انسان منهم . والمارستان الآخر على هذا الرسم لكن الاحتفال في الجديد أكثر. وهذا القديم هو غربي الجامع المكرم. وللمجانين المعتقلين ايضاً ضرب من العلاج وهم في سلاسل موثقون (ابن جبير ٢٨٣)

---

(١) ذكر بتاحيا هذا الشيء نقلاً عن أهل دمشق « بتاحيا — ترجمة غرنهوت الالمانية — ص ٣٨ — ٩ »

﴿ حلب ﴾ : وأما البلد فوضوعه ضخم جداً[١] حفيل التركيب بديع الحسن واسع الاسواق كبيرها متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من سماط صنعة الى سماط صنعة اخرى الى ان تفرغ من جميع الصناعات المدنية . وكلها مسقف بالخشب فكأنها في ظلال وارفة فكل سوق منها تقيد الابصار حسناً وتستوقف المستوفز تعجباً . وأما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالاً مطيفة بالجامع المكرم لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها ، ولو كان من المرائي الرياضية . وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة ، قد اتصل السماط خزانة واحدة وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت تجاه منظرها أجمل منظر وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم (ابن جبير ٢٥٢)

وقراها عامرة منتظمة لانها على محرث عظيم مد البصر عرضاً وطولاً (ابن جبير ٢٥٤) . وخانات هذه الطريق كأنها القلاع امتناعاً وحصانة وأبوابها حديد . وهي من الوثاقة في غاية (ابن جبير ٢٥٤)

﴿ المعرة ﴾ : وبلاد المعرة [٢] سوادكلها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين (ابن جبير ٢٥٤)

﴿ حماة ﴾ : وكلتا المدينتين صغيرتان ، وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها العالي الجبلي ويطيف بها ، وللمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب لأن جانبها المتصل بالنهر لا يحتاج الى سور . وعلى النهر جسر كبير معقود بصم الحجارة يتصل من المدينة السفلى الى ربضها . وربضها كبير فيه الخانات والديار وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجته الي أن يفرغ لدخول المدينة . وأسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسواق المدينة السفلى . فهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات وموضوعها حسن التنظيم بديع الترتيب والتقسيم . ولها جامع أكبر من الجامع الأسفل، ولها ثلاث مداوس ومارستان على شط النهر (ابن جبير ٢٥٦ — ٧) [٣]

---

(١) أشار بتاحيا الى سعة حلب وضخامتها « نفس المكان ص ٣٨ »

(٢) وصف ناصري خسرو المعرة وبلادها بالثروة الكبيرة ، وأضاف الكرم الى أشجارها المذكورة عند ابن جبير (PPT p. 3) (٣) يرجع عمران حماة الى أيام بني أيوب « راجع صبح الاعشى ٤ : ١٤٠ »

﴿ حمص ﴾ : وأما داخلها فما شئت بادية شعثاء خالقة الارجاء ملفقة البناء ، لا اشراق لآفاقها ولا رونق لأسواقها ، كاسدة لا عهد لها بنفاقها . وما ظنك ببلد حصن الاكراد منهُ على أميال يسيرة ، وهو معقل العدو . فهو منهُ تتراءى ناره ، ويحرق إذ يطير شراره ، ويتعهد اذا شاء كل يوم مناره . وسألنا أحد الاشياخ بهذه البلدة هل فيها مارستان على رسم مدن هـذه الجهات فقال ، وقد أنكر ذلك « حمص كلها مارستان » وكفاك شهادة أهلها فيها . وبها مدرسة واحدة وتجد في هذه البلدة عند إطلالك عليها من بعد في بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها بعض شبه بمدينة (اشبيلية) من بلاد الاندلس يقع للحين في نفسك خياله وبهذا الاسم سميت في القديم . وهي العلة التي أوجبت نزول الاعراب أهل حمص فيها حسبما يذكر (ابن جبير ٢٥٨) (١)

﴿ بيروت ﴾ : بيروت مدينة غنية وحصينة ، وكبيرة ومزدحمة بالسكان (فوكاس ٩) ميناؤها جميل أتقنتهُ يد الصانع الماهر ، يحيط بالمدينة كالهلال ، يقوم في كل من طرفيه برج تسحب بينهما سلسلة تحمي السفن الموجودة في الميناء في الليل (ثيودوريتش ٧١)

﴿ صور ﴾ : هي أنظف من عكة سككاً وشوارع ، وأهلها ألين في الكفر طبائع وأجرى الى برّ غرباء المسلمين شمائل ومنازع . فخلائقهم أسجح ومنازلهم أوسع وأفسح وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن . وعكة أكبر وأطغى . وأما حصانتها ومنعتها فأعجب ما يحدث به وذلك أنها راجعة الى بابين أحدهما في البر والآخر في البحر وهو يحيط بها الاّ من جهة واحدة . فالذي في البر يفضي اليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب . وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين الى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص . فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها . وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند

---

(١) قال ابن بطوطة عن حمص « مدينة حمص وهي مدينة مليحة أرجاؤها مونقة وأشجارها مورقة وأنهارها متدفقة وأسواقها فسيحة الشوارع وجامعها متميز بالحسن الجامع وفي وسطه بركة ماء . وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم » (ابن بطوطة ص ٣٨)

اعتراضها الداخل والخارج فلا مجال للمراكب الاّ عند ازالتهـا . وعلى ذلك الباب حراس وأمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج الاّ على أعينهم . فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع . ولعكة مثلها في الوضع والصفة، لـكنها لا تحمل السفن الـكبار حمل تلك وانما ترسي خارجها ، والمراكب الصغار تدخل اليهـا . فالصورية أكمل وأجمل وأحفل [1] (ابن جبير ٣٠٤)

❊ عكاء ❊ : تزيد عن غيرها (من المدن السورية الساحلية) في عدد السكان . تأوي اليها جميع السفن التجارية ويجتمع فيها الحجاج الآتون في البحر والمسافرون برّاً .. وتـكثر فيها الأوبئة بسبب كثرة الواردين عليها (فوكاس ١١)

مدينة كبيرة كثيرة السكان . . حيثما ينزل الحجاج ، فانهم مضطرون بعـد انتهاء الحج الى الاجتماع في عكاء ليحملوا منها الى بلادهم ... وقد عددنا في يوم الاربعاء من أسبوع الفصح ثمانين سفينة في الميناء [2] (ثيودوريتش ٥٩ — ٦٠)

وهي قاعدة مدن الافرنج ، ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام ، مرفأ كل سفينة والمشبهة في عظمتها بالقسطنطينية . مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق . سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطىء الأقدام (ابن جبير ٣٠٣)

وصلنا الى الديوان وهو خان معد لنزول القافلة . وأمام بابه مصاطب مفروشـة فيها كتّـاب الديوان من النصارى بمحابر الابنوس المذهبة الحلي وهم يكتبون بالعربية ويتـكلمون بها ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له يعرف بالصاحب لقب وقع عليه لمكانه من الخطة وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند وكل ما يجبى عندهم راجع الى الضامن . وضمان هذا الديوان بمال عظيم . فأنزل التجار رحالهم به ونزلوا في أعلاه وطلب رحل من لا سلعة له لئلاّ يحتوي على سلعة مخبوءة فيه وأطلعه سبيله فنزل حيث شاء وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل . فنزلنا بها في بيت اكتريناه من نصرانية بازاء البحر (ابن جبير ٣٠٢ — ٣)

---

(١) راجع أيضاً ما ذكره بنيامين (Early Travels p. 80) ودي فتري « ص ١٦ — ١٧ » عن منعة صور واتساعها وتجارتها (٢) يرجع الاهتمام بميناء عكاء الى ابن طولون . وقد بناها له أبو بكر البناء جد المقدسي الجغرافي « راجع المقدسي ص ١٨٧ »

٣ — بلاد العرب

﴿ جدة ﴾ : هذه قرية على ساحل البحر الأحمر ، اكثر بيوتها اخصاص وفيها فنادق بالحجارة والطين . وفي أعلاها بيوت من الاخصاص كالغرف . ولها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر . وبهذه القرية آثار قديمة تدل على انها كانت مدينة قديمة . وأثر سورها المحدق بها باقٍ الى اليوم (ابن جبير ٧٥)

الرطب : وهو عندهم بمثابة التين الاخضر في شجره . يجنى ويؤكل وهو في نهاية من الطيب واللذاذة . لا يسأم التفكه به . وبأنهُ عندهم عظيم يخرج الناس اليهِ كخروجهم الى الضيعة او كخروج اهل المغرب لقراهم ايام نضج التين والعنب . ثم بعد ذلك عند تناهي نضجه يبسط على الأرض قدر ما يجف قليلاً ثم يركم بعضهُ على بعض في السلال والظروف ويرفع (ابن جبير ١٢٢) .

﴿ مكة ﴾ : وكانوا ايضاً يتحدثون بكثرة نعمها في هذا العام ولين سعرها وانها خارقة للعوائد السالفة عندهم . كان سوم الحنطة اربعة اصواع بدينار مؤمني . وهذا السعر في بلد لا ضيعة فيه ولا قوام معيشة لأهلهِ الاّ بالميرة المجلوبة اليه سعر لا خفاء بيمنه وبكرته . على كثرة المجاورين فيها في هذا العام وتجلاب الناس اليها وترادفهم عليها . فحدثنا غير واحد من المجاورين الذين لهم بها سنون طائلة انهم لم يروا هذا الجمع بها قط ولا سمع بمثله فيها . والله يجعلهُ جمعاً مرحوماً معصوماً بمنه

ولأهل هذه الجهات المشرقية كلها سيرة حسنة عند مستهل كل شهر من شهور العام يتصافحون ويهني بعضهم بعضاً ويتنافرون ويدعو بعضهم لبعض كفعلهم في الأعياد هكذا دائماً (ابن جبير ١٢٤)

فأبصرنا من ذلك ما نصف بعضهُ على جهة الاختصار وذلك لأنا عاينا شوارع مكة وأزقتها من عصر يوم الاربعاء . وهي العشية التي ارتقب فيها الهلال، قد امتلأت هوادج مشدودة على الابل . مكسوة بأنواع كساء الحرير وغيرها من ثياب الكتان

الوقيعة بحسب سعة أحوال أربابها ووفرهم، كل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته فأخذوا في الخروج الى التنعيم ميقات المعتمرين فسالت تلك الهوادج في أباطح مكة وشعابها والابل قد زينت تحتها بأنواع التزيين وأشعرت بغير هدى بقلائد رائقة المنظر من الحرير وغيره وربما فاضت الأستار التي على الهوادج حتى تسحب أذيالها على الارض (ابن جبير ١٢٩)

﴿التجارة والحج﴾ : وهم قبائل شتى كبجيلة وسواها يستعدون للوصول الى هذه البلدة المباركة قبل حلولها بعشرة أيام . فيجمعون بين النسبة في العمرة وميرة البلد بضروب من الأطعمة كالحنطة وسائر الحبوب الى اللوبياء الى ما دونها . ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز فتجتمع ميرتهم بين الطعام والأدام والفاكهة . ويصلون في آلاف من العدد رجالاً وجمالاً موقرة بجميع ما ذكر فيرغدون معايش اهل البلد والمجاورين فيه . يتقوتون ويدخرون وترخص الاسعار وتعم المرافق فيعد منها الناس ما يكفيهم لعامهم الى ميرة اخرى ولولا هذه الميرة لكان اهل مكة في شظف من العيش (ابن جبير ١٣٢)

﴿من الحجاز الى العراق﴾ : القارورة وهي مصانع مملوءة بماء المطر . وهذا الموضع هو أرض نجد . وما أرى أن في المعمورة أرضاً أفسح بسيطاً ولا أوسع أنفاً ولا أطيب نسيماً ولا أصح هواءً ولا أمد استواءً ولا أصفى جواً ولا أنقى تربة ولا أنعش للنفوس والأبدان ولا أحسن اعتدالاً في كل الأزمان من أرض نجد . وصف محاسنها يطول والقول فيها يتسع . وفي يوم الخميس المذكور مع ضحوة النهار نزلنا بالحاجر . والماء فيه في مصانع . وربما حفروا عليه حفراً قريبة العمق يسمونها أحفاراً واحدها حفر . وكنا نتخوف في هذا الطريق قلة الماء ولا سيما مع عظم هذا الجمع الأناسي والأنعامي الذين لو وردوا البحر لأنزفوه واستقوه (ابن جبير ٢٠٤)

أجزنا بالحاجز واديين سيالين . وأما البرك والقرارات فلا تحصى . وفي يوم الجمعة بعده نزلنا ضحوة النهار سميرة . وهي موضع معمور وفي بسيطها شبه حصن يطيف به خلق كبير مسكون . والماء فيه في آبار كثيرة الا انها زعاق ومستنقعات وبرك وتبايع العرب فيها مع الحاج فيما أخرجوه من لحم وسمن ولبن . ووقع الناس على قرم

وعيمة . فبادروا الابتياع لذلك بشقق الخام التي يستصحبونها لمشاراة الاعراب لانهم لا يبايعونهم الا بها (ابن جبير ٢٠٥)

ووصل الى هذا الموضع جمع كثير من العرب رجالاً ونساءً واتخذوا به سوقاً عظيمة حفيلة للجمال والكباش والسمن واللبن وعلف الابل فكان يوم سوق نافعة وبقي من هذا الموضع الى الكوفة من المناهل التي تعمّ جميع المحلة ثلاثة أحدها زبالة والثاني وامضة والثالث منهل من ماء الفرات على مقربة من الكوفة . وبين هذه المناهل مياه موجودة لكنها لا تعم . وهذه الثلاثة المذكورة هي التي تعم الناس والابل وهي التي تردها (ابن جبير ٢٠٧)

٤ — العراق

﴿ الكوفة ﴾ : هي مدينة كبيرة عتيقة البناء قد استولى الخراب على أكثرها فالغامر منها أكثر من العامر ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها فهي لا تزال تضر بها . وكفاك بتعاقب الايام والليالي محيياً ومفنياً . وبناء هذه المدينة بالآجر خاصة ، ولا سور لها . والجامع العتيق آخرها مما يلي شرقي البلد ولا عمارة تتصل بها من جهة الشرق (ابن جبير ٢١١)

﴿ الحلة ﴾ : هي مدينة كبيرة عتيقة الوضع مستطيلة ، لم يبقَ من سورها إلاّ حلق من جدار ترابي مستدير بها . وهي على شط الفرات يتصل بها من جانبها الشرقي ويمتد بطولها . ولهذه المدينة أسواق حفيلة جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية وهي قوية العمارة ، كثيرة الخلق ، متصلة حدائق النخيل داخلاً وخارجاً فديارها بين حدائق النخيل . وألفينا بها جسراً عظيماً معقوداً على مراكب كبار متصلة من الشط الى الشط تحفُّ بها من جانبها سلاسل من حديد كالاذرع المفتولة عظماً وضخامة ترتبط الى خشب مثبتة في كل الشطين تدل على عظم الاستطاعة والقدرة (ابن جبير ٢١٣)

﴿ في الطريق ﴾ : وتمتاز الجهة بكثرة القناطر المعترضة في طريقهم الى بغداد فلا تكاد تمشي ميلاً إلاّ وتجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات . فتلك الطريق أكثر الطرق سواقي وقناطر . وعلى أكثرها خيام فيها رجال محترسون للطريق اعتناءً من الخليفة بسبيل الحاج دون اعتراض منهم لاستنفاع بكدية أو سواها (ابن جبير ٢١٤)

وألفينا حصاد الشعير بهذه الجهات في هذا الوقت الذي هو نصف مايو (ايار)

وقرى هذه الطريق من الحلة الى بغداد على هذه الصفة من الحسن والاتساع . وفي هذه القرية المذكورة خان كبير يحدق به جدار عال له شرفات صغار (ابن جبير ٢١٥)

﴿ الى بغداد ﴾ : وكنا سمعنا ان هواء بغداد ينبت السرور في القلب ويبعث النفس دائماً على الانبساط والانس ، فلا تكاد تجد فيه إلاّ جذلان طرباً ، وان كان نازح الدار مغترباً ، حتى حللنا بهذا الموضع المذكور وهو على مرحلة منها . فلما نفحتنا نوافح هوائها ونقعنا الغلة ببرد مائها أحسسنا من نفوسنا ، على حال وحشة الاغتراب ،

دواعي من الاطراب ، واستشعرنا بواعث فرح كأنه فرحة الغيّاب بالاياب ، وهبت بنا محركات من الاطراب ، أذكرتنا معاهد الاحباب ، في ريعان الشباب. هذا للغريب النازح الوطن ، فكيف للوافد عليها على أهل وسكن

سقى الله باب الطاق صوب غمامة وردّ الى الأوطان كل غريب

(ابن جبير ٢١٦)

وبغداد هي كما ذكرناه جانبان شرقي وغربي ودجلة بينهما . فأما الجانب الغربي فقد عمَّهُ الخراب واستولى عليه وكان المعمور أولاً . وعمارة الجانب الشرقي محدثة لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوي على سبع عشرة محلة كل محلة منها مدينة مستقلة ، وفي كل واحدة منها الحمامان والثلاثة . والثماني منها بجوامع يصلى فيها الجمعة. فأكبرها القرية وهي التي نزلنا فيها بربض يعرف بالمربعة على شط دجلة بمقربة من الجسر ، فحملته دجلة بمدّها السيلي فعاد الناس يعبرون بالزوارق فيها لا تحصى كثرة. فالناس ليلاً ونهاراً من تمادي العبور فيها في نزهة متصلة رجالاً ونساءً . والعادة ان يكون لها جسران احدهما مما يقرب من دور الخليفة ، والآخر فوقه لكثرة الناس، والعبور في الزوارق لا ينقطع منها . ثم الكرخ وهي مدينة مسوّرة . ثم محلة باب البصرة وهي ايضاً مدينة وبها جامع المنصور رحمه الله وهو جامع كبير عتيق البنيان حفيله ، ثم الشارع وهي ايضاً مدينة . فهذه الاربع أكبر المحلات وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان ، وهي مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد وهو على دجلة ويتفقده الاطباء كل يوم اثنين وخميس ويطالعون أحوال المرضى، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون اليه ، وبين أيديهم قومة يتناولون طبخ الادوية والاغذية . وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية . والماء يدخل اليه من دجلة (ابن جبير ٢٢٥)

وأما الشرقية فهي اليوم دار الخلافة وكفاها بذلك شرفاً واحتفالاً ودور الخليفة مع آخرها وهي تقع منها في نحو الربع أو أزيد لأن جميع العباسيين في تلك الديار معتقلون اعتقالاً جميلاً لا يخرجون ولا يظهرون ، ولهم المرتبات القائمة بهم . وللخليفة من تلك الديار جزء كبير قد اتخذ فيها المناظر المشرفة والقصور الرائقة والبساتين الأنيقة . وليس له اليوم وزير إنما لهُ خديم يعرف بنائب الوزارة يحضر

الديوان المحتوي على أموال الخلافة وبين يديه الكتب فينفذ الامور . وله قيّم على جميع الديار العباسية وأمين على كافة الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه وعلى جميع من تضمه الحرمة الخلافية يعرف بالصاحب مجد الدين أستاذ الدار ، هذا لقبه . ويدعى له إثر الدعاء للخليفة وهو قلّ ما يظهر للعامة اشتغالاً بما هو بسبيله من أمور تلك الديار وحراستها والتكفل بمغالقها وتفقّدها ليلاً ونهاراً (ابن جبير ٢١٦)

والشرقية حفيلة الاسواق عظيمة الترتيب تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم إلاّ الله تعالى الذي أحصى كل شيء عدداً . وبها من الجوامع ثلاثة كل يجمع فيها : جامع الخليفة متصل بداره وهو جامع كبير وفيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة مرافق الوضوء والطهور ، وجامع السلطان وهو خارج البلد ويتصل به قصور تنسب للسلطان أيضاً المعروف بشاه شاه ، وكان مدبر أمر أجداد هذا الخليفة وكان يسكن هناك فابتنى الجامع أمام مسكنه ، وجامع الرصافة وهو على الجانب الشرقي المذكور وبينهُ وبين جامع هذا السلطان المذكور مسافة نحو الميل . وبالرصافة تربة الخلفاء العباسيين رحمهم الله . فجميع جوامع البلد ببغداد المجمع فيها أحد عشر . وأما حماماتها فلا تحصى عدة . ذكر لنا احد أشياخ البلد انها بين الشرقية والغربية نحو الالفي حمام وأكثرها مطلية بالقار مسطحة بهِ . فيخيل للناظر انهُ رخام أسود صقيل . وحمامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم لأن شأنهُ عجيب يجلب من عين بين البصرة والكوفة وقد أنبط الله ماءَ هذه العين ليتولد منه القار ، فهو يصير في جوانبها كالصلصال فيجرف ويجلب (ابن جبير ٢٢٨ — ٩)

وأما المساجد بالشرقية والغربية فلا يأخذها التقدير فضلاً عن الاحصاء . والمدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية ، وما منها مدرسة إلاّ وهي يقصر القصر البديع عنها ، وأعظمها وأشهرها المدرسة النظامية وهي التي ابتناها نظام الملك وجددت سنة أربع وخمسمائة . ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تصير الى الفقهاء المدرسين بها ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم . ولهذه البلاد في أمر المدارس والمارستانات شرف عظيم ونخر مخلد فرحم الله واضعها الأول ورحم من تبع ذلك السنن الصالح (ابن جبير ٢٢٩)

وبغداد عاصمة الخليفة العباسي الذي يعترف له كل ملوك المسلمين بالسلطان الروحي . يمتدُّ قصره ثلاثة أميال وفيهِ حدائق تحوي أشجاراً من جميع الأنواع ، بينها النافع

والزخرفي ، وتسرح فيها الحيوانات وتغرد فيها الطيور . وبركة القصر تأتي مياهها من دجلة . ويقضي الخليفة أوقات فراغه في حدائق القصر يستمتع بجماله

والخليفة يتقن لغات كثيرة ... وينفق على نفسه مما يصنعه بيده . وتشمل صناعته الأغطية التي يدمغها بختمه ، ويبيعها موظفوه في السوق العامة . ويبتاع هذه الاشياء نبلاء البلاد ...

والخليفة رجل نبيل وهو محلّ للثقة ، وكبير العطف على الجميع . لكنه قلما يظهر للناس ... والمناسبة الوحيدة التي يرى فيها هي يوم عيد الفطر ، حيث يتقاطر القوم الى بغداد ليستمتعوا باستجلاء طلعته البهية

والخليفة تقيّ محسن كريم ، وقد أقام على ضفة النهر المقابلة أبنية كبيرة فيها ، بالاضافة الى دور السكن العادية ، ملاجىء للمرضى الفقراء (بيمارستانات) ، حيث يأتون للعلاج . وفي المدينة قرابة ستين حانوت طبي توجد فيها العقاقير على اختلاف أنواعها التي ترسل اليها من خزائن الخليفة . وكل مريض يتطلب مساعدة ، يقدم له الغذاء على حساب الخليفة الى ان يشفى

وفي بغداد عمارة كبيرة تسمى دار المرابطين يقيم فيها جميع المجانين مقيدين بسلاسل ، ويشرف عليهم موظفون من قبل الخليفة يفحصونهم مرة في الشهر بانتظام ، فاذا ظهر انهم شفوا أطلق سراحهم

وهذا من إحسان الخليفة الى كل من يقصد بغداد مريضاً كان أم مصاباً بالجنون

وتحيط ببغداد حدائق النخيل والبساتين الواسعة ، بحيث تجعلها عديمة النظير في العراق

ويتقاطر التجار من كل صقع الى بغداد . وفيها علماء كبار وفلاسفة ومهرة من أهل السحر (بنيامين ٩٥—١٠٠)

بغداد مدينة كبيرة ، وهي مقرّ الخليفة او السلطان . وهذا هو الملك الكبير الذي يحكم الامم ... بغداد كبيرة جداً ، يزيد طولها عن مسيرة يوم كامل ، ويحتاج المرء إلى اكثر من ثلاثة أيام ليدور حولها[1] (بتاحيا — ادلر ٦٩)

---

(١) راجع ايضاً ترجمة غرنهوت الالمانية لبتاحيا ص ٩ — ١٠

﴿ الى الموصل ﴾ : وعن يمين الطريق الى الموصل فيه وهدة من الارض سوداء كأنها سحابة قد أنبط الله فيها عيوناً كباراً وصغاراً ، تنبع بالقار وربما يقذف بعضها بحباب منهُ كأنها الغليان . ويصنع له أحواض يجتمع فيها فتراه شبه الصلصال منبسطاً على الارض أسود أملس صقيلاً رطباً عطر الرائحة شديد التعلك فيلصق بالاصابع بأول مباشرة من اللمس . وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود تقذفهُ الى جوانبها فيرسب قاراً ، فشاهدنا عجباً كنا نسمع به فنستغرب سماعه . وبمقربة من هذه العيون ، وعلى شط دجلة عين أخرى منهُ كبيرة أبصرنا على البعد منها دخاناً فقيل لنا إن النار تشعل فيهِ اذا أرادوا نقله فتنشف النار رطوبته المائية وتعقده فيقطعونهُ قطرات ويحملونهُ ، وهو يعمُّ جميع البلاد الى الشام الى عكة الى جميع البلاد البحرية[1] (ابن جبير ٢٣٣)

﴿ الموصل ﴾ : باطن الداخل منها بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله كان قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته وسعة وضعه . وللمقاتلة في هذه البيوت حرز وقاية وهي من المرافق الحربية . وفي أعلى البلد قلعة عظيمة قد رصَّ بناؤها ، ينتظمها سور عتيق البنية مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان . وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متسع ، يمتد من أعلى البلد الى أسفله . ودجلة شرقي البلد وهي متصلة بالسور وأبراجه في مأنها . وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والاسواق (ابن جبير ٢٣٤)

وفي سوقه قيسارية للتجار كأنها الخان العظيم تتعلق عليهـا أبواب حديد ، وتطيف بها دكاكين وبيوت ، بعضها على بعض قد جلي ذلك كله في أعظم صورة من البنـاء المزخرف الذي لا مثيل له . فـا أرى في البلاد قيسارية تعدلها . (ابن جبير ٢٣٦)

وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة فتلوح كأنهـا القصور المشرقة ولها مارستانات حاشا الذي ذكرناه في الربض (ابن جبير ٢٣٦)

---

(١) أشار بتاحيا الى هذا الامر « نفس المكان ص ٦ »

﴿ بين الموصل والشام ﴾ : وأهل هذه البلاد من الموصل لديار بكر وديار ربيعة الى الشام على هذه السبيل من حب الغرباء وإكرام الفقراء . وأهل قراها كذلك ، فما يحتاج الفقراء الصعاليك معهم زاداً . لهم في ذلك مقاصد في الكرم مأثورة . وشأن أهل هذه الجهات في هذا السبيل عجيب . والله ينفعهم بما هم عليه . وأما عبّادهم وزهّادهم والسائحون في الجبال منهم فأكثر من أن يقيدهم الاحصاء ، والله ينفع المسلمين ببركتهم وصوالح دعواتهم بمنّهِ وكرمهِ . ولهذه البلدة المذكورة أسواق حفيلة الانتظام عجيبة الترتيب مسقفة كلها بالخشب فلا يزال أهلها في ظلٍّ ممدودٍ ، فتخترقها كأنك تخترق داراً كبيرة الشوارع قد بني عند كل ملتقى أربع سكك أسواق منها قبة عظيمة مرفوعة مصنوعة من الجص هي كالمفرق لتلك السكك (ابن جبير ٢٤٥)

الفصل الثالث

الاحوال الاجتماعية في الشرق العربي في القرن الثاني عشر

١ — المدارس

﴿ المدرسة النظامية ﴾ : فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الامام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية والمشار اليهِ بالتقديم في العلوم الأصولية . حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامسْ لصفر . فصعد المنبر وأخذ القراء أمامهُ في القراءة على كراسي موضوعة فتوّقوا وشوّقوا وأتوا بتلاحين معجبة ونغمات محرجة مطربة ، ثم اندفع الشيخ الامام المذكور فخطب خطبة سكون ووقار ، وتصرَّف في أفانين من العلوم ، من تفسير كتاب الله عزّ وجل، وإيراد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتكلم على معانيه. ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب فأجاب وما قصر ، وتقدم وما تأخر. ودفعت اليهِ عدة رقاع فجمعها جملة في يده ، وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذ بها الى أن فرغ منها ، وحان المساء فنزل وافترق الجميع . فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقوراً هيناً ليناً ظهرت فيه البركة والسكينة (ابن جبير ٢١٩)

﴿ المدرسة النورية في دمشق ﴾ : وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الاسلام والمدارس كذلك . ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين رحمه الله ، وبها قبره نوَّره الله ، وهي قصر من القصور الانيقة ينصبّ فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم ثم يمتدّ الماء في ساقية مستطيلة الى أن يقع في صهريج كبير

وسط الدار فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمه الله . وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة وهي برسم الصوفية ، وهي قصور مزخرفة يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر ، وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعايش وأسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان (ابن جبير ٢٨٤)

﴿ المغاربة ﴾ : ومن مناقب نور الدين رحمهُ الله تعالى أنهُ كان عيّن للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك أوقافاً كثيرة منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمام ودكانان بالعطارين . وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه وهو أبو الحسن علي بن سروال الجياني المعروف بالاسود ان هذا الوقف المغربي يغلّ اذا كان النظر فيه جيداً خمسمائة دينار في العام (ابن جبير ٢٨٥)

﴿ عالم سوري ﴾ : وحضر معنا في الصيد الشيخ العالم أبو عبد الله الطليطلي النحوي رحمه الله . وكان في النحو سيبويه زمانه . قرأت عليه النحو نحواً من عشر سنين وكان متولي دار العلم بطرابلس . فلما أخذ الافرنج طرابلس نفّذ الوالد والعم ، رحمهما الله ، استخلصا الشيخ أبا عبد الله هذا ويانس الناسخ . وكان قريب الطبقة في الخط من طريقة ابن البواب . أقام عندنا بشيزر مدة ونسخ للوالد، رحمه الله، ختمتين ثم انتقل الى مصر ومات بها

وشاهدت من الشيخ ابي عبد الله عجباً . دخلت عليه يوماً لأقرأ عليه فوجدت بين يديه كتب النحو « كتاب سيبويه » و « كتاب الخصائص » لابن جني . و « كتاب الايضاح » لابن علي الفارسي، و « كتاب اللمع » و « كتاب الجمل » فقلت « يا شيخ أبا عبد الله، قرأت هذه الكتب كلها ؟ » ، قال « قرأتها ! لا والله الاّ كتبتها في اللوح وحفظتها . تريد تدري . خذ جزءاً وافتح واقرأ من أول الصفحة سطراً واحداً » . فأخذت جزءاً وفتحته وقرأت سطراً منه . فقرأ الصفحة بأجمعها حفظاً حتى أتى على تلك الاجزاء جميعها فرأيت منهُ أمراً عظيماً ما هو في طاقة البشر . (الاعتبار ٢٠٨ — ٩)

٢ — التربية البيتية

﴿ تربية أسامة البيتية ﴾ : وما رأيت الوالد ، رحمه الله ، نهاني عن قتال ولا ركب خطر معما كان يرى فيّ وأرى من اشفاقه وايثاره لي . ولقد رأيته يوماً وكان عندنا بشيزر رهائن عن بغدوين [١] ملك الافرنج على قطيعة قطعها لحسام الدين تمرتاش بن ايلغازي رحمه الله ، فرسان افرنج وأرمن . فلما وفوا ما عليهم وأرادوا الرجوع الى بلادهم نفذ خير خان صاحب حمص خيلاً كمنوا لهم في ظاهر شيزر . فلما توجه الرهائن خرجوا عليهم أخذوهم : ووقع الصائح فركب عمي وأبي ، رحمهما الله ووقفا ، وكل من يصل اليهما قد سيراه من خلفهم . وجئت أنا ، فقال لي أبي « أتبعهم بمن معك ، وارموا نفوسكم عليهم ، واستخلصوا رهائنكم » . فتبعتهم وأدركتهم بعد ركض أكثر النهار واستخلصت من كان معهم وأخذت بعض خيل حمص . وعجبت من قوله « ارموا نفوسكم عليهم »

ومرة كنت معه ، رحمه الله ، وهو واقف في قاعة داره واذا حية عظيمة قد أخرجت رأسها على إفريز رواق القناطر التي في الدار . فوقف يبصرها . فحملت سلماً كان في جانب الدار أسندته تحت الحية وصعدت اليها ، وهو يراني فلا ينهاني ، وأخرجت سكيناً صغيرة من وسطي ، وطرحتها على رقبة الحية وهي نائمة وبين وجهي وبينها دون الذراع ، وجعلت أحزّ رأسها — وخرجتْ التفت على يدي — الى أن قطعت رأسها وألقيتها الى الدار ، وهي ميتة

بل رأيته ، رحمه الله ، وقد خرجنا يوماً لقتال أسد ظهر على الجسر فلما وصلناه حمل علينا من أجمة كان فيها . فحمل على الخيل ، ثم وقف ، وأنا وأخي بهاء الدولة منقذ ، رحمه الله ، بين الأسد وبين موكب فيه أبي وعمي ، رحمهما الله ، ومعهما جماعة من الجند . والأسد قد ربض على حرف النهر يتضرّب بصدره على الأرض ويهدر . فحملت عليه . فصاح عليّ أبي ، رحمه الله « لا تستقبلهُ يا مجنون ، فيأخذك » فطعنته . فلا والله ما تحرك من مكانه . ومات موضعه

فما رأيته نهاني عن قتال غير ذلك اليوم (الاعتبار ١٠٣)

---

(١) بلدوين

﴿ والدة أسامة في القتال ﴾ : وفي ذلك اليوم [1] فرقت والدتي ، رحمها الله ، سيوفي وكزاغنداتي . وجاءت الى أخت لي كبيرة السن وقالت « البسي خفك وإزارك » فلبست وأخذتها الى روشن في داري يشرف على الوادي من الشرق ، أجلستها عليه وجلست الى باب الروشن . ونصرنا الله سبحانه عليهم . وجئت الى داري أطلب شيئاً من سلاحي ما وجدت إلاّ جهازات السيوف وعيب الكزاغندات. قلت « يا أمي ، أين سلاحي » قالت « يا بنيّ أعطيت السلاح لمن يقاتل عنا . وما ظننتك سالماً » . قلت «فأختي أي شيء تعمل ها هنا » قالت « يا بنيّ أجلستها على الروشن وجلست برّا منها . اذا رأيت الباطنية قد وصلوا الينا دفعتها رميتها الى الوادي فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة » فشكرتها على ذلك وشكرتها الأخت وجزتها خيراً . فهذه النخوة من نخوات الرجال (الاعتبار ١٢٤)

٣ — الفارس

﴿ شرف الفارس جمعة ﴾ : فمن ذلك ما شاهدته من أنفة الفرسان وحملهم نفوسهم على الأخطار ، اننا كنا التقينا نحن وشهاب الدين محمود بن قراجا ، صاحب حماة ذلك الوقت ، وكانت الحرب بيننا وبينه ما تغب ، والمراكب واقفة والطراد بين التسرعة . فجاءني رجل من اجنادنا وفرساننا المعدودين يقال له جمعة من بني نمير ، وهو يبكي . فقلت لهُ « ما لك يا أبا محمود ؟ هذا وقت بكاء ! » . قال « طعنني سرهنك ابن ابي منصور » . قلت « واذا طعنك سرهنك أي شيء يكون » قال « ما يكون شيء الاّ يطعنني مثل سرهنك — والله ان الموت أسهل عليّ من أن يطعنني لكنه استغفلني واغتالني » . فجعلت أسكنه وأهوّن الامر عليه . فردّ رأس فرسه راجعاً فقلت «الى أين يا أبا محمود ؟ » قال « الى سرهنك . والله لأطعننهُ أو لأموتنّ دونه»

فغاب ساعة واشتغلت أنا بمن مقابلي . ثم عاد وهو يضحك فقلت « ما عملت» فقال « طعنته والله . ولو لم أطعنه لفاضت روحي » . فحمل عليه في جمع أصحابه فطعنه وعاد (الاعتبار ٣٦)

---

(١) أول نيسان (ابريل) ١١٠٩ م

- ﴿ منزلة الفارس عند الافرنج ﴾ : والافرنج ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية الاّ للفرسان ، ولا عندهم ناس الاّ الفرسان — فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكم . وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس من الشعراء وبيننا وبينهم صلح ، وأنا إذ ذاك بدمشق . فقلت للملك فلك بن فلك « هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا وهو وقت ولاد الغنم . فولدت وماتت أولادها وردّها علينا بعد أن أتلفها » فقال الملك لستة سبعة من الفرسان « قوموا اعملوا له حكماً » فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد وعادوا الى مجلس الملك . فقالوا «قد حكمنا ان صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم » فأمره الملك بالغرامة فتوسل اليّ وثقل عليّ وسألني حتى أخذت منه اربع مائة دينار . وهذا الحكم بعد ان تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمي الافرنج يغيره ولا ينقضه . فالفارس أمر عظيم عندهم

ولقد قال لي الملك « يا فلان ، وحق ديني لقد فرحت البارحة فرحاً عظيماً » . قلت « والله يفرح الملك بماذا فرحت » قال « قالوا لي إنك فارس عظيم . وما كنت اعتقد انك فارس » قلت « يا مولاي ، أنا فارس من جنسي وقومي » . واذا كان الفارس دقيقاً طويلاً كان أعجب لهم (الاعتبار ٦٤)

٤ — العلاقات بين سكان سوريا

﴿ أهل دمشق ﴾ : ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد وبامتثال الخدمة وتعظيم الحضرة . واذا لقي أحد منهم آخر مسلماً يقول جاء المملوك او الخادم برسم الخدمة كناية عن السلام ، فيتعاطون المحال تعاطياً . والجد عندهم عنقاء مغرب وصفة سلامهم ايماء للركوع أو السجود فترى الأعناق تتلاعب ما بين رفع وخفض وبسط وقبض . وربما طالت بهم الحالة في ذلك فواحد ينحط وآخر يقوم وعمائمهم تهوي بينهم هوياً . وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء وعند استعراض رقيق الإماء ، فيا عجباً لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الحجال ! (ابن جبير ٢٩٥)

﴿ الغرباء في الشام ﴾ : وعلى كل من وفق الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم ان أحبَّ ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش ناعم البال ، وينهال الخبز عليهِ من الضيعة ويلتزم الامامة والتعليم أو ما شاءَ . ومتى سئم المقام خرج الى ضيعة أخرى أو يصعد الى جبل لبنان أو الى جبل الجودي فيلقى بها المريدين المنقطعين الى الله عزَّ وجلَّ فيقيم معهم ما شاءَ وينصرف الى حيث شاءَ . ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان اذا رأوا بهِ أحد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا اليهم ويقولون هؤلاءِ ممن انقطع الى الله عزَّ وجل فيجب مشاركتهم . وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا فيه أنواع الفواكه وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة ، وقلما يخلو من التبتيل والزهادة . واذا كانت معاملة النصارى لضدّ ملّتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض (ابن جبير ٢٨٧)

﴿ شجرة الميزان ﴾ : وقرية بيت جن هي بين جبال . ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت الى مدينة بانياس واعترضنا في نصف الطريق شجرة بلوط عظيمة الجرم متسعة التدويح أعلمنا انهـا تعرف بشجرة الميزان . فسألنا عن ذلك ، فقيل لنا هي حدٌّ بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحرامية الافرنج ، وهم الحواسة والقطاع . من أخذوه وراءها الى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أُسر ، ومن أُخذ دونها الى جهة بلاد الافرنج بقدر ذلك أُطلق سبيله . لهم في ذلك عهـد يوفون به وهو من أطرف الارتباطات الافرنجية وأغربها (ابن جبير ٣٠٠)

﴿ التمكيس ﴾ : واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بوادٍ ملتف الشجر ، وأكثر شجره الرند . بعيد العمق كأنهُ الخندق السحيق المهوي تلتقي حافتاه ويتعلق بالسماء أعلاه يعرف بالاسطبل لو ولجتهُ العساكر لغابت فيه ، ولا منجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه . المهبط اليـهِ والمطلع عنه عقبتان كؤودان فعجبنا من أمر ذلك المكان فأجزناه ومشينا عنهُ يسيراً وانتهينـا الى حصن كبير من حصون الافرنج ، يعرف بتبنين وهو موضع تمكيس القبائل ، وصاحبته تعرف بالملكة وهي أُم صاحب عكة . فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن ومكس الناس تمكيساً غير مستقص . والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس ولا اعتراض على التجار

لأنهم يقصدون موضع الملك وهو محل التعشير . والضريبة فيه قيراط من الدينار ، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً . وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم (ابن جبير ٣٠٠— ١)

﴿ العلاقات بين العرب والصليبيين ﴾ : ومن أعجب ما يحدث به ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقي الجمعان منهم ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . شاهدنا في هذا الوقت الذي هو شهر جمادى الاولى من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عساكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك ، وهو من أعظم حصون النصارى ، وهو المعترض في طريق الحجاز ، والمانع لسبيل المسلمين على البر ، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشقّ قليلاً وهو سرارة أرض فلسطين ، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة يذكر انهُ ينتهي الى أربعمائة قرية . فنازله هذا السلطان وضيّق عليه وطال حصاره . واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك

وتجار النصارى ايضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض . وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدّونها في بلادهم ، وهي من الامنة على غاية ، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم . والاتفاق بينهم الاعتدال في جميع الاحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية والدنيا لمن غلب

هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ولا تعترض الرعايا ولا التجار ، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً . وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنهُ (ابن جبير ٢٨٧)

﴿ المحاصة ﴾ : ورحلنا من تبنين سحر يوم الاثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلهم مسلمون وهم مع الافرنج على حالة ترفيه نعوذ بالله من الفتنة ، وذلك لأنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمّها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك . ولهم على ثمر الشجر ضريبة

خفيفة يؤدونها أيضاً ، ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم . وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل ، رساتيقها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم ، لأنهم على شد أحوالهم من الترفيه والرفق . وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين ان يشتكي الصنف الاسلامي صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك من الافرنج ويأنس بعدله (ابن جبير ٣٠١)

ومررنا في طريقنا بضيعة من ضياع عكة على مقدار فرسخ ورئيسها الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الافرنج على من فيها من عمارها من المسلمين . فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة وأحضرهم صغيراً وكبيراً في غرفة متسعة بمنزله وأنالهم ألواناً من الطعام قدمها فعمهم بتكرمته . وكنا فيمن حضر هذه الدعوة (ابن جبير ٣٠٢)

﴿ زفاف في صور ﴾ : زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الايام عند مينائها، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساءً واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال كأنهما من ذوي أرحامها وهي في أبهى زيّ وأفخر لباس تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة منسوجة وعلى لبتها مثل ذلك منتظم ، وهي رافلة في حليها وحللها تمشي فترى في مشي الحمامة أو سير الغمامة نعوذ بالله من فتنة المناظر . وأمامها جلة من رجالها النصارى في أفخر ملابسهم البهية تسحب أذيالها خلفهم ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين في أنفس الملابس ويرفلن في أرفل الحلى والآلات اللهوية قد تقدمتهم ، والمسلمون والنصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك ، فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها وأقاموا يومهم ذلك في وليمة ، قادنا الاتفاق الى رؤية هذا المنظر الزخرفي المستعاذ بالله من الفتنة فيه (ابن جبير ٣٠٥)

٥ — أخبار الطب والتطبيب

﴿ بالفصاد ينجو جريح ﴾ : وأصاب رجلاً من أصحابنا الشاميين جراحٌ كثيرة فجاءني أخوه وقال « أخي تالف . قد وقع فيهِ كذا وكذا جرح سيوف وغيرها ، وهو مغمور ما يفيق » قلت « ارجع افصده ».قال« قد خرج منهُ عشرون رطل دم » قلت « ارجع افصده ، فانا أخبر منك بالجراح . وليس له دواءٌ غير الفصاد » . فمضى غاب عني ساعتين ثم عاد وهو مستبشر . قال « أنا فصدته ؛ وهو أفاق وجلس وأكل وشرب وذهب عنه البؤس » . قلت «الحمد لله ، ولولا اني جرّبت هذا في نفسي عدة مرار ما وصفته لك » (الاعتبار ٣٣)

﴿ يداوي بالخل ﴾ وكان لابن بطلان إصابات عجيبة في الطب . فمن ذلك ان رجلاً أتاه ، وهو في دكانه بحلب ، والرجل قد انقطع كلامه فلا يكاد يفهم منه اذا تكلم . فقال له « ما صنعتك » قال « أنا مغربل » فقال «احضر لي نصف رطل خل حاذق فأحضره».فقال« اشربهُ » فشربهُ وجلسَ لحظة فذرعهُ القيء . فتقيأ طيناً كثيراً في ذلك الخل . فانفتح حلقه واستوى كلامه . فقال ابنَ بطلان لابنه وتلامذته «لا تداووا بهذا الدواء أحداً فتقتلوه . هذا كان قد علق بالمريء من غبار الغربلة تراب ما كان يخرجهُ الاّ الخل » (الاعتبار ١٨٤)

﴿ عجائب الطب الافرنجي ﴾ : ومن عجيب طبهم ان صاحب المنيطرة كتب الى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه . فأرسل اليه طبيباً نصرانيًّا يقال له ثابت . فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له « ما أسرع ما داويت المرضى » فقال « احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف . فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وأصلحت . وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم « هذا ما يعرف شيء يداويهم » فقال للفارس « أيما أحب اليك تعيش برجل واحدة او تموت برجلين » قال « أعيش برجل واحدة » قال «احضروا لي فارساً قويًّا وفأساً قاطعاً » . فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر

فحطّ ساقه على قرمة خشب وقال للفارس « اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها» نضربهُ ، وأنا أراه ، ضربة واحدة ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته . وأبصر المرأة فقال «هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها . احلقوا شعرها ، فحلقوه . وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف . فقال «الشيطان قد دخل في رأسها » فأخذ الموس وشقّ رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكّه بالملح ، فماتت في وقتها . فقلت لهم « بقي لكم اليّ حاجة ؟ » قالوا « لا » فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه

***

وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك . كان للملك خازن من فرسانهم يقال له برناد فرمحهُ حصان في ساقه فعملت عليه رجله وفتحت في أربعة عشر موضعاً والجراح كلما ختم موضع فتح موضع . فجاءه طبيب افرنجي فأزال عنه تلك المراهم بغسلها بالخل الحاذق . فختمت تلك الجراح وبرأ وقام مثل الشيطان

***

ومن عجيب طبهم انهُ كان عندنا بشيزر صانع يقال له أبو الفتح له ولد قد طلع في رقبته خنازير . وكلما ختم موضع فتح موضع . فدخل انطاكية في شغل له وابنهُ معهُ . فرآه رجل افرنجي فسأله عنهُ فقال « هو ولدي » . قال « تحلف لي بدينك ان وصفت لك دواء يبرئه لا تأخذ من أحد تداويه بهِ أجرة حتى أصف لك دواء يبرئه » . فحلف . فقال لهُ « تأخذ له أشناناً غير مطحون تحره وتربيه بالزيت والخل الحاذق وتداويه بهِ حتى يأكل الموضع . ثم خذ الرصاص المحرق وربّه بالسمن . ثم داوه بهِ فهو يبرئه » . فداواه بذلك فبرأ ، وختمت تلك الجراح ، وعاد الى ما كان عليه من الصحة

وقد داويت بهذا الدواء من طلع فيه هذا الداء فنفعه وزال ما كان يشكوه
(الاعتبار ١٣٢ — ٤)

٦ — محاكمات افرنجية

﴿ محاكمات افرنجية ﴾ : شهدت يوماً بنابلس وقد أحضروا اثنين للمبارزة . وكان سبب ذلك ان حرامية كبسوا ضيعة من ضياع نابلس فاتهموا بها رجلاً من الفلاحين وقالوا « هو دلّ الحرامية على الضيعة » . فهرب . فنفذ الملك فقبض أولاده . فعاد اليه وقال « انصفني ، أنا أبارز الذي قال عني اني دللت الحرامية على القرية » فقال الملك لصاحب القرية المقطع « احضر من يبارزهَ » . فمضى الى قريته وفيها رجل حدّاد فأخذه وقال لهُ « تبارز » اشفاقاً من المقطع على فلاحيه لا يقتل منهم واحد فتخرب فلاحته . فشاهدت هذا الحداد ، وهو شاب قوي إلاّ انهُ قد انقطع ، يمشي ويجلس يطلب ما يشربه ، وذلك الآخر الذي طلب البراز شيخ إلاّ انهُ قوي النفس يزجر وهو غير محتفل بالمبارزة . فجاءَ البسكند وهو شحنة البلد ، فأعطى كل واحد منهما العصا والترس ، وجعل الناس حولهم حلقة

والتقيا فكان الشيخ يلز ذلك الحـداد ، وهو يتأخر حتى يلجئه الى الحلقة ، ثم يعود الى الوسط . وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم . فطال الامر بينهما والبسكند يستعجلهما وهو يقول بالعجلة . ونفع الحـداد إدمانه بضرب المطرقة . وأعيي ذلك الشيخ . فضربه الحداد ، فوقع ، ووقعت عصاه تحت ظهره فبرك عليهِ الحداد يداخل أصـابعه في عينيه ولا يتمكن من كثرة الدم من عينيه . ثم قام عنهُ وضرب رأسه بالعصا حتى قتله . فطرحوا في رقبته في الوقت حبلاً وجرّوه وشنقوه . وجاءَ صاحب الحداد أعطاه غفارته وأركبه خلفه وأخذه وانصرف

وهذا من جملة فقههم وحكمهم

ومضيت مرة مع الامير معين الدين ، رحمه الله الى القدس . فنزلنـا نابلس . فخرج الى عنده رجل أعمى ، وهو شاب عليـه ملبوس جيد مسلم ، وحمل له فاكهة وسأله في أن يأذن له في الوصول الى خدمته الى دمشق ففعل . وسألت عنه فخبرت ان أمه كانت مزوجة لرجل افرنجي ، فقتلته . وكان ابنها يحتال على حجاجهم ويتعاون هو وأمه على قتلهم ، فأتهموه بذلك وعملوا له حكم الافرنج . جلـسوا بتّـية عظيمة وملأوها ماءً وعرضوا عليها دف خشب وكتفوا ذلك المتهم وربطوا في كتافه حبلاً ورموه في البتية — فان كان بريّـا غاص في الماء ، فرفعوه بذلك الحبل لا يموت في الماء ،

وان كان له الذنب ما يغوص في الماء . فحرص ذلك لما رموه في الماء ان يغوص، فما قدر فوجب عليه حكمهم (الاعتبار ١٣٨ — ٩)

ألقي القبض على أحد الفرسان في دار للدعارة ، فخيّر الفارس بين أمرين : إما أن تجرّه المرأة التي وجد معها عبر المعسكر وهو يرتدي قميصاً فقط . وإما أن يؤخذ منه سيفه وحصانه ويطرد ، فاختار الامر الثاني . وكانت هذه العقوبة حسب عادات البلاد (جوانفيل ٢٦٢)

بينما كان جماعة من فرساننا يتصيدون الغزلان طلع عليهم فريق من فرسان المستشفى وأجلوهم عن صيدهم . فشكوت هذا الفريق الى رئيسهم ، فوعدني ان يعاقبهم حسب ما تقضي به عادات البلاد ، وذلك انهُ أمرهم ان يأكلوا وهم جلوس على اقبائهم أياماً حتى يأتي المعتدى عليهم وينهضوهم ، وعندئذٍ يزول الحقد من الصدور (جوانفيل ٢٦٣)

٧ — الصيد

﴿ الصيد ﴾ : وكنت قد مضيت مع الأمير معين الدين ، رحمه الله ، الى عكا الى عند ملك الافرنج فلك بن فلك . فرأينا رجلاً من الجنوية قد وصل من بلاد الافرنج ومعه باز كبير مقرنص يصيد الكركي ، ومعه كلبة صغيرة اذا أرسل الباز على الكركي عدت تحته . فاذا أخذ الكركي وحطهُ عضتهُ فلا يقدر على الخلاص منها . وقال لنا ذلك الجنوي « ان الباز عندنا اذا كان ذنبه ثلاث عشرة ريشة اصطاد الكركي » فعددنا ذنب ذلك الباز فكان كذلك

فطلبهُ الأمير معين الدين ، رحمه الله ، من الملك فأخذه من ذلك الجنوي هو والكلبة وأعطاه للامير معين الدين : فجاء معنا . فرأيته في الطريق يثب الى الغزلان كما يثب الى اللحم . ووصلنا بهِ الى دمشق . فما طال عمره بها ولا صاد شيئاً ومات (الاعتبار ١٩٦١)

وكان الوالد أكثر ما يستدعي البزاة ويشتريها من وادي ابن الأحمر بالغلاء . فأحضر قوماً من أهل الجبل القريب من شيزر من أهل بشيلا ويسماخ وحلة عارا وتحدّث معهم في أن يعملوا في مواضعهم مصايد للبزاة ، ووهبهم وكساهم ، فمضوا

وعملوا بيوت الصيد . فاصطادوا بزاة كثيرة فراخاً ومقرنصة وزرارق . فحملوها الى الوالد وقالوا « يا مولانا ، نحن قد بطلنا معايشنا وزراعتنا في خدمتك ، ونشتهي ان تأخذ منا كل ما نصيده وتقرّر لنا ثمناً نعرفهُ لا نتجاذب فيهِ . فقرّر ثمن الباز الفرخ خمسة عشر ديناراً ، وثمن الزرّق المقرنص نصفها . وانفتح للجبليين أخذ دنانير بغير كلفة ولا تعب . انما يعمل لهُ بيتاً بحجارة على قد خلقته ، ويغطيه بعيدان ويسترها بقش وحشيش ويجعل له نافذة . ويأخذ طير حمام يجمع رجليه على قضيب ويشدها اليه ويخرجهُ من تلك النافذة . يحرّك العود فيتحرّك الطير ويفتح أجنحته ، فيراه الباز ينقلب عليه يأخذه . فاذا أحسّ بهِ الصيّاد جذب القضيب الى النافذة ومدّ يده قبض رجلي الباز ، وهو قابضٌ للطير الحمام ، وأنزلهُ اليهِ وخيط عينيه . ويصبح من الغد يصلنا بهِ ، يأخذ ثمنه ويعود الى بيته بعد يومين (الاعتبار ٢٠٠)

❁ الصيد مع زنكي ❁ : وقد شاهدت صيد ملك الأمراء أتابك زنكي ، رحمه الله . وكان لهُ الجوارح الكثيرة . فرأيتهُ ونحن نسير على الأنهار فيتقدم البازدارية بالبزاة ترميها على طيور الماء وتدق الطبول كجاري العادة فتتصيَّد منها ما تصيده وتخطىء ما تخطىء ووراءهم الشواهين الكوهية على أيدي البازدارية . فاذا اصطادت البزاة وأخطأت ارسلوا الشواهين الكوهية على الطيور وقد أبعدت فتلحق وتصيد . وترسل على الحجل فتلحق الحجل في طلوعها في سفح الجبل فتصيد . فانها من سرعة الطيران على صفة عجيبة (الاعتبار ١٩٢)

٨ — في جنوب سوريا

❁ سكان جنوب سوريا ❁ : بينما نحن في الطريق (بين نابلس والقدس) قابلتنا جماعة كبيرة من المسلمين يقودون الثيران والحمير وهم في طريقهم لحرث سهل واسع جميل . . . وقد أثاروا في نفوسنا غير قليل من الذعر . . . والحق انهُ يقيم في تلك الجهات عدد كبير منهم ، كما يقيمون في المدن والقلاع ويعيشون من العمل في الأرض تحت إشراف ملك القدس أو رئيس الفرسان الهيكليين (ثيودوريتش ٦١)

❁ بدو ❁ : فجمعتهم ورأيت بهم من الضرّ أمراً عظيماً . قد يبست جلودهم على عظامهم . قلت : « ايش أنتم ؟ » . قالوا : « نحن من بني أبي » وبنو أبي فرقة من العرب من طيّء

لا يأكلون الا الميتة ويقولون « نحن خير العرب . ما فينا مجذوم ولا أبرص ولا زمن ولا أعمى » . واذا نزل بهم الضيف ذبحوا له وأطعموه من غير طعامهم

قلت : « ما جاء بكم الى ها هنا ؟ » . قالوا : « لنا بحسمي كشبول ذرة مطمورة جئنا نأخذها » . قلت : « فمن أين تعيشون ؟ » . قالوا : « من الرمة (يعنون العظام البالية الملقاة) ندقها ونعمل عليها الماء وورق القطف (شجر بتلك الارض) ونتقوت به » . قلت : « كلابكم وحمركم ؟ » . قالوا : «الكلاب نطعمهم من عيشنا ، والحمر تأكل الحشيش » . قلت : « فلِمَ لا دخلتم الى دمشق ؟ » . قالوا : « خفنا الوباء » . ولا وباء أعظم مما كانوا فيه وكان ذلك بعد عيد الاضحى

فوقفت حتى جاءت الجمال ، وأعطيتهم من الزاد الذي كان معنا ، وقطعت فوطة كانت على رأسي وأعطيتها للمرأتين . فكادت عقولهم تزول من فرحهم بالزاد . وقلت لا تقيموا ها هنا يسبوكم الافرنج (الاعتبار ١٢)

٩ — موكب أميرة

﴿ موكب أميرة ﴾ : وفي تلك العشية التي رحلنا فيها جاءتنا خاتون المسعودية المترفة شباباً وملكاً وهي قد استقلت في هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مطيتين الواحدة أمام الأخرى وعليهما الجلال المذهبة وهما يسيران بها سير النسيم سرعة وليناً ، وقد فتح لها امام الهودج وخلفه بابان ،وهي ظاهرة في وسطه متنقبة وعصابة ذهب على رأسها ، وأمامها رعيل من فتياتها وجندها ، وعن يمينها جنائب المطايا والهماليج العتاق ، ووراءها ركبٌ من جواريها قد ركبن المطايا والهماليج على السرج المذهبة وعصبن رؤوسهن بالعصائب الذهبيات والنسيم يتلاعب بعذباتهن وهن يسرن خلف سيدتهن سير السحاب ، ولهن الرايات والطبول والبوقات تضرب عند ركوبها وعند نزولها،وأبصرنا من نخوة الملك والنساء واحتفاله رتبة تهز الأرض هزاً ، وتسحب أذيال الدنيا عزاً (ابن جبير ٢٣٠—١)

الفصل الرابع

الشرق العربي في القرن الثالث عشر

١ — سوريا

﴿ عكا ﴾ : عكا مدينة حصينة بأسوارها وأبراجها وخنادقها وبقيـة أعمال التحصين ذات القوة الهائلة . . . يحيط بها من الشرق سهل متسع خصب جداً سواء في ذلك أرضه المفتلح ومروجه وكرومه وبساتينه التي تنمو فيهـا أنواع مختلفة من الفاكهة . وفي داخل المدينة أمكنة كثيرة محصنة وقلاع وحصون تخص الفرق المختلفة كفرقة المستشفى أو فرقة الهيكليين أو الجماعة التيوتونية . وعكاء يملكها ملك القدس ، ولها ميناء كبيرة جيدة في جنوبها تستطيع السفن أن ترسو فيها (بركارد ٩)

﴿ صور ﴾ : دورة سور صور بها أكبر ، في رأيي ، من دورة سور عكا . . . وقد أقمت فيها مرة عشرة أيام . . والماء في جهاتها كثير ، وأهل صور يوزعون المياه على كل أجزاء السهل المحيط بالمدينة فيروون البساتين التي ينمو فيها الكرم وقصب السكر ، وهو كثير ، وينال صاحب صور منه رسوماً كثيرة (بركارد ١٠ — ١٢)

﴿ نابلس ﴾ : تقع نابلس بين جبلين وهي جميلة ، مليئة بالخيرات ، لكنها ليست محصنة ، ولا يمكن أن تحصن . وكل ما يستطيع أهلها أن يفعلوه اذا هاجمهم الاعداء من باب ، أن يهربوا من الباب الآخر (بركارد ٥٣)

ولا يمكن تحصينها لأنهُ من السهل رمي الحجارة من الجبل الى داخلها ، ولا فائدة من التحصين (سنودو ١٣)

***

القطن ينمو في أنجم يبلغ طولها الى ركبة الرجل . . . وينمو قصب السكر . . . وداخله مليء بمادة مسامية رطبة . يجمع القصب ويقطع صغيراً ويعصر ويغلى العصير الذي يخرج منهُ ، ومتى صار لزجاً يوضع في سلال مصنوعة من العساليج ، فيجف ويصبح صلباً . وهكذا يصنع السكر . ويتقطر منهُ قبل أن يجفّ سائل يسمى عسل السكر ، وهو لذيذ ويستعمل في صنع الكعك

ويزرع قصب السكر بطريق العُقَل . وموعد غرسه في فصل الربيع

وبعد أن يعدد البرتقال والليمون والخوخ يشير الى الموز ويسميه الجنة ، ويصفهُ باسهاب

وخمر الأرض المقدسة جيد ولذيذ (بركارد ٩٩ وما بعدها)

٢ — بغداد

بغداد مدينة كبيرة وهي مقرُّ الخليفة . ويخترق المدينة نهر كبير ينقل عليه التجار بضائعهم من البحر الهندي واليه ، والمدة تقدَّر بسبعة عشر يوماً لان النهر كثير التعرج . . . ويمرُّ الملاحون في طريقهم من بغداد الى البحر هذا بمدينة البصرة ، التي تحيط بها حدائق النخيل . وتمرها أجود تمر في العالم

ويصنع في بغداد الحرير المذهب والدمقس والمخمل (القطيفة) الموشّى برسوم الطيور والحيوان . وأكثر اللآلىء التي تحمل الى ديار الغرب تنقب في بغداد

وبغداد مدينة علم فالشريعة الاسلامية والطبيعة والفلك وفنون السحر وعلم القيافة تدرس فيها

والحق ان بغداد أنبل وأوسع مدينة في هذا الجزء من العالم (ماركو بولو ٣٠ — ٣١)

٣ — مصر

﴿ دلتا مصر ﴾ وفاضت مياه الأنهر السبعة على الارض وغمرت السهل . ولما انحسرت المياه ذهب الفلاحون الى الأرض وحرثوها ، ومحاريثهم لا عجلات لها ... ثم بذروا القمح والشعير والارز . . . وقد أعطت هذه كلها غلة لا نظير لها . وليس يعرف أحدٌ لماذا تفيض المياه ، لكنها تعزى الى إرادة الله . . . واذا لم يفض النهر فلا ينمو زرع ولا نبات، لأن الحرّ شديد والمطر لا ينزل هناك . . . ومياه النهر عكرة باستمرار ، لذلك يحمل القوم الماءَ مساءً الى بيوتهم ويضعون فيه أربع حبات من اللوز المقشور ، أو من الفول ، وفي الصباح تكون المياه رائقة فيشربونها (جوانفيل ١٨٢)

﴿ البلسان ﴾(١) ومن ذلك البلسان فانهُ لا يوجد اليوم إلاّ بمصر بعين شمس في موضع محاط عليه محتفظ بهِ مساحته نحو سبعة أفدنة ، وارتفاع شجرته نحو ذراع وأكثر من ذلك ، وعليها قشران الأعلى أحمر خفيف والأسفل أخضر ثخين ، واذا مضغ ظهر في الفم منهُ دهنيته ورائحة عطره . وورقه شبيه بورق السنداب ، ويجتنى دهنه عند طلوع الشعرى بأن تشدخ السوق بعد ما يحت عنها جميع ورقها ، وشدخها يكون بحجر يتخذ محدداً ويفتقر شدخها الى صناعة بحيث يقطع القشر الأعلى ويشق الأسفل شقاً لا ينفذ الى الخشب فان نفذ الى الخشب لم يخرج منه شيء . فاذا شدخه كما وصفنا أمهله ريثما يسيل لثاه على العود فيجمعه بأصبعه مسحاً الى قرن . فاذا امتلأ صبه في قناني زجاج ولا يزال كذلك حتى ينتهي جناه وينقطع لثاه ، وكلما كثر الندى في

---

(١) شغل زيت البلسان ونباته جميع الكتاب والرحالين في العصور الوسطى فذكره ولبولد وحمل بعضه من فلسطين (Early Travels 12) وأشار اليه الحاج المجهول في القرن الثاني عشر ويقول ان المصريين سرقوه من فلسطين (راجع Anonymous Pilgrims V. 2 p. 34) أما بركارد فيقول انه كان يزرع حول عين جدي — على شاطىء البحر الميت — لكن كليوباترة نقلته من هناك الى مصر (ص ٦٢) وينقل سنودو هذه الرواية عن بركارد (ص ٣١) ثم يصف حديقة البلسان في القاهرة (ص ٥٩) وكذلك فون سوخم (ص ٦٨—٧٠) ويضيف ان الثيران التي تدير ناعورة الماء في حديقة البلسم بالمطرية تمتنع عن العمل من ظهر السبت الى ظهر الاحد من كل أسبوع . وقد وصف مندفيل هذه الحديقة (ص ١٥٢) . راجع بحثاً مفصلا عنه في Heyd, II pp. 576 ff

الجوّ كان لثاه أكثر وأغزر ، وفي الجدب وقلة الندى يكون اللثا أنزر . ومقدار ما أخرج منه في سنة ست وتسعين وخمسمائة وهي عام جدب نيف وعشرون رطلاً . ثم تؤخذ القناني فتدفن الى القيظ وحمارة الحرّ وتخرج من الدفن وتجعل في الشمس ثم تتفقد كل يوم فيوجد الدهن وقد طفا فوق رطوبة مائية وأثقال أرضية . فيقطف الدهن ثم يعاد الى الشمس أو لا يزال كذلك يشمسها ويقطف دهنها حتى لا يبقى فيها دهن فيؤخذ ذلك الدهن ويطبخه قيمه في الخفية لا يطلع على طبخه أحداً ثم يرفعه الى خزانة الملك . ومقدار الدهن الخالص من اللثا بالترويق نحو عشر الجملة . وقال لي بعض أرباب الخبرة ان الذي يحصل من دهنه نحو من عشرين رطلاً ، ورأيت جالينوس يقول ان أجود دهن البلسان ما كان بأرض فلسطين وأضعفه ما كان بمصر. ونحن فلا نجد اليوم منه بفلسطين شيئاً البتة (البغدادي ٢٢)

ومما تختصّ به مصر الأفيون . وهو يجتنى من الخشخاش الأسود بالصعيد وكثيراً ما يغشُّه جُناته وربما غشوه بالعذرة . وعلامة الخالص منه ان يذوب في الشمس ويتقد في السراج بلا ظلمة واذا طفي تكون رائحته قوية ، والمغشوش يسوّس سريعاً (البغدادي ٢٨)

﴿ أبنية مصر ﴾ : وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية ، حتى انهم قلما يتركون مكاناً غفلاً خالياً عن مصلحة . ودورهم أفيح وغالب سكناهم في الاعالي ويجعلون منافذ منازلهم تلقاءَ الشمال والرياح الطيبة ، وقلما تجد منزلاً الاّ وتجد فيه باذاهيج . وباذاهيجاتهم كبار واسطة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الإحكام حتى انهُ يقوم على عمارة الواحد منها ماية دينار الى خمسمائة ، وان كانت باذاهيجات المنازل الصغار يغرم على الواحد منها دينار . وأسواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة . ويبنون بالحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الآجر ، وشكل طوبهم على نصف طوب العراق

ويحكمون قنوات المراحيض حتى انهُ تخرب الدار والقناة قائمة ، ويحفرون الكنف الى المعين فتغبر عليها برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر الى كسح . واذا أرادوا بناءَ رَبع أو دار ملكية أو قيسارية استحضر المهندس وفوّض اليه العمل فيعمد الى العرصة ، وهي تل تراب او نحوه ، فيقسمها في ذهنه ويرتبها بحسب ما يقترح عليه

ثم يعمد الى جزء آخر ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال الاجزاء من غير خلل ولا استدراك (البغدادي ٥٢)

﴿ أطعمة مصرية ﴾ : ومن غريب ما يتخذونهُ رغيف الصينية ، وصفته ان يؤخذ من الدقيق الحواري ثلاثون رطلاً بالبغدادي ويعجن مع خمسة ارطال ونصف سيرجاً عجن خبز الخشكنان . ثم يقسم بقسمين ويبسط أحدهما رغيفاً في صينية نحاس قد اتخذت لذلك ، سعة قطرها نحو أربعة أشبار ولها عرى وثيقة ثم يعبي على الرغيف ثلاثة أخرفة مشوية محشوّة الأجواف بلحم مدقوق ومقلوّ بالسيرج والفستق المهروس والأفاويه العطرة الحارة كالفلفل والزنجبيل والقرفة والمصطكى والكزبرة والكمون والهال والجوزة ونحو ذلك. ويرشّ عليه ماء ورد قد ديف فيه مسك ثم يجعل على الخرفان. وبين خلالها عشرون دجاجة وعشرون فروجاً وعشرون فرخاً بعضهُ مشوي محشو بالبيض وبعضهُ محشوّ باللحم وبعضه مطجن بماء الحصرم او بماء الليمون او بنحو ذلك. ثم يشور بالسنبوسك والقهاقم المحشوّة باللحم بعضها ، وبالسكر والحلوى بعضها . وان شئت ان تزيده خروفاً آخر تتخذه شرائح فلا بأس . وكذا جبناً مقلوّا فاذا نضد ذلك وصار كالقتة نضح عليه ماء ورد قد ديف فيه مسك وعود ثم غطي بالقسم الثاني من العجين بعد ان يمدّ رغيفاً ويلحم بين الرغيفين كما يلحم الخشكنان بحيث لا يخرج منهُ نفس أصلاً . ثم يقرّب الى رأس التنور حتى يتماسك عجينه ويبتدىء في النضج فحينئذٍ ترسل الصينية في التنور بعراها رويداً رويداً . ويصبر عليه ريثما ينضج الخبز ويتورّد ويحمر ثم يخرج ويمسح بأسفنجة فيرش عليه ماء ورد ومسك ويرفع للاكل . وهذا الصنيع يصلح ان يحمل مع الملوك وأرباب الترف الى منضداتهم النائية ومتنزهاتهم النازحة. فانهُ وحده جملة فيها تفضيل سهل المحمل عسر التشعث جميل المنظر مشكور المخبر يحفظ الحرارة مدة طويلة

وأما عوامهم فقلما يعرفون شيئاً من ذلك . وأكثر أغذيتهم الصير والصحناة والدلينس والخبز والنيدة ونحو ذلك . وشرابهم المزر وهو نبيذ يتخذ من القمح . ومنهم أصناف يأكلون الفار المتولد في الصحاري والغيطان عند انحطاط النيل ويسمونه سماني الغيط . وبالصعيد قوم يأكلون الثعابين والميتات من الحمير والدواب . وبأسافل الأرض قد يتخذ نبيذ من البطيخ الأخضر . وبدمياط يكثر أكل السمك ويطبخ بكل ما يطبخ به اللحم من الرزّ السماق والمدققات وغير ذلك (البغدادي ٥٦)

﴿ الترقيد ﴾ : من ذلك حضانة الفراريج بالزبل فانهُ قلما ترى بمصر فراريج عن حضان الدجاجة وربما لم يفرقوه أيضاً . وانما ذلك عندهم صناعة ومعيشة يتجر فيها ويكتسب منها . وتجد في كل بلد من بلادهم مواضع عدة تعمل ذلك . ويسمى الموضع معمل الفروج . وهذا المعمل ساحة كبيرة يتخذ فيها من البيوت التي يأتي ذكرها ما بين عشرة أبيات الى عشرين بيتاً في كل بيت الفا بيضة ويسمى بيت الترقيد . وصفته أن يتخذ بيت مربع طوله ثمانية أشبار في عرض ستة في ارتفاع أربعة ويجعل لهُ باب في عرضهِ سعته شبران وعقد في مثلهِ وتجعل فوق الباب طاقة مستديرة قطرها شبر ثم تسقف بأربع خشبات وفوقها سدة قصب يعني نسيجاً منهُ وفوقهُ ساسي وهو مشاقة الكتان وحطبه . ومن فوق ذلك الطين ثم يرصص بالطوب ويطين سائر البيت ظاهره وباطنه وأعلاه وأسفلهُ حتى لا يخرج منهُ بخار . وينبغي أن تتخذ في وسط السقف شباكاً سعته شبر في شبر فهذا السقف يحكي صدر الدجاجة . ثم تتخذ حوضين من الطين المخمر بساس طول الحوض ستة أشبار وعرضه شبر ونصف وسمكه عقدة أصبع وحيطانه نحو أربع أصابع، ويكون هذا الحوض لوحاً واحداً تبسطهُ على أرض معتدلة . وهذا الحوض يسمى الطاجن فاذا جف الطاجنان ركبتهما على طرف السقف أحدهما على وجه الباب والآخر قباله على الطرف الآخر تركيباً محكماً وأخذت وصولهما بالطين أخذاً متفقاً . وينبغي أن يكون قعود الطاجنين على خشب السقف بحيث يماسانه وهذان الطاجنان تحاكي بهما جناحا الدجاجة ثم يفرش البيت بقفة تبن ويمهد ويفرض فوقه ضب أوديس يعني حصيراً برديًّا على مقداره سواء ، ثم يرصف فوقه البيض رصفاً حسناً بحيث يتماسّ ولا يتراكب لتتواصل الحرارة فيه . ومقدار ما يسع هذا البيت المفروض الفا بيضة . وهذا الفعل يسمى الترقيد . صفة الحضانة تبتدىء وتسد الباب بأن ترسل عليه لبداً مهندماً ثم تسد الطاقة بساسي والشباك أيضاً بساسي وفوقه زبل حتى لا يبقى في البيت منفس للبخار . وتلقى في الطاجنين من زبل البقر اليابس قفتين وتوقد فيهِ نار سراج من جميع جهاتهِ وتهملهُ ريثما يرجع رماداً وأنت تتفقد البيض ساعة بعد أخرى بأن تضعهُ على عينك ، وتعتبر حرارتهُ . وهذا الفعل يسمى الزواق ، فان وجدتهُ يلذع العين قلبتهُ ثلاث تقلبات في ثلاث دفعات تجعل أسفلهُ أعلاه وأعلاه أسفلهُ . وهذا يحاكي تقليب الدجاجة للبيضة بمنقارها وتفقدها إياها بعينيها وهذا يسمى السماع الأول . فاذا صار الزبل رماداً أزلتهُ وتركتهُ بلا نار الى

نصف النهار ان كان ترقيده بكرة . وان كان ترقيـده من أول الليل حرمته الى ان تحمى وتسمع النار كالسياقة المتقدمة . ثم تخلي الطاجنين من النار الى بكرة ثم تجعل في الطاجن الذي على باب البيت من الزبل ثلاثة أقداح وفي الطاجن الذي على صـدر البيت قدحين ونصفاً . ومدّ الزبل بعود غليظ واطرح في كل منهما النار في موضعين منه وكلما خرجت من البيت بعد تفقده فارخِ الستر ، وإياك وان تغفل عنه لئلا يخرج البخار ويدخل الهواء فيفسد العمل . واذا كان وقت العشاء وصار الزبل رماداً ونزل الدفء الى البيض أسفل البيت فغيّر الرماد من الطاجن بزبل جديد مثل الأول وأنت كل وقت تلمس البيض وتزوقهُ بعينك فان وجدت حرارته زائدة عن الاعتدال تلذع العين فاجعل مكان الثلاثة الاكيال في طاجن الباب كيلين وربعاً وفي طاجن الصـدر كيلين فقط . ولا تزال تواصل تغيير الرماد وتجديد الزبل والايقاد حتى لا ينقطع الدفء مدة عشرة أيام بمقدار ما تكمل الشخوص بمشيئة الله وقدرته ، وذلك نصف عمر الحيوان ، ثم تدخل البيت بالسراج وترفع البيض واحدة واحـدة وتقيمها بينك وبين السراج ، فالتي تراها سوداء ففيها الفرخ والتي تراها شبه شراب أصفر في زجاج لا عكر فيهِ فهي لاح بلا بذر ، وتسمى الارملة فأخرجها فلا منفعة فيها . ثم تصبح بعد التلويح تنقص الزبل من العيار الاول ملء كفك من كل حوض بكرة ومثله عشية حتى ينصرم اليوم الرابع عشر ولم يبق من الزبل شيءٌ ، فحينئـذ يكمل الحيوان ، ويشعرن وينفتح ، فاقطع إذن النار عنهُ فان وجـدتهُ زائد الحرارة يحرق العين فافتح الطاقة التي على وجه الباب وأبقها كذلك يومين ثم ذقه على عينك فان وجـدته غالب الحرارة فافتح نصف الشباك وأنت مع ذلك تقلبهُ وتخرج البيض الذي في الصدر الى جهة الباب والبيض الذي في جهة الباب ترده الى الصدر حتى يحمى البارد الذي كان في جهة الباب ويستريح الحار الذي في الصدر بشم الهواء فيصير في طريقة الاعتدال ساعة يحمى وساعة يبرد ، فيعتدل مزاجه . وهذا الفعل يسمى الحضانة كما يفعل الطير سواء . وتستمر على هذا التدبير دفعتين في النهار ودفعة في الليل الى تمام تسعة عشر أيضاً فان الحيوان ينطق في البيض بقدرة الله تعالى وفي يوم العشرين يطرح بعضـه ، ويكسر القشر ويخرج وهذا يسمى التطريح . وعند تمام اثنين وعشرين يوماً يخرج جميعه، وأحمد الأوقات لعمله امشير وبرمهات وبرمودة وذلك في شباط واذار ونيسان ، لأن البيض في هذه المدة يكون غزير الماء كثير البذرة صحيح المزاج ، والزمان معتدل صالح

النشأة والتكوين وينبغي ان يكون البيض طريًّا . وفي هـذه الأشهر يكثر البيض أيضاً [١] (البغدادي ٣٠ — ٣٢)

﴿ القحط في مصر سنة ٥٩٧ هـ ﴾ : وأول من هلك في هذه الطريق أهل الحرف عند ما انتجعوا الى الشام وانتشروا في هذه المسافة مع طولها كالجراد المحسوس . ولم تزل تتواصل هلكاهم الى الآن . وانتهى انتجاعهم الى الموصل وبغداد وخراسان وإلى بلاد الروم والمغرب واليمن ومزقوا كل ممزّق (البغدادي ٦٧)

وأما خراب البلاد والقرى وخلوّ المساكن والدكاكين فهو مما يلزم هذه الجملة التي اقتصصناها . وناهيك ان القرية التي كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تمرّ عليها فتراها دمنة ، وربما وجد فيها أحد وربما لم يوجد . وأما مصر فخلا معظمها وأما بيوت الخليج وزقاق البركة .والمقس وما تاخم ذلك فلم يبق فيها بيت مسكون أصلاً ، بعد ما كان كل قطر منها قدر مدينة زحمة من الناس حتى ان الرباع والمساكن والدكاكين التي في سرّة القاهرة وخيارها أكثرها خالٍ خراب . وان ربعاً في أعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتاً كلها خالية سوى أربعة أبيت أسكنت من يحرس الموضع

ومما يقضي منه العجب ان جماعة من الذين ما زالوا مجدودين سعدوا في دنياهم هذه السنة فمنهم من أثرى بسبب متجره في القمح ، ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل اليه بالارث، ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معروف . فتبارك من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته قسط (البغدادي ٦٨)

وحكي لي انه كان بمصر تسع مائة منسج للحصر ، فلم يبق الاّ خمسة عشر منسجاً . وقسْ على هذا لسائر ما جرت العادة ان يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين وأساكفة وخياطين وغير ذلك من الاصناف فانه لم يبق من كل صنف من هؤلاء الاّ نحو ما بقي من الحصريين او أقل من ذلك (البغدادي ٦٩)

﴿ حوادث الجوع ﴾ : ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع في السوق وقد ظهر

---

(١) راجع ايضاً سوخم ص ٦٧ ومندفيل ص ١٥٢ . وقد روى القلقشندي ان أحد الناس أراد أن يرقد البيض في الشام نطالع له ذلك في الصيف ولم يطالع في غير ذلك (صبح الاعشى ٤: ٨٨)

معها صغير مشوي تأكل منه ، وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شؤونهم وليس فيهم من يعجب لذلك او ينكره . فعاد تعجبي أشدّ وما ذلك الاّ لكثرة تكرّره على إحساسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحق ان يتعجب منه . (البغدادي ٦٢)

وظهر من هؤلاء الخبثاء من يصيد الناس بأصناف الحبائل ويجتلبونهم الى مكانهم بأنواع المخاتل ، وقد جرى ذلك لثلاثة من الاطباء ممن ينتابني . أما احدهم فان أباه خرج فلم يرجع ، وأما الآخر فان امرأة أعطته درهمين على ان يصحبها الى مريضها فلما توغلت بهِ في مضايق الطرق استراب وامتنع عنها وشنع عليها فتركت درهميها ، وأما الثالث فان رجلاً استصحبهُ الى مريضه في الشارع بزعمه وجعل في أثناء الطريق يصدف بالكسر ويقول اليوم يغتنم الصواب ويتضاعف الاجر ولمثل هذا فليعمل العاملون ، ثم كثّر حتى ارتاب منهُ الطبيب . ومع ذلك فحسن الظن يغلبهُ وقوة الطمع تجذبهُ حتى أدخلهُ داراً خربة فزاد استشعاره وتوقف في الدرَج وسبق الرجل فاستفتح فخرج اليهِ رفيقهُ يقول لهُ هل مع إبطائك حصل صيد ينفع ، فخرج الطبيب لما سمع ذلك ، وألقى نفسه الى اصطبل من طاقة صادفها . فقام اليه صاحب الاصطبل يسأله عن قضيته فأخفاها عنهُ خوفاً منهُ أيضاً ، فقال قدعلمت حالك فان أهل هذا المنزل يذبحون الناس بالحيل (البغدادي ٦٣)

وهذه البلية التي شرحناها وجدت في جميع بلاد مصر ليس فيها بلد إلاّ وقد أكل فيهِ الناس أكلاً ذريعاً من أسوان وقوص والفيوم والمحلة والاسكندرية ودمياط وسائر النواحي (البغدادي ٦٥)

وأما القتل والفتك في النواحي فكثير فاشٍ في كل فجّ ولاسيما طريق الفيوم والاسكندرية . وقد كان بطريق الفيوم ناس في مراكب يرخصون الأجرة على الركاب فاذا توسطوا بهم الطرق ذبحوهم وتساهموا أسلابهم . وظفر الوالي منهم بجماعة فمثّل بهم وأقرّ بعضهم عندما أوجع ضرباً ان الذي خصهُ دون رفقائهِ ستة آلاف دينار

وأما موت الفقراء هزالاً وجوعاً فأمرٌ لا يطيق علمهُ إلاّ الله سبحانهُ وتعالى وانما نذكر منهُ كالأنموذج يستدلّ بهِ اللبيب على فظاعة الأمر

فالذي شاهدناه بمصر والقاهرة وما تاخم ذلك ان الماشي أين كان لا يزال يقع

قدمه أو بصره على ميت ومن هو في السياق أو على جمع كثير بهذه الحال . يرفع عن القاهرة خاصة الى الميضـأة كل يوم ما بين مائة الى خمسمائة ، وأما مصر فليس لموتاها عدد ، ويرمون ولا يوارون . ثم بآخره عجـز عن رميهم فبقوا في الاسواق بين البيوت والدكاكين . وفيهـا الميت منهم قد تقطع والى جانبهِ الشوّاء والخباز ونحوه (البغدادي ٦٦).

وأما طريق الشام فقد تواترت الاخبار انها صـارت مزرعة لبني آدم بل محصرة وانهُ عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع وان كلابهم التي صحبتهم من منجلاهم هي التي تأكل فيهم (البغدادي ٦٧)

﴿ الدجاج ﴾ : وأما الدجاج فعدم رأساً لولا انهُ جلب منه شيء من الشام . وحكي لي ان رجلاً مصريًّا شارف الفقر فألهم ان اشترى من الشام دجاجاً بستين ديناراً وباعها بالقاهرة على القهاطين بنحو ثماني مائة دينار . ولما وجد البيض بيع بيضة بدرهم ثم بيضتين ثم ثلاثاً ثم أربعاً واستمرّ على ذلك . وأما الفراريج فبيع الفروج بمائة درهم ولبث برهة يباع الفروج بدينار فصاعداً

﴿ الأملاك ﴾ : وأما الأملاك ذات الأجر المعتبرة فان معظمها خلا أو لم يبقَ دأب أهلها إلاّ حراستها بسد أبوابها وتحصين مسالكها أو إسكانها من يحرسها بأجرة الله إلاّ ما كان من الملك في قصبة المدينة فان بعضه مسكون بأخف أجرة وأعرف ربعاً في أعمر موضع بالمدينة كانت أجرته في الشهر مائة وخمسين دينار فعادت في هذه السنة الى نحو عشرين دينار ، وآخر في مثل موضعهِ كانت أجرته في الشهر ستة عشر ديناراً فعادت الى فويق الدينار وجميع ما لم نذكره على هذا القياس افهمه (البغدادي ٧٠)

﴿ درس التشريح ﴾ : ومن عجيب ما شـاهدنا ان جماعة ممن ينتابني في الطب وصـلوا الى كتاب التشريح فكان يعسر افهامهم وفهمهم لقصور القول عن العيان . فأخذنا ان بالمقس تلاً فيه رمم كثيرة فخرجنا اليهِ فرأينا تلاً من رمم لهُ مسافة طويلة يكاد يكون ترابه أقل من الموتى بهِ نحدس ما يظهر منهم للعيان بعشرين الفاً فصـاعداً وهم على طبقات في قرب العهد وبعده . فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفيـة اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علماً لا نستفيده من الكتب . أما انهـا سكتت

عنهـا أو لا يفي لفظها بالدلالة عليـهِ أو يكون ما شاهدناه مخالفاً لمـا قيل فيها (البغدادي ٧٣)

﴿ مصر كما رآها ابن سعيد ﴾ : قال ابن سعيد ولما استقررت بالقاهرة تشوّقت الى معاينة الفسطاط فسار معي اليها أحد أصحاب القرية فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير الى الفسطاط جملة عظيمة لا عهد لي بمثلها في بلد . فركب منها حماراً وأشار اليّ أن أركب حماراً آخر فأنفت من ذلك على عادة من أخلفتهُ في بلاد المغرب فأخـبرني انهُ غير معيب على أعيان مصر ، وعاينت الفقهاء وأصحاب البزّة والشارة الظاهرة يركبونها فركبت . وعندما استويت راكباً أشار المكاري الى الحمار فطار بي وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ودنس ثيابي وعاينت ما كرهته . ولقلة معرفتي بركوب الحمار وشدة عدْوه على قانون لم أعهده وقلة رفق المـكاري وقعت في تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج فقلت :

لقيت بمصر أشدَّ البوار وركوبَ الحمير وكحل الغبارْ
وخلفي مكارٍ يفوق الريـــاح لا يعرف الرفق مهما استطار
أناديه مهلاً فلا يرعوي الى أن سجدت سجود العثار
وقد مدَّ خوفي رواق الثرى وألحد فيها ضياء النهار

فدفعت الى المكاري أجرته وقلت لهُ إحسانك ان تتركني أمشي على رجلي ، ومشيت الى أن بلغتها . وقدَّرت في الطريق بين الفسطاط والقاهرة وحققته بعد ذلك نحو ميلين . ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عني المسرّة وتأملت أسواراً مثلمة سوداء وآفاقاً مغبرة ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضي الى خراب مغمور بمبانٍ مشتتة الوضع غير مستقيمة الشوارع قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف . فسرت وانا معاين لاستصحاب تلك الحال الى أن صرت في أسواقها الضيقة فقاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والروايا التي على الجمال ما لا تفي بهِ إلاّ مشـاهدته ومقاساته ، الى ان انتهيت الى المسجد الجامع فعاينت من ضيق الأسواق التي حوله ما ذكرت ضده في جامع اشبيلية وجامع مراكش ثم دخلت اليهِ فعاينت جامعاً كبيراً قـديم البناء غير مزخرف ولا محتفل في حصره التي تدور مع بعض حيطانهِ وتنبسط فيهِ . وأبصرت العامة رجالاً ونساءً قد جعلوه معبراً بأوطئة

أقدامهم يجوزون فيه من باب الى باب ليقرب عليهم الطريق . والبياعون يبيعون فيه أصناف المسكّرات والكعك وما سوى ذلك . والناس يأكلون في عدة أمكنة منهُ غير محتشمين لجري العادة عندهم بذلك . وعدة صبيان بأواني ماء يطوفون على كل من يأكل قد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقاً . وفضلات مأكلهم مطروحة في صحن الجامع ، وفي زواياه العنكبوت قد عظم نسجه في السقف والأركان والحيطان . والصبيان يلعبون في صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة . الاّ ان مع ذلك على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده في جامع اشبيلية مع زخرفه (المقرّي ١ : ٤٨٦)

واستحسنت ما أبصرته من خلق المتصدرين لإقراء القرآن والفقه والنحو في عدة أماكن وسألت عن موارد أرزاقهم فأخبرت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك . ثم اخبرت ان اقتضاء ذلك يصعب إلاّ بالجاه والتعب

ثم انفصلنا من هنالك الى ساحل النيل فرأيت ساحلاً كدر التربة غير نظيف ولا متسع الساحة ولا مستقيم الاستطالة ولا عليه سور أبيض . الاّ انه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التي تصل من جميع أقطار النيل . ولئن قلت اني لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإني أقول حقّاً

والحال ان أهل الفسطاط في نهاية من اللطافة واللين في الكلام ورعاية قدر الصحبة وكثرة الممازحة والألفة ، مما يطول ذكره . وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندراني والبحر الحجازي فانه فوق ما يوصف ، وبه مجمع ذلك لا بالقاهرة ، ومنها يجهز الى القاهرة وسائر البلاد . وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجري هذا المجرى . لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند كما ان جميع زيّ الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط . وكذلك ما ينسج ويصاغ ، وسائر ما يعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية والخراب في الفسطاط كثير . والقاهرة أجدّ وأعمر وأكثر زحمة باعتبار انتقال السلطان اليها وسكنى الأجناد فيها (المقري ١ : ٤٨٧)

والمكان المعروف بالقاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطاني لأن هنالك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين . ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانيـة . ولكن ذلك أمد قليل ثم تسير منه الى أمد

أضيق وتمرّ في مكان كدِر حرج بين الدكاكين اذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان مما تضيق به الصدور وتسخن منه العيون. ولقد عاينت يوماً وزير الدولة وبين يديه الامراء وهو في موكب جليل وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة، وقد سدت جميع الطرق بين يدي الدكاكين. ووقف الوزير وعظم الازدحام وكان في موضع طباخين والدخان في وجه الوزير وعلى ثيابه وقد كاد يهلك المشاة وكدت أهلك في جملتهم. وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والازبال، والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها. ولم أرَ في جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالاً في ذلك. ولقد كنت اذا مشيت فيها يضيق صدري وتدركني وحشة عظيمة حتى أخرج الى بين القصرين. ومن عيوب القاهرة انها في أرض النيل الاعظم ويموت الانسان فيها عطشاً لبعدها عن مجرى النيل لئلاّ يصادرها ويأكل ديارها. واذا احتاج الانسان الى فرجة في نيلها مشى في مسافة بعيدة بظاهرها بين المباني التي خارج السور الى موضع يعرف بالمقس. وجوّها لا يبرح كدراً مما تثيره الأرض من التراب الاسود

والفسطاط أكثر أرزاقاً وأرخص أسعاراً من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط. والمراكب التي تصل بالخيرات تحط هناك ويباع ما يصل فيها بالقرب منها، وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة لأنه يبعد عن المدينة. والقاهرة هي أكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الفسطاط، لأنها أجلّ مدارس وأضخم خانات وأعظم دياراً يسكنها الامراء فيها لأنها المحفوفة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها. فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر وبها الطراز، وسائر الاشياء التي تتزين بها الرجال والنساء... ومطابخ السكر والمواضع التي يصنع بها الورق المنصوري مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة... والمعايش فيها متعذرة نزرة لا سيما أصناف الفضلاء، وجوامك المدارس قليلة كدرة... والفقير المجرد فيهما يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته....»
(المقري ١ : ٤٨٩)

﴿ فرسان السلطان ﴾: والقسم الأكبر من فرسان السلطان أصله رقيق حمله التجار من بلاد غريبة وباعوه بأسعار عالية... وقد يكون بعضهم أسرى حرب أخذهم الأمير الظافر بدل الضريبة التي لم يمكن للمقهورين ان يدفعوها.

والسلطان يحتفظ بالاولاد منهم في قصره حتى يطرّ شاربهم، وعندها يعطى لكلٍّ القوس التي يستطيع ان يثنيها . والضعفــاء منهم يوضعون في دور السلاح ليعملوا هناك ... وأما الاقوياء فيصبحون فرساناً يحملون سلاح السلطان وشاراته (أي ركنه) وهؤلاء هم رجال الحلقة ، او حرس السلطان الخاص فينامون في حراسته ، واذا كانوا في المعسكر ناموا حوله ليتمكنوا من القيام بذلك (جوانفيل ٢٠٥)

ويقيم قرب خيمة السلطان حملة الابواق والطبول ، ويضربونها مرة عند الفجر وأخرى عند الغروب ، فتدوي في أنحاء المعسكر جميعها ... أما في غير هذين الوقتين فلا تقرع الطبول الاّ بأمر رئيس الحلقة ، وذلك عندما يريد السلطان ان يبلغ أمراءه أمراً هامّـاً

ومن رجال الحلقة يختار السلطان أمراءَ جنده ، فيوليهم إمرة مئة أو مئتين او ثلثمئة من الجند (جوانفيل ٢٠٥)

الفصل الخامس

الشرق العربي في القرن الرابع عشر

١ — الموانىء وتجارتها

﴿ طرابلس ﴾ : وهي الآن مدينــة ممتدة كثيرة الزحام وبها مساجد ومدارس وزوايا وبيمارستان وأسواق جليلة وحمامات حسان. وجميع بنائها بالحجر والكلس مبيضاً ظاهراً وباطناً، وغوطتها محيطة بها ، وتحيط بغوطتها مزدرعاتها . وهي بديعة المشترف ولها نهر يحكم على ديارها وطباقها ، يتخرق الماء في مواضع من أعالي بيوتها لا يرقى اليها الا بالدرج العلية . وحولها جبال شاهقة صحيحة الهواء خفيفة الماء ذات أشجار وكروم ومروج ومواش . وميناها مينا جليلة تهوي اليها وفود البحر الرومي وترسو بها مراكبهم وتباع بها بضائعهم . وهي بلدة متجر وزروع كثيرة الفــائدة (صبح الاعشى ٤ — ١٤٣)

ومدينة طرابلس هي إحدى قواعد الشام وبلدانها الضخام تخترقها الانهار وتحفها البساتين والاشجار ويكنفها البحر بمرافقهِ العميمة والبرّ بخيراتهِ المقيمة . ولها الأسواق العجيبة ، والمسارح الخصــيبة . والبحر على ميلين منها وهي حديثة البناء — وأما طرابلس القديمة فكانت على ضــفة البحر وتملكها الروم زماناً فلما استرجعها الملك الظاهر خربت واتخذت هذه الحديثة . وبهــذه المدينة نحو اربعين من امراء الاتراك (ابن بطوطة ٣٧)

﴿ صور ﴾ : المدينة ميناءان مثل عكاء ، الداخلي لسفن المدينة ، والخارجي للاجانب وهي حصينة ، ويحرس ميناءها برجان تسحب بينهما سلسلة[1] (سوخم ٥١)

﴿ عكاء ﴾ : وعكاء اليوم تسكنها حامية صغيرة من المسلمين لا يتجاوز عددها الستين ، تتولى حراسة المدينة والميناء . ويعيش أفرادها من الحرير والطيور، لأن الحجل في جهاتها كثير (سوخم ٥٠ وما بعدها)

﴿ الاسكندرية ﴾ : أكبر ميناء مصري وإحدى المدن الكبرى في ملك السلطان. والمدينة جميلة جدًّا وحصينة تحيط بها أبراج عالية وأسوار يخيّل انه لا يمكن ثغرها . . . داخلها نظيف مبيض . وعند كل ناصية شارع يوجد سبيل ماء . يشرف على نظافتها حراس ، عملهم أن يزيلوا الاقذار التي تطرحها السابلة في الشوارع . ويحتفظ السلطان في هذه المدينة بجنده من المرتزقة وحرسه الخاص الذين يترتب عليهم حراسة المدينة والميناء

وفي المدينة كنائس كثيرة واحدة منها كبيرة يقام فيها القداس على طريقة البنادقة ... وفيها كثير من النصارى والتجار ... ومع ان المدينة تبدو للعيان غير قابلة للثغر . فانه من السهل فتحها. لكنني لا أريد ان أتحدث عن ذلك الآن . . وعلى مقربة من الاسكندرية قرية يتقن أهلها صناعة الحصر ، ويتفننون في صنعها (سوخم ٤٥)

﴿ البصرة ﴾ : وكنت رأيت عند قدومي عليها على نحو ميلين منها بناءً عاليًا مثل الحصن فسألت عنهُ فقيل لي هو مسجد علي بن أبي طالب رضي الله عنهُ .وكانت البصرة من اتساع الخطة وانفساح الساحة بحيث كان هذا المسجد في وسطها وبينهُ الآن وبينها ميلان وكذلك بينهُ وبين السور الاول المحيط بها نحو ذلك ، فهو متوسط بينهما . ومدينة البصرة إحدى أمهات العراق الشهيرة الذكر في الآفاق الفسحة الارجاء المونقة الأفنان ذات البساتين الكثيرة والفواكه الأثيرة توفر قسمها من النضارة والخصب لما كانت مجمع البحرين الأجاج والعذب ، وليس في الدنيا أكثر منها نخلاً فيباع التمر في

---

(١) يلاحظ مندفيل ان حكام البلاد يعتنون بميناء صور خشية عليها من حملات الاوربيين « مندفيل ص ١٤١ » كذلك يهتم سنودو بهذه المسألة « راجع سنودو في Gesta Dei الجزء السادس الفصل الرابع »

سوقها بحساب أربعة عشر رطلاً مراقبة بدرهم ، ودرهمهم ثلث النقرة ولقد بعث إليّ قاضيها حجة الدين بقوصرة تمر يحملها الرجل على تكلف فأردت بيعها فبيعت بتسعة دراهم أخذ الحمال منها ثلثها عن أجرة حملها من المنزل الى السوق . ويصنع بها من التمر عسل يسمى السيلان وهو طيب كأنهُ الجلاب . والبصرة ثلاث محلات احداها محلة هذيل وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الأثير من الكرماء الفضلاء أضافني وبعث إليّ بثياب ودراهم ، والمحلة الثانية محلة بني حرام كبيرها السيد الشريف مجد الدين موسى الحسني ذو مكارم وفواضل أضافني وبعث إليّ التمر والسيلان والدراهم ، والمحلة الثالثة محلة العجم كبيرها جمال الدين بن اللولكي . وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق وإيناس للغريب وقيام بحقه فلا يستوحش فيها بينهم غريب (ابن بطوطة ١١٥)

ثم ركبت من ساحل البصرة في صنبوق وهو القارب الصغير الى الابلة ، وبينها وبين البصرة عشرة أميال في بساتين متصلة ونخيل مظلة على اليمين واليسار ، والبياعة في ظلال الاشجار يبيعون الخبز والسمك والتمر واللبن والفواكه . وفيما بين البصرة والابلة متعبد سهل بن عبدالله التستري فاذا حاذاه الناس بالسفن تراهم يشربون الماء مما يحاذيه من الوادي ويدعون عن ذلك تبركاً بهذا الوليّ رضي الله عنه . والنواتية يجدّفون في هذه البلاد وهم قيام . وكانت الابلة مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس فخربت وهي الآن قرية بها آثار قصور وغيرها دالة على عظمتها (ابن بطوطة ١١٧)

﴿عدن﴾ : وعدن على ساحل البحر ذات حط وإقلاع وهي أعظم المراسي باليمن ... وبها قلعة حصينة . وهي خزانة ملوك اليمن الا انهُ ليس بها زرع ولا ضرع ، وهي فرضة اليمن ومحطّ رحال التجار . ولم تزل بلد تجارة من زمن التبابعة والى زماننا . عليها ترد المراكب الموصلة من الحجاز والسند والهند والصين والحبشة . ويمتار أهل كل أقليم منها ما يحتاجون اليه من البضائع ... ولا يخلو اسبوع من عدة سفن وتجار واردين عليها وبضائع شتى ومتاجر منوّعة . والمقيم بها في مكاسب وافرة وتجائر مربحة . ولحطّ المراكب عليها وإقلاعها مواسم مشهورة ، فاذا أراد ناخوذة (اي وكيل السفينة) السفر بمركب الى جهة من الجهات أقام فيها علماً برنك خاص به فيعلم التجار بسفره ويتسامع الناس . فيبقى كذلك اياماً ، ويقع الاهتمام بالرحيل وتسارع التجار

في نقل أمتعتهم ، وحولهم العبيد بالقماش المصري والاسلحة النافعـة وتنصب على شاطىء البحر الأسواق. ويخرج أهل عدن للتفرج هناك . . . والمقيم في عدن يحتاج الى كلفة في النفقات لارتفاع الاسعار بها في المآكل والمشارب . ويحتاج المقيم بها الى ما يتبرّد به في اليوم مرات في زمن قوة الحر . . . ولكن أهلها لا يبالون بكثرة الكلف ولا بسوء المقام لكثرة الاموال النامية (صبح الاعشى ٥ : ١١)

مدينة عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحرْ الأعظم والجبال تحفّ بها ولا مدخل اليها الاّ من جانب واحد وهي مدينة كبيرة ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء . بها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر ، والماء على بعدٍ منها فربما منعته العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب . وهي شديدة الحرّ وهي مرسى أهل الهند تأتي اليها المراكب العظيمـة من كنبليت وتانه وكولم وقالقوط وفندراينه والشاليات ومنجرور وفاكنور وهنور وسندابو وغيرها . وتجار الهند ساكنون بها وتجار مصر ايضاً . وأهل عدن ما بين تجار وحمالين وصيادين للسمك . وللتجار منهم أموال عريضة وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال ، ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة (ابن بطوطة ١٥٩)

﴿ عمان ﴾ : وسلطانها عربيٌّ من قبيلة الأزد بن الغوث ويعرف بأبي محمد بن نبهان ، وأبو محمد عندهم سمة لكل سلطان يلي عمان كما هي أتابك عند ملوك اللور . وعادته ان يجلس خارج باب داره في مجلس هنالك ولا حاجب له ولا وزير ولا يمنع أحداً من الدخول اليهِ من غريب أو غيره . ويكرم الضيف على عادة العرب ويعين لهُ الضيافة ويعطيه على قدره ولهُ أخلاق حسنة، ويؤكل على مائدته لحم الحمار الانسي ويباع بالسوق لأنهم قائلون بتحليله ولكنهم يخفون ذلك عن الوارد ولا يظهرونه بحضره (ابن بطوطة ١٥٩)

٢ — المدن الكبرى

﴿ في النيل ﴾ : ومن هذه المدينة (الاسكندرية) ركبت النيل مصعّداً الى مصر ما بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض. ولا يفتقر راكب النيل الى استصحاب الزاد لأنهُ مهما أراد النزول بالشاطىء نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك .

والاسواق متصلة من مدينة الاسكندرية الى مصر، ومن مصر الى مدينة اسوان من الصعيد (ابن بطوطة ١٩)

﴿ القاهرة ﴾ : مصر هي أم البلاد وقرارة فرعون ذي الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ومحطّ رحل الضعيف والقادر ، وبها ما شئت من عالم وجاهل وجاد وهازل وحليم وسفيه ووضيع ونبيه وشريف ومشروف ومنكر ومعروف ، تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها . شبابها يجدّ على طول العهد وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد ، فبهرت قاهرتها الأمم وتمكنت ملوكها نواصي العرب والعجم . ولها خصوصية النيل الذي جلّ خطرها وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها . وأرضها مسيرة شهر لمجدّ السيرة كريمة التربة مؤنسة لذوي الغربة

ويقال ان بمصر من السقائين على الجمال اثني عشر الف سقاء وان بها ثلاثين الف مكار وان بنيلها من المراكب ستة وثلاثين الفاً للسلطان والرعية تمرّ صاعدة الى الصعيد ومنحدرة الى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق . وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة وهو مكان النزهة والتفرج وبه البساتين الكثيرة الحسنة . وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو ، شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياماً (ابن بطوطة ١٩)

﴿ بين مصر وفلسطين ﴾ : وبكل منزل منها فندق وهم يسمونه الخان ينزله المسافرون بدوابهم ، وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشتري منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته

ومن منازلها قطيا المشهورة (وهي بفتح القاف وسكون الطاء وياء آخر الحروف مفتوحة وألف، والناس يبدلون الفها هاء تأنيث) وبها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم اشد البحث . وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود . ومجباها في كل يوم الف دينار من الذهب . ولا يجوز عليها أحد من الشام الاّ ببراءة من مصر ، ولا الى مصر الاّ ببراءة من الشام ، احتياطاً على أموال الناس وتوقياً من الجواسيس العراقيين . وطريقها في ضمان العرب قد وكلوا بحفظه فاذا كان الليل مسحوا

على الرمل لا يبقى به أثر . ثم يأتي الأمير صباحاً فينظر الى الرمل فإن وجد به أثراً طالب العرب باحضار مؤثره ، فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم ، فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء . وكان بها في عهد وصولي اليها عز الدين استاذ الداراقاري من خيار الامراء أضافني وأكرمني وأباح الجواز لمن كان معي . وبين يديه عبد الجليل المغربي الوقاف وهو يعرف المغاربة وبلادهم فيسأل من ورد منهم من أي بلادٍ هو لئلا يلبس عليهم فإن المغاربة لا يعترضون جوازهم على قطيا . ثم سرنا حتى وصلنا الى مدينة غزة وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر متسعة الاقطار كثيرة العمارة حسنة الأسواق بها المساجد العديدة والاسوار عليها [1] (ابن بطوطة ٣١)

﴿ نابلس ﴾ : مدينة نابلس وهي مدينة عظيمة كثيرة الاشجار مطردة الانهار من اكثر بلاد الشام زيتوناً ، ومنها يحمل الزيت الى مصر ودمشق . وبها تصنع حلواء الخرّوب وتجلب الى دمشق وغيرها . (وكيفية عملها) ان يطبخ الخرّوب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرّب فتصنع منهُ الحلواء ويجلب ذلك الرّب أيضاً الى مصر والشام وبها البطيخ المنسوب اليها وهو طيب عجيب (ابن بطوطة ٣٥)

﴿دمشق ﴾ : ودمشق عظيمة فخمة جميلة وغنية بكل أنواع المتاجر وفي كل ناحية منها شيء مبهج ، وان كانت تغلب عليها الصنعة . فالطعام فيها كثير ، وكذلك التوابل والحجارة الكريمة والحرير واللآلي والأقمشة المقصبة والطيوب من الهند وبلاد التتار ومصر وسوريا والبلاد الواقعة الى جهتنا (اوربا) من البحر المتوسط . وكل ما يتمنى المرء يجده فيها . . . وأنهارها وبساتينها مهيأة للانسان ليستمتع بها ويتنعم . وهي كثيرة السكان الى حد لا يصدق . ويقيم فيها الصناع المختلفون والتجار . وتزين داخلها الحمامات الكثيرة ، والطيور التي تصدح طول العام ، وغير ذلك من المبهجات والأمور السارة

وتقوم صناعاتها المختلفة كلٌّ في حي خاص . وكل صانع يجعل امام بيته مكاناً يعرض فيه مصنوعاته عرضاً يلفت النظر ويغري بالشراء . وكذلك يفعل التجار في سلعهم . وكل

---

[1] يذكر مندفيل ان الخانات بين غزة ودير كاترينا بسيناء كثيرة ويجد فيها المسافر كل ما يحتاج اليه (مندفيل ١٤٤)

ما يصنع فيها متقن والتجار الاغنياء يحتفظون بالطيور في أقفاص امام بيوتهم ... ومع ان المدينة مزدحمة بالسكان ، ومع أن البضائع تترك في الشوارع دون حراسة ، فليس ثمة من يذكر أن أحداً قتل في دمشق وقلما تسرق فيها السلع المعروضة للبيع[1] (سوخم ١٢٩)

﴿ الموصل ﴾ : وهي مدينة عتيقة كثيرة الخصب وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشأن شهيرة الامتناع عليها سور محكم البناء مشيد البروج . وتتصل بها دور السلطان وقد فصل بينها و بين البلد شارع متسع مستطيل من أعلى البلد الى أسفله وعلى البلدين سوران اثنان وثيقان أبراجهما كثيرة متقاربة وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره قد تمكن فتحها فيه السعة . ولم أرَ في أسوار البلاد مثله الا السور الذي على مدينة دهلي حاضرة ملك الهند . وللموصل ربض كبير فيه المساجد والحمامات والفنادق والأسواق وبه مسجد جامع على شط الدجلة تدور به شبابيك حديد وتتصل به مساطب تشرف على دجلة في النهاية من الحسن والاتقان وأمامه مارستان (ابن بطوطة ١٤٨).

﴿ حماة ﴾: حماة إحدى أمهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة ذات الحسن الرائق والجمال الفائق تحفها البساتين والجنات عليها النواعير كالأفلاك الدائرات يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصي ولها ربض سمي بالمنصورية أعظم من المدينة فيه الأسواق الحافلة والحمامات الحسان وبحماة الفواكه الكثيرة ومنها المشمش اللوزي(ابن بطوطة ٣٨)

﴿ سرمين ﴾ : سرمين وهي حسنة كثيرة البساتين وأكثر شجرها الزيتون وبها يصنع الصابون الأجري ويجلب الى مصر والشام ويصنع بها أيضاً الصابون المطيب لغسل الايدي ويصبغونهُ بالحمرة والصفرة . ويصنع بها ثياب قطن حسان تنسب اليها وأهلها سبابون يبغضون العشرة ومن العجب انهم لا يذكرون لفظ العشرة وينادي سماسرتهم بالاسواق على السلع فاذا بلغوا الى العشرة قالوا تسعة وواحد (ابن بطوطة ٣٩)

﴿ بعلبك ﴾[2]: مدينة بعلبك حسنة قديمة من أطيب مدن الشام تحدق بها البساتين الشريفة والجنات المنيفة وتخترق أرضها الأنهار الجارية وتضاهي دمشق في

---

(١) راجع أيضاً وصف مندفيل لدمشق « مندفيل ١٩٠ » . ويقول انها كثيرة الاطباء
(٢) يذكر بروكييه « ص ٣٠٨ » ان بعلبك مدينة تجارية كبيرة

خيراتها المتناهية . وبها من حب الملوك ما ليس في سواها وبها يصنع الدبس المنسوب اليها ، وهو نوع من الرُّب يصنعونه من العنب ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد وتكسر القلة التي يكون بها فيبقى قطعة واحـدة وتصنع منهُ الحلواء ويجعل الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالملبن ويسمونها أيضاً بجلد الفرس وهي كثيرة الالبان وتجلب منها الى دمشق وبينهما مسيرة يوم للمجدّ

ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة اليها من الاحرام وغيره ويصنع بها أواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد. وهم يسمون الصحاف بالدسوت وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة أخرى تسعُ في جوفها وأخرى في جوفها الى ان يبلغوا العشر يخيل لرائيها انها صحفة واحدة ، وكذلك الملاعق ويصنعون منها عشراً واحدة في جوف واحدة ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل في حزامه واذا حضر طعاماً مع أصحابه أخرج ذلك فيظن رائيه انها ملعقة واحدة ثم يخرج من جوفها تسعاً (ابن بطوطة ٤٩)

﴿ بين الحجاز والعراق ﴾ : كان في الركب جمٌّ من العراقيين والخراسانيين والفارسيين لا يحصى عديدهم تموج بهم الأرض موجاً ويسيرون سير السحاب المتراكم فمن خرج عن الركب لحاجةٍ ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضلّ عنهُ لكثرة الناس . وفي هذا الركب نواضح كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها الماء وجمال لرفع الزاد للصدقة ورفع الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض . واذا نزل الركب طبخ الطعام في قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت وأطعم منها أبناء السبيل ومن لا زاد معهُ . وفي الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشي . كل ذلك من صدقات السلطان ابي سعيد . وفي هذا الركب الأسواق الحافلة والمرافق العظيمة وأنواع الأطعمة والفواكه وهم يسيرون بالليل ويوقدون المشـاعل أمام القطار والمحارات فترى الأرض تتلألأ نوراً والليل قد عاد نهاراً (ابن بطوطة ١٠٧)

وسافرنا الى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة وهم أهل تلك البلاد ولهم شوكة عظيمة وبأس شديد ولا سبيل للسفر في تلك الأقطار الاّ بصحبتهم فاكتريت جملاً على يد أمير تلك القافلة شامر بن دراج الخفاجي (ابن بطوطة ١١٣)

﴿ واسط ﴾ : وهي حسنة الأقطار كثيرة البساتين والأشجار . بها أعلام يهدي

الخير شاهدهم وتهدي الاعتبار مشاهدهم وأهلها من خيار أهل العراق بل هم خيرهم على الاطلاق . أكثرهم يحفظون القرآن الكريم ويجيدون تجويده بالقراءة الصحيحة واليهم يأتي أهل بلاد العراق برسم تعلم ذلك . وكان في القافلة التي وصلنا فيها جماعة من الناس .أتوا برسم تجويد القرآن على من بهـا من الشيوخ . وبها مدرسة عظيمة حافلة فيها نحو ثلاثمائة خلوة ينزلهـا الغرباء القادمون لتعليم القرآن ، عمّـرها الشيخ تقي الدين عبد المحسن الواسطي وهو من كبار أهلها وفقهائها ويعطي لكل متعلم بها كسوة في السنة ويجري نفقته في كل يوم يقعد هو واخوانه وأصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة . وقد لقيتهُ وأضافني وزوّدني تمراً ودراهم .ولما نزلنا مدينة واسط أقامت القافلة ثلاثاً بخارجها للتجارة (ابن بطوطة ١١٤)

دخلت المدينة على باب بغداد ووصـلنا الى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان من أحسن سوق رأيتها في بلاد الدنيا كل صناعة فيها على حدة لا تخالطها أخرى واجتزت بسوق الجوهريين فحار بصري مما رأيته من أنواع الجواهر وهي بأيدي مماليك حسان الصور عليهم الثياب الفاخرة وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير وهم بين أيدي التجار يعرضون الجواهر على نساء الاتراك وهنّ يشترينه كثيراً ويتنافسنَ فيهِ فرأيت من ذلك كله فتنة يستعاذ بالله منها ودخلنـا سوق العنبر والمسك فرأينا مثل ذلك وأعظم (ابن بطوطة ١٤٧)

❁ مكة ❁ : كل طرفة تجلب اليها وثمرات كل شيء تجبى لها ولقد أكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرطب ما لا نظير له في الدنيـا . وكذلك البطيخ المجلوب اليها لا يماثله سواه طيباً وحلاوة ، واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم وكل ما يفترق في البلاد من السلع فيها اجتماعه . وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادي نخلة وبطن مر

وخدّام هذا المسجد الشريف وسدنته فتيان من الأحابيش وسواهم وهم على هيئات حسـان وصور نظاف وملابس ظراف وكبيرهم يعرف بشيخ الخدّام وهو في هيـئة الأمراء الكبار ولهم المرتبات بديار مصر والشام ويؤتى اليهم بها في كل سنة . ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الامام المحدّث الفاضـل جمال الدين المطري من مطرية بمصر (ابن بطوطة ٧٣)

ولأهل مكة الأفعال الجميلة والمكارم التامة والأخلاق الحسنة والإيثار الى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء . ومن مكارمهم انه متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ثم يطعمهم وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالافران حيث يطبخ النـاس أخبازهم فاذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله الى منزله فيتبعه المساكين فيعطي لـكل واحـد منهم ما قسم له ولا يردّهم خائبين ولو كانت له خبزة واحدة فانه يعطي ثلثها أو نصـفها طيب النفس بذلك من غير ضجر . ومن أفعالهم الحسنة ان الأيتام الصغار يقعدون بالسوق ومع كل واحد منهم قفتان كبرى وصغرى وهم يسمون القفة مكتلاً فيأتي الرجل من أهل مـكة السوق فيشتري الحبوب واللحم والخضر ويعطي ذلك للصبي فيجعل الحبوب في إحدى قفتيه واللحم والخضر في الأخرى ويوصل ذلك الى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها ، ويذهب الرجل الى طوافه وحاجته . فلا يذكر أن أحداً من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط بل يؤدي ما حمل على أتم الوجوه ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس . وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس وأكثر لباسهم البياض فترى ثيـابهم أبداً ناصعـة ساطعـة ويستعملون الطيب كثيراً ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر . ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف وهنَّ يكثرنَ التطيب حتى ان إحداهنّ لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيباً ، وهنّ يقصدنَ الطواف بالبيت في كل ليـلة جمعة فيأتينَ في أحسن زي وتغلب على الحرم رائحة طيبهنّ وتذهب المرأة منهنّ فيبقى أثر الطيب بعد ذهابهـا عبقاً (ابن بطوطة ٩١)

وأهل مكة لا يأكلون في اليوم الاّ مرة واحدة بعد العصر ويقتصرون عليها مثل ذلك الوقت. ومن أراد الأكل في سائر النهار أكل التمر ولذلك صحت أبدانهم وقلّت فيهم الامراض والعاهات

والحسب عندهم أن يعطي أحدهم هدية من عمامة او شاشية بمحضر الناس تكون جوازاً لمن أعطيته ولا تزول حرمتها معهُ حتى يريد الرحلة والتحوّل عن مكة (ابن بطوطة ٩٣)

٣ — الحياة الاجتماعية في القرن الرابع عشر

الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق عظيمة الترتيب وأعظم أسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيه على حدة . وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الأمثال تضرب بحسنها ، وفي آخره المدرسة المستنصرية ونسبتها الى أمير المؤمنين المستنصر بالله ابي جعفر بن أمير المؤمنين الظاهر بن أمير المؤمنين الناصر . وبها المذاهب الأربعة لكل مذهب ايوان فيه المسجد وموضع التدريس . وجلوس المدرّس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط ويقعد المدرّس وعليه السكينة والوقار لابساً ثياباً سوداً ، معتمًّا ، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه . وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة . وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء (ابن بطوطة ١٤١)

﴿ تبوك ﴾ : ومن عادة حجاج الشام اذا وصلوا منزل تبوك أخذوا أسلحتهم وجرّدوا سيوفهم على المنزل وضربوا النخيل بسيوفهم يقولون هكذا دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وينزل الركب العظيم على هذه العين فيروي منها جميعهم ويقيمون أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال واستعداد الماء للبرية المخوفة التي بين العلا وتبوك . ومن عادة السقائين انهم ينزلون على جوانب هذه العين ، ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال ويملؤون الروايا والقرب . ولكل أمير أو كبير حوض يسقي منهُ جماله وجمال أصحابهُ ويملأ رواياهم وسواهم من الناس يتفق مع السقائين على سقي جمله وملء قربته بشيء معلوم من الدراهم (ابن بطوطة ٦٨)

﴿ في دمشق ﴾ : وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملاً ، وانما يخرجون الى المتنزهات وشطوط الانهار ودوحات الاشجار بين البساتين النضرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم الى الليل (ابن بطوطة ٥٢)

وللباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين وغيرهم ومنهُ يذهب الى دار الخيل . وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين وهي سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلي من أحسن أسواق دمشق (ابن بطوطة ٥٥)

وقد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع أواني الزجاج العجيبة وفي الرحبة المتصلة بالباب الاول دكاكين لكبار الشهود منها دكان للشافعية وسائر أصحاب المذاهب يكون في الدكان منها الخمسة والستة من العدول والعاقد للأنكحة من قبل القاضي . وسائر الشهود مفترقون في المدينة وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والأقلام والمداد (ابن بطوطة ٥٥)

ولهذا المسجد حلقات التدريس في فنون العلم والمحدّثون يقرأون كتب الحديث على كراسي مرتفعة وقرّاء القرآن يقرأون بالأصوات الحسنة صباحاً ومساءً . وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم الى سارية من سواري المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم . وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً لكتاب الله تعالى وانما يقرأون القرآن تلقيناً ومعلّم الخط غير معلّم القرآن يعلمهم بكتب الأشعار وسواها فينصرف الصبيّ من التعليم الى التكتيب . وبذلك جاد خطه لأن المعلم للخط لا يعلّم غيره (ابن بطوطة ٥٦)

﴿ الطاعون بدمشق ﴾ : شاهدت أيام الطاعون الأعظم بدمشق في أواخر شهر ربيع الثاني سنة تسع وأربعين من تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منهُ، وهو أن ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه أمر منادياً ينادي بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام ولا يطبخون بالسوق. فصام الناس ثلاثة أيام متوالية كان آخرها يوم الخميس . ثم اجتمع الامراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع حتى غصّ بهم وباتوا ليلة الجمعة ما بين مصلٍّ وذاكرٍ وداعٍ . ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعاً على أقدامهم وبأيديهم المصاحف والامراء حفاة وخرج جميع أهل البلد ذكوراً وأناثاً صغاراً وكباراً وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم ومعهم النساء والولدان وجميعهم باكون متضرعون الى الله بكتبه وأنبيائه وقصدوا مسجد الاقدام وأقاموا به في تضرعهم ودعائهم الى قرب الزوال وعادوا الى البلد فصلوا الجمعة . وخفف الله تعالى عنهم فانتهى عدد الموتى الى الفين في اليوم الواحد وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر الى أربعة وعشرين الفاً في يوم واحد[1] . (ابن بطوطة ٦٠)

---

(١) جاء في رسالة تاريخها « ١٤٣٤ م » انه توفي في الطاعون خمسمئة شخص في يوم واحد في دمشق وتسعون شخصا في القدس (راجع ايليا الفراري — ادلر ص ١٥٢)

﴿ الأوقاف ﴾ : والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحجّ عن الرجل منهم كفايته . ومنها أوقاف على تجهيز البنات الى أزواجهنّ وهنّ اللواتي لا قدرة لأهلهنّ على تجهيزهنّ . ومنها أوقاف فكاك الاسارى. ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزوّدون لبلادهم . ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمرّ عليهما المترجلون ويمرّ الركبان بين ذلك. ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير

مررت يوماً ببعض أزقة دمشق فرأيت بهِ مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني وهم يسمونها الصحن فتكسرت واجتمع عليهِ الناس فقال له بعضهم اجمع شققها واحملها معك لصاحب أوقاف الاواني فجمعها وذهب الرجل معه اليه فأراه إياها فدفع له ما اشترى بهِ مثل ذلك الصحن . وهذا من أحسن الاعمال فان سيد الغلام لابد أن يضربهُ على كسر الصحن أو ينهره وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك ، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير الى مثل هذا

وأهل دمشق يتبارون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد وهم يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون اليهم بالاموال والاهلين والاولاد وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد أن يتأتى له وجهٌ من وجوه المعاش من إمامة مسجد أو قراءة بمدرسة أو ملازمة مسجد يجيء اليه فيه رزقة او قراءة القرآن او خدمة مشهد من المشاهد المباركة او يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجري له النفقة والكسوة فمن كان بها غريباً على خير لم يزل مصوناً عن بذل وجهه محفوظاً مما يزري بالمروءة ، ومن كان من أهل المهنة والخدمة فلهُ أسباب أُخر من حراسة بستان أو أمانة طاحونة أو كفالة صبيان يغدو معهم الى التعليم ويروح . ومن أراد طلب العلم والتفرّغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك . ومن فضائل أهل دمشق انهُ لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده البتة فمن كان من الامراء والقضاة والكبراء فانه يدعو أصحابه ، والفقراء يفطرون عنده . ومن كان من التجار وكبار السوق صنع مثل ذلك ومن كان من الضعفاء والبادية فانهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم أو في مسجد ويأتي كل واحد بما عنده فيفطرون جميعاً (ابن بطوطة ٦٣ — ٤)

﴿ مدارس مصر ﴾ : وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها .
وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة السلطان قلاوون فيعجز الوصف عن محاسنه وقد أعدَّ فيهِ من المرافق والأدوية ما لا يحصر — يذكر ان مجباه الف دينار كل يوم
وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقاه وأمراء مصر يتنافسون في بناء الزوايا . وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم من الأعاجم وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوُّف . ولكل زاوية شيخ وحارس ، وترتيب أمورهم عجيب . ومن عوائدهم في الطعام انهُ يأتي خديم الزاوية الى الفقراء صباحاً فيعين لهُ كل واحد ما يشتهيه من الطعام ، فاذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل انسان خبزه ومرقه في إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد . وطعامهم مرتان في اليوم ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر الى عشرين ولهم الحلاوة من السكر في ليلة كل جمعة ، والصابون لغسل أثوابهم ، والأجرة لدخول الحمام والزيت للاستصباح . وهم أعزاب وللمتزوجين زوايا على حدة ويشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية واجتماعهم بقبة داخل الزاوية . ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة بهِ واذا صلوا صلاة الصبح قرأوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عمَّ ، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة فيأخذ كل فقير جزءًا ويختمون القرآن ويذكرون ثم يقرأ القراءُ على عادة أهل المشرق ، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر . ومن عوائدهم مع القادم انهُ يأتي باب الزاوية فيقف بهِ مشدود الوسط وعلى كاهله سجادة وبيمناه العكاز، وبيسراه الإبريق فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه فيخرج اليهِ ويسأله من أي البلاد أتى وبأي الزوايا نزل في طريقه ومن شيخه فاذا عرف صحة قوله أدخله الزاوية وفرش لهُ سجادته في موضع يليق بهِ وأراه موضع الطهارة . فيجدِّد الوضوءَ ويأتي الى سجادته فيحلُّ وسطه ويصلي ركعتين ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم . ومن عوائدهم انهم اذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها الى المسجد ويفرشها لهم هنالك فيخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم فيأتون المسجد ويصلي كل واحد على سجادته فاذا فرغوا من الصلاة قرأوا القرآن على عادتهم ثم ينصرفون مجتمعين الى الزاوية ومعهم شيخهم

(ابن بطوطة ٢٠)

﴿ يوم دوران الجمل ﴾ : يوم دوران الجمل يوم مشهور وكيفية ترتيبهم فيه انهُ يركب فيه القضاة الأربعة ووكيل بيت المـال والمحتسب ، ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ويقصدون جميعاً باب القلعة دار الملك الناصر فيخرج اليهم المحمل على جمل ، وأمامه الامير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة ومعهُ عسكره ، والسقاؤون على جمالهم ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالمحمل وجميع من ذكرنا معهُ بمدينة القاهرة ومصر ، والحداة يحدون أمامهم . ويكون ذلك في رجب فعند ذلك تهيج العزمات وتنبعث الاشواق وتتحرك البواعث ويلقي الله تعالى العزيمـة على الحج في قلب من يشاء من عبـاده ، فيأخذون في التأهب لذلك والاستعداد (ابن بطوطة ٢٦)

﴿ جيوش السلطان ﴾ : يستطيع السلطان أن يجند من مصر وحدها ما يزيد عن عشرين الفاً من الرجال ، ومن سوريا وما اليها ما يزيد عن خمسين الفاً . وكلهم في خدمته ودائماً على قدم الاستعداد . . . وكل واحد يتناول ١٢٠ فلورن [١] في السنة ينفق منها على ثلاثة خيول وجمل واحد . ويدبر شؤون الناس في العواصم والمدن نوّاب . . . وكلّ أمير جندٍ يتناول مرتباً يساوي مجموع مرتبات الجند التابعين له. ومن ثمّ فالمكافأة التي ينتظرها الرجل الشجاع من السلطان هي أن يجعل أميراً على جنـده (مندفيل ١٤٦ — ٧)

---

(١) كانت قيمته في ذلك الوقت تتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ مليم

الفصل السادس

الشرق العربي في القرن الخامس عشر

١ — الموانئ

﴿ يافا ﴾ : أما الآن فيافا متهدّمة وكل ما فيها بضع من الخيام يأوي اليها الحجاج ليتقوا شرّ الشمس الحارّة . ميناؤها ضحل ، وخطر لأنهُ معرّض للعواصف

ومتى نزل الحجاج أسرع موظفو السلطان ليستوثقوا من عددهم ويقبضوا ضريبة السلطان ويتقدم الأدلاء لإرشادهم (بروكييه ٢٨٦)

كان ثمة (في يافا) جماعة كبيرة من الجند المسلحين . . . وكان هناك ثلاثة من حكام الجهة — حاكم القدس وحاكم الرملة وحاكم غزة . فتقدم اليهم ربابنة السفن حاملين الهدايا التي رأوا أن يسترضوهم بها ... فتقبلها هؤلاء ووعدوا بتقديم كل المساعدة . . ولما سئلوا عن سبب ازدحام الجنود المسلحين قالوا إن العربان كانوا قد هجموا على البلاد وعاثوا فيها فساداً ، وان القصد من الجماعة المسلحة ان تحمي الحجاج في تنقلهم في البلاد (فابري ٧ — ٢١٩)

ولما انتهينا من تقديم صلوات الشكر على وطوئنا برّ الارض المقدسة انتقلنا الى حيث كان « الأب الحارس لدير جبل صهيون » واقفاً مع حكام البلاد وشيوخ العرب والمسلمين ومعهم كاتب . وكان على الحجاج أن يمرّوا بينهم فرادى ... وكانوا يفحصون كل واحد منا ويسجلون اسمه واسم أبيه ... وبعد ذلك يحشر الحاج في مكان متهدّم

قذر حتى يحين وقت ذهابنا الى القدس ... (فابري ٧ — ٢٢٣)

ولما حان وقت خروجنا للسفر وقف ربابنة السفينة ومعهم زعماء المسلمين والكاتب. وكان كلما خرج أحدنا من المكان سأله عن اسمه واسم أبيهِ وقابل ذلك بما عنده ، ثم سمح له بالخروج وشطب اسمه (فابري ٧ — ٢٤٠)

وجاءنا بعض السكان الفقراء يحملون قشًّا وعساليج رطبة فابتعناها منهم وجعلناها فراشاً ننام عليه . . . ثم جاءنا تجار من الرملة والقدس ومعهم بضائع معطرة ، وأقاموا هنالك سوقاً .. وكان معهم ماء ورد في قوارير ثمينة جاؤوا به من دمشق . وكان ثمن القارورة الواحدة بنياً (؟) بندقيًّا . . . وكان مع البعض البلسم والمسك والصابون والحجارة الكريمة وقماش الموصلين الأبيض ...

... وكان التجار ومرافقوهم معطرين بحيث انتشرت الروائح الذكية حولهم ... ثم أحرقوا البخور العربي في المكان الذي كنا نقيم فيه ... ثم جاء آخرون وكانوا يقلون البيض بالزيت وغيرهم حملوا أرغفة الخبز والماء البارد والفواكه والكعك الطازج

وفي المساء استأجرنا اثنين من السكان ليقوما بحراستنا (فابري٧ — ٢٢٦ — ٧)

﴿ عكا ﴾ : هذه ميناء جميلة ، عميقة ويدور بها سور يحميها . ومع انهُ يظهر ان المدينة كانت كبيرة وقوية ، فانها الآن لا يوجد بها أكثر من ثلاثمئة من البيوت . تقوم في مكان بعيد قليلاً عن البحر (بروكييه ٢٩٢)

وقد تعرّفت في عكاء الى تاجر بندقي اسمهُ « اوبرت فرانك» الذي أحسن وفادتي وزوّدني بالمعلومات النافعة التي مكنتني من السير الى الناصرة بسهولة ويسر (بروكييه ٢٩٨)

﴿ غزّة ﴾ : جاءت من مصر جموع مكوّنة من بضعة آلاف من المماليك واستقرّت في غزة في طريقها لمحاربة التركمان في سوريا . وضربت هذه الجماعة خيامها حول المدينة حتى امتلأ بها السهل المحيط بها . وكان بين هؤلاء المماليك هنغاريون فجاؤوا يستقصون عن الحجاج الهنغاريين بيننا فلم يجدوا سوى السيد يوحنا . فسرّوا بهِ كثيراً وأقاموا معنا يأكلون ويشربون — وقد شربوا الخمر سرًّا — ثم جاء غيرهم من الصقليين والقطالونيين . لكن هذا أحنق ترجماننا ودليلنا . ذلك لأن اهل البلاد

يمقتون المماليك الذين يحكمونهم ويستبدّون بهم . وقد أقفلت المدينة أسواقها ، واحتفظ السكان بمواشيهم في حظائرها ، خشية عسف المماليك ونهبهم الحاجيات دون مقابل أو ثمن (فابري ١٠ — ٤٤٢)

﴿ بيروت ﴾ : ميناء بيروت جيد صالح للتجارة [1] لقيت في بيروت تاجراً بندقيّـا اسمهُ جاك برفيزين الذي نصحني بالسفر الى دمشق حيث القى من التجار والقناصل الاوروبيين الكثيرين الذين يرشدونني الى خير الطرق للعود برّا الى اوروبا

وشهدت احتفال المسلمين بأحد اعيادهم في بيروت . بدأ الاحتفال مساءً فكانت الجماعات تسير في الشوارع فرحـة طربة ، والمدافع تطلق من القلعة احتفاءً بالعيد وأطلقت السواريخ التي بلغت ارتفاعاً كبيراً .. وقد استطعت ان أتعرّف الى سرّ هذه السواريخ ، وحملت معي الى فرنسا طريقة صنعها ونماذج منها . ذلك لأن هذه متى صنعت على مقياس كبير أمكن استعمالها لحرق السفن في البحر . وهذا ما بلغني اثناء إقامتي في الشرق

وقد نزلت أثناء إقامتي في بيروت في دار تاجر بندقي هو بول برريكو ...وهذا دبّر لي مكاراً يحملني الى الناصرة ويعيدني الى دمشق ويعود الى بول بوثيقة مني تعرّفهُ جملة أخباري وسلامتي . وقد أشار عليّ المكار أن أرتدي ثياباً شرقية ففعلت (بروكييه ٢٩٢ — ٢٩٧ باختصار)

﴿ الاسكندرية ﴾ : ولما وصلنا الباب (باب مدينة الاسكندرية) فتشنا ووجدت النقود معنا . مع أننا كنا قد خبأناها في نعل الحذاء . أخذوا منا نحو عشرة بالمئة . ورغم انهم ضبطوا معي نقوداً لم أكن قد أعلنت وجودها فانهم لم يتقاضوني اكثر من العشر ، وأعادوا اليّ ما تبقى لي . . . انهُ من المستحيل ان يتهرب المرءُ من الدفع لانهم يفتشون تفتيشاً دقيقاً (ميشولم — ادلر — ١٥٨)

تبلغ الاسكندرية سعة فلورنسا . . . لكن القسم المخرّب منها أكثر من العامر وثمارها كثيرة وجيدة ورخيصة، والخبز واللحم وجميع أصناف الطيور فيها رخيصة . أما الخشب فغالٍ جدّا ، وكذلك الزيت والعسل والخمر ، لأنه يدفع عليها جمارك

---

(١) ذكر صالح بن يحيى في تاريخ بيروت انها كانت في سنة ٧٦٧ هـ — ١٣٦٥ م مركزاً كبيراً لصنع السفن . راجع ص ٥٢

عالية ، قد تبلغ ٢٤ بالمئة . وقنّب الاسكندرية جيد ، وقماش الكتان بها جميل ورخيص

ويرجع رخص الفراخ فيها الى انهم يفقسونها في الافران . . . وقد يتسع الفرن لألف او الفين من البيض في الدفعة الواحدة (ميشولم — ادلر — ١٦٠)

تجد في الاسكندرية تجاراً من جميع أقطار الارض ، ويوجد فيها ، في هذه الايام ، أربعة قناصل للبندقية وجنوه وقطالونية وانكونا ، وبواسطتهم تتم المعاملات التجارية . . . . يدفع التجار اثنين بالمئة عن كل ما يرد الى الاسكندرية أو يصدر منها ، وهذا يأخذه السلطان ، ولذلك كانت ثروته ضخمة (عوبديا — ادلر — ٢٢٢)

رأيت في الاسكندرية أربعة فنادق ، واحد منها للفرنك وآخر للجنويين وقنصلهم واثنان للبنادقة . ويقابلهم فندق كبير خاص بالمسلمين

وكل من دخل الاسكندرية من الاغراب دفع ثلاث عشر دوكة للسلطان ولا يسمح له بمغادرة المدينة ان لم يكن قد دفع هذا المبلغ (ميشولم — ادلر — ١٦٢)

ركائب الناس هنا الحمير والبغال ، أما الخيل فلا يركبها الاّ المماليك أنفسهم . والحمير هنا جميلة فرهة ويعنون بتجميلها ... وقد رأيت بردعة يزيد ثمنها عن ٢٠٠٠ دوكة ، مرصعة بالحجارة الكريمة والماس ولها حاشية من الذهب . . . وأكثر أهل المدينة حفاة . . . ويتناولون طعامهم وهم جلوس على الارض . . . وهذا ينطبق على أكثر سكان بلاد السلطان (ميشولم — ادلر — ١٥٩)

﴿ اللاذقية ﴾ : ومما سمعنا عنه في اللاذقية طاحونة تديرها الريح ، سواء أكان هبوبها من الشمال أو الشرق أو الغرب على نحو ما هو معروف عند الافرنج . واذا دارت يوماً كاملاً ، ليلاً ونهاراً طحنت ١٢ أردبًّا بالكيل المصري .

وقد أقام هذه الطاحون رجل من اللاذقية كان الافرنج قد أسروه ، فلما عاد أنشأ هذا الشيء العجيب في بلده (القول المستظرف ١٠ — ١١) .

٢ — المدن الـكبرى

﴿ دمشق ﴾ : وقبل أن ندخل دمشق ترجّـلنا عن خيولنا حسب إشارة المـكاري وهذه هي العادة المتبعة في هـذه البلاد إذ لا يجوز لنصراني (اوروبي) أن يدخل مدينة راكباً . ولم نـكد ندخل المدينة حتى جاءَ بعض الناس يتفرجون علينا ، وكنت (أي بروكييه) ألبس على رأسي قبعة سوداء ذات إطار عريض فرفع أحدهم عصاه وأطار قبعتي عن رأسي ، وهممت أن ألطمهُ لولا ان المكاري رمى بنفسهِ بيننا فحال دون ذلك . وكان في تصرّفه هذا نجاتي ، لأن عـدد الدمشقيين كان قد زاد ولو انني ضربت أحدهم لـكانت عاقبة ذلك علينا مما لا أستطيع تصوّره

وتحوي دمشق على ما بلغني مئة الف نسمة . وهي غنية ، ومركز كبير للاتجار . وأهمّ مدينة في السلطنة بعد القاهرة ... وحاكمها نائب عن السلطان رأساً ... ولا تزال آثار تخريبها على يد تيمورلنك (سنة ١٤٠٠ م) ظاهرة للعيان

وأهل دمشق يكرهون الاوروبيين ويتحتّم على تجارهم أن يلجأوا الى بيوتهم في المساء فيقفل عليهم الابواب أناس معينون لهذا الامر ، ولا يفتحونها الاّ في صباح اليوم التالي . وقد لقيت في دمشق كثيرين من الجنويين والبنادقة وأهل كالابريا وفلورنسا ومن تجار فرنسا . وقد جاء الاخيرون الى دمشق ليبتاعوا أشياء متعددة وخاصة التوابل بقصد نقلها الى بلادهم بطريق بيروت

وقد استقصيت أخبار النبي والاسـلام من قسّ كان ملحقاً بالقنصل البندقي في دمشق

ودمشق مدينة صناعية . فسيوفها من خير ما يصنع وأجلهُ، وصقلها جيد الى حد ان المرء يستطيع أن يستعملها مرآة لاصلاح زينته . ولم أرَ في حياتي سـيوفاً تقطع مثل السيوف الدمشقية . ويصنع أهل دمشق وما جاورها المرايا المدنيـة . . . وبعض هذه اذا سلطت أشعة الشمس عليها عكستها على خشبة فأحرقتها ولو كانت تبعد نحو خمسة عشر قدماً

وثمن الفرس الاصـيل يبلغ مئتي دوكة وقد يصـل الى الثلاثمائة (بروكييه ٢٩٣ — ٣٠٤)

﴿ سوريا ﴾[1] : والمواد الغذائية هناك وفيرة . فهناك القنبريس[2] والقرنبيط وثمة معاصر تصنع الدبس (من العنب) وفيها تصنع الحلاوة الجوزية والملبن . ومما يتقن صنعه هناك حلاوة الارز مع الزبيب (القول المستظرف ٨)

وتكثر هنا الاشجار والفواكه ، ومجاري المياه تقوم عليها النواعير . وتقام يوم السبت سوقٌ حمل الينا منها رمانات بلغت زنة الواحدة منها رطلين مصريين ، وجيء بباذنجان تزن الواحدة مثل ذلك . وقد بلغني إنهُ قد يصل وزن الرمانة الواحدة خمسة أرطال ، لكنني لم أر ذلك بنفسي (القول المستظرف ١٢)

﴿ القدس ﴾ : بيوت القدس مبنية بالحجارة ، هذا باستثناء مساكن الفقراء التي هي من الطين . وقد رأيت فيها بيوتاً جميلة كبيرة ، لكن جزءاً كبيراً من المدينة متهدم مهجورٌ ، بحيث ان جثث الحيوانات التي تنفق تبقى داخل المدينة بدل أن تطرح خارج أسوارها ... وفي المدينة نحو خمسمائة يهودي ونحو الف نصراني من كل مذهب وقطر ، وأقلهم من أتباع الكنيسة اللاتينية (فابري ٩ — ٢٢٦)

رغم ان القدس قد تهدمت ، فانهُ لا يزال فيها أربع أسواق جميلة طويلة ، مما لم أرَ له من قبل شبهاً . كلها مسقوفة بالقباب ، وتحوي جميع أنواع المتاجر . وهذه الاسواق الاربع هي ، سوق التجار وسوق العطارين وسوق الخضار وسوق الأطعمة المطبوخة والخبز

وقد كانت موجة من القحط تجتاح البلاد لما هبطتُ القدس . فقد كانت حصة الشخص الواحد من الخبز لا تتجاوز بضعة دراهم للوجبة الواحدة . لكن الجوع لم يدم لأن المحصول كان جيداً في الموسم التالي (عوبديا — ادلر — ٢٣٦)

﴿ الإقامة في القدس ﴾ : فلما انتهينا من صلاتنا قادنا كالينوس الى مستشفى القديس يوحنا [3] . . . والبناء القائم هو جزء من الأصل ، ويقيم فيه عدد من الرهبان . . . وتوزع الحجاج في المكان . فالنبلاء السوابيون انفردوا بمكان في طرف

---

(١) يلاحظ سنودو ان المنطقة الواقعة بين طرابلس وحصن الاكراد غنية جداً (PPT. p. 5-6)

(٢) هو الجبن الابيض المجفف يقطع قطعاً صغيرة (٣) ذكر دي فتري تاريخ المستشفى والنزل الملحق به فليرجع اليه (دي فتري ص ٤٦ — ٧)

القاعة في شبه غربة منعزلة عن بقيـة المكان . والنبيل يوحنا سيد سولمس وجماعته ذهبوا مع الفاهالو (الترجمان المساعد) ليقيموا في بيته . أما في زيارتي الاولى للقدس فلم نقم في مستشفى القديس يوحنا ، بل انني لم أره ، إذ أقمنا في بيت كبير يقع في حي ملّـو (١) . وما كاد الحجاج يستقرّون في أماكنهم حتى جاءهم الباعة من المسلمين والنصارى واليهود يحملون الخبز والماء والطعام والفواكه فابتعنا وأكلنا ... والآن جاءنا اثنان من الاخوان ، موفدين من قبل رئيس جبل صهيون ، واقتادا جميع الرهبان منا الى دير صهيون لنقيم هناك . لان هذه هي العادة المتبعة . وكنت بطبيعة الحال في من ذهب (فابري ٧ — ٢٨٥ — ٦)

استأجر بعض الجماعة داراً تخص الفاهالو ، الترجمان المساعد : تقع على مقربة من جبل صهيون ، فكان في الدار ثلاث غرف كبيرة ، وغرفة أخرى صغيرة ، وباحـة متوسطة السعة ، فيها كرمة وميضأة . فأجرهم صاحبها غرفتين ، ووضع أثاثه في ما تبقى من غرف الدار ، لـكـنهُ ترك العمارة هو وأخوه فلم يقيموا فيها ابداً (فابري ٩)

والبيت الذي أُقيم فيه تقيم فيهِ خمس نساء ورجل أعمى . والحمد لله الذي منّ عليّ بالصحة في حلّي وترحالي فان أكثر الاغراب الذين يأتون الى القدس يصيبهم مرض ما . بسبب تغير الجو المستمر . اذ ان الرياح على اختلاف أنواعها تهبّ على هذه المدينة . ويقال ان كل ريح يجب ان تمرّ بالقدس ليباركها الربّ قبل اتمام اتجاهها . وسبحان الذي يعلم الحق (عوبديا — ادلر ٢٤٣)

﴿أسواق القدس﴾ : زرت صباح اليوم ٢٨ تموز (يوليو) أسواق المدينة وشارع الطباخين . حيث رأيت أشياء كثيرة للبيع وجماعات كبيرة تشتري من المطـابخ العديدة ذلك لأن القوم لا يطبخون في بيوتهم ، كما نفعل نحن في بلادنا . بل انهم يبتاعون طعامهم جاهزاً من هذه المطابخ . والطهاة ماهرون نظيفون. ولا ترى امرأة قرب الموقد . لان المسلمين يكرهون الطعام الذي تطهاه المرأة كرههم للسم . ومن ثمة ليس في الشرق كله امرأة تستطيع ان تصنع كعكة (فابري ٩ — ١١١)

---

(١) حي كان يقع داخل باب الخليل الحالي

وحيث يكون الحجاج يتجمع حولهم التجار . فلما كنا في كنيسة القيامة جاء تجار من النصارى ... الشرقيين ... ودخلوا معنا . فلما أقفلت الابواب عمد بعضنا الى المساومة . وقضوا في ذلك شطراً من الليل ان لم يكن الليل كله ... ولم تقتصر مشترياتهم ومساوماتهم على المسابح والحجارة الكريمة لكنها تعدتها الى القماش الدمشقي والحرير .. أعرف بعض النبلاء الذين كانوا يمتنعون عن المساومة في أسواق بلادهم ، لأن ذلك دون مكانتهم الاجتماعية ، لم يتحرجوا عن الشراء في مثل هذا المكان المقدس . . . ولم تكن غاية الجميع أن يبتاعوا أشياء لانفسهم ، ولكنهم كانوا يفكرون بنقلها الى بلادهم للاتجار بها والربح . وقد اشترك بعض رجال الدين في أعمال البيع والشراء هذه (فابري ٩ — ٨٤)

﴿ حاكم القدس يزور الرهبان ﴾ : بعد طعام الغداء ركب الى جبل صهيون حاكم القدس بصحبة جماعة من نبلاء المسلمين . . . ومن عادة هؤلاء وغيرهم أن يأتوا الى جبل صهيون للتنزه لان الهواء هنا أنقى منهُ في المدينة . وهم متى وصلوا الى الدير أقاموا بعض الوقت في كنيسة الاخوان ، فيفرش لهم هؤلاء الرهبان الارض بالسجاد ويضعون لهم الوسائد ويستلقون ، وقد قدّم لهم الاخوان الكعك المعسل والخبز والبقسماط المطيب والفواكه من العنب واللوز والبطيخ والماء البارد ، لانهم لا يشربون الخمر . وقام الاخوان الاصاغر والحجاج على خدمتهم وتحدّثنا معاً فسألونا عن أشياء كثيرة وتحدثوا فيما بينهم بشأنها . . . ولا غرابة في أن يعنوا بكل شيء فهم حكام المدينة المقدسة (فابري ٩ — ١١٢)

﴿ مدرسة في القدس ﴾ : بينما كنت مرة نازلاً من جبل صهيون في طريقي الى الكنيسة للصلاة ، سمعت أولاداً يقرأون بصوت مرتفع ، فاقتربت من باب المدرسة ونظرت اليهم ، فرأيت صبياناً جالسين على الارض في صفوف وكانوا كلهم يرددون مجتمعين نفس الكلمات بصوتٍ عالٍ ، ويهزّون رؤوسهم أماماً وخلفاً ، وقد استطعت ان أحفظ الكلمات التي رددوها مع موسيقاها . وهي أول ما يعلمونه صبيانهم لانها أصول عقيدتهم (فابري ٨ — ٣٩٦)

﴿ نُزُل الخليل ﴾ : وشاهدنا في الخليل نُزُلها الكبير ، الكثير الغرف . ورأينا المطبخ والفرن ، وكانوا يعدّون طعاماً كثيراً للحجاج المسلمين الذين يأتون جماعات

كبيرة لزيارة قبور الانبياء . ولهـذا النزُل واردات سنوية تبلغ قيمتها نحو أربعة وعشرين الفاً من الدوكات . ويخبز فيه في كل يوم الف ومئتان من الارغفة توزع كلها على من يطلب . ولا يمنع أي حاج من هـذا الإحسان ، مهما كان مذهبه أو دينه أو جنسه . وكل من يطلب طعاماً يقدم له رغيف خبز وشيءٌ من الزيت وبعض الحسـاء أو المعجنات . وقد أقطعت أراضي قلعة النبي صمويل على هـذا النزل ، وواردداته منها الفا دوكة في العـام . والمثرون من المسلمين الوطنيين والاتراك يهبونه أموالاً كثيرة تنفق على راحة الحجاج ... وعند ما يحين وقت توزيع الخبز يضرب الطبل للفت نظر الناس ... وقد أرسل القائمون على أمر النزل سلة من الخبز الى الخان الذي كنا نقيم فيه ، مع اننا لم نطلب منهم شيئاً (فابري ١٠ — ٤١٧ — ٨)

﴿ رأي فابري في صلاح الدين ﴾ : لما رأى سكان القدس ان لا قبل لهم بالصمود أمام جيش صلاح الدين منفردين ، ولا أمل لهم بالحصول على مدد أو معونة ، سلموا المدينة على أن يسمح لهم بالذهاب أين شاءوا متى دفعوا الجزية . ولما كان صلاح الدين بطبيعته رقيق القلب رأف بالناس وقبل طلبهم . وهب لهم حياتهم على أحد شرطين : إما أن يبقوا في المدينة ويدفعوا الجزية ويخلدوا الى السكينة وإما أن يغادروها بعد أن يدفع الذكر منهم الذي تتجاوز سنُّهُ العشرة أعوام عشر دوكات والطفل دوكتين والمرأة خمس دوكات . واتفق الفريقان على ذلك . لكن لما رأى صلاح الدين أنَّ هناك آلافاً متعددة من السكان لا يملك الواحد منهم حتى ما قيمته عشرة دراهم ، أعفى هؤلاء كلهم من دفع ما عليهم . . . وحدّدت المدة بثلاثة أيام لاولئك الذين أرادوا الخروج ... لكن لم يكن من الميسور تحضير المبلغ المطلوب من كثيرين ، فاستصرخوا صلاح الدين فأعفى كل من سأله من دفع المبلغ المطلوب (فابري ٩ — ٣٣٩)

﴿ القاهرة ﴾ : شاهدت مصر (القاهرة) وتحريت شؤون سكانها ، ولو أنني أردت أن أتحدّث عن عظمة المدينة وثروتها وسكانها لما كفاني كتاب كامل [١] .

---

(١) ذكر عوبديا ثروة القاهرة الطائلة وتجارتها الواسعة التي تشمل البهارات والتوابل واللآلىء والاحجار الكريمة ، وتأتيها التجارات من فرنسا والمانيا وايطاليا وتركيا بطريق الاسكندرية (عوبديا — ادلر — ٢٢٥)

وأقسم أنهُ لو أمكن ضمّ روما وميلان وبادوا وفلورنسا في مكان واحد مع أربع مدن أخرى لما زاد سكانها وثروتها جميعاً عن نصف ما في مصر ، وهذا صدق . . . فمصر الحديثة والقديمة ، أي القاهرة والفسطاط ، مقسومة الى أربعة وعشرين حيًّا وفي الحي ثلاثون الف عائلة ، وفي كل عائلة ثلاثة أو أربعة أفراد . . . ويزيد محيط مصر عن ثمانين ميلاً ... وأقسم أن كبير تراجمة السلطان ، سرجي فاردي ، هو الذي أنبأني بهذا . فقد أخبرني انهُ يتحتم على الرؤساء أن يقدموا اليهِ يوميًّا كشفاً بالمواليد والوفيات في المدينة . . . ورئيس التراجمة هذا أسباني الاصل . ويعرف من اللغات العربية والتركية واليونانية والفرنسية والالمانية والايطالية والعبرية . والتركية هي لغة البلاط السلطاني

وللقاهرة أيضاً محيط طوله نحو ثمانين ميلاً ، وليس فيها بيت واحد خرب ، وحارات المدينة وأزقتها أقصر من حارات البندقية وأضيق وتلتقي رؤوس البيوت فتنعقد الحارات . وبعضها مغطًّى بالنخيل منعاً للحرّ الشديد

وفي مصر نحو عشرة آلاف رجل عليهم ان يرشوا الماء في الشوارع لتهدأ ثورة الغبار ... والسقاة يحملون الماءَ في قرب ويبيعونه للعطاش لقاءَ فيلبو واحد للشربة ، ومهما كان مقداروها . وقد لا يقلُّ عددهم عن أربعة آلاف ساقٍ

ليس ثمة حمامات تشبه حمامات مصر في جودتها . . . والسكان نظيفون في أشخاصهم وثيابهم

وفنادق مصر كبيرة . وقد يحتوي الفندق الواحد على الف دكان يضع فيها الباعة والصناع بضائعهم . وليس في العالم شيءٌ لا يمكنك ان تجده في فنادق مصر (ميشولم — ادلر — ١٦٦)

﴿ السلطان ﴾ : أتيح لي أن أرى السلطان وجهاً لوجه يوم الجمعة وفق ٢٢ حزيران (يونيو) ١٤٨١ انهُ رجل متقدم في السن . كان في ركبه نحو الفين من الفرسان المماليك وكل من رغب في رؤية السلطان تمّ له ذلك . فانهُ يجلس كل اثنين وخميس أمام القلعة في صحبة حاكم المدينة ويتقدم اليهِ أصحاب المظالم بظلاماتهم فينصفهم حتى من سادتهم . وهذا هو السبب في ان النبلاءَ يتجنبون ظلم أتباعهم (ميشولم — ادلر — ١٧٠)

﴿ جند السلطان ﴾ : وللسلطان قرابة عشرة آلاف من العبيد هم حملة السلاح

الذين يعتمد عليهم في حروبه . . . وهؤلاء من أمم مختلفة ففيهم التتاري والتركي والبلغاري والمجري والصقلبي والوخي والروسي واليوناني ... وعليهم يعتمد السلطان في حراسته ويقدّم لهم النساء والخيل والثياب . . . ويعنى بتنشئتهم في فنون الحرب . والنابهُ منهم يجعله عريفاً على عشرة أو عشرين أو خمسين أو مئة . ومنهم يختار حكام ولاياته . فيكون منهم صاحب القدس أو ملك دمشق أو أمير القاهرة ، كما ينتخب منهم أصحاب بقية الوظائف في أنحاء سلطنته . ويكون بيدهم تصريف الأمور بحسب الشرع الاسلامي كلٌّ في نطاق وظيفته ، ولهم الحق في البيع والشراء والحرية التامة في ذلك . ولهؤلاء المماليك أن يقتنوا عبيداً .. ومتى ركب هؤلاء للحرب لبسوا درعيات من الجلد رديئة مغطاة بالحرير ، ويغطون رؤوسهم بقلنسوة مدورة ويحملون القوس والسهام والهراوات والطبول (لانوي ٨٤)

الفصل السابع

الاسفار في العصور الوسطى

كانت أسفار البحر كثيرة الأخطار الخاصة بها . فكانت السفن باديءَ ذي بدء صغيرة مضطرة الى السير بالقرب من الشاطىء ، ولم تتمكن من الابتعاد عنه حتى وصلت البوصلة البحرية الى اوروبا . ولما كبرت المراكب أصبح بعضها يتسع لنحو الف من الركاب بما في ذلك البحارة . وقد كان عند البنادقة سفنٌ تجارية تحمل الواحدة منها نحو خمسمئة طن من البضائع . وبلغ طول السفينة التي ركبها لويس التاسع ملك فرنسا من البندقية مئة وثماني أقدام وفيها مئة وعشرة من البحارة.

كانت المياه الضحلة والشواطىء الصخرية شرٌ ما تخشاه السفن بعد القرصان ، الحرّ منه والرسمي ولما كانت القاعدة ان السفينة التي تتحطم على شاطىء بلاد تصبح حمولتها ملكاً لصاحب تلك البلاد ، فكثيراً ما كان النبلاء يوقدون مصابيح بالقرب من الصخور الناتئة في البحر لتضليل السفن فتصدمها هذه وتتحطم عليها . ويروي عن أحد أشراف شاطىء بريتاني في شمال فرنسا انهُ أشار يوماً الى صخرة وقال عنها انها أكرم حجر في ملكه . والمعروف ان الفرنسيين على شاطىء خليج بسكاي كانوا في مقدمة مضللي السفن في اوروبا في العصور الوسطى . أما المدن الايطالية فكانت تقسو في العقوبة ضدّ من يضلل سفينة ، وكان القانون يقضي برجمه حتى الموت ، كما يفعل بالذئاب

وقد كانت للاسفار البحرية قواعدها وأنظمتها . بعضها وضعها الملوك ، وبعضها نما

مع الحاجة ، وبعضها كان يتفق عليهِ في كل مناسبة . فمن النوع الأول ما استنّهُ ريكاردوس قلب الأسد لاسطوله في أواخر القرن الثاني عشر ، فقد جاءَ فيهِ : انهُ بعد استشارة رجال الدولة ، قد وضع القوانين العادلة لإِقرار الحقِّ ومنها : « إذا قتل رجلٌ أحد ركاب السفينة رُبط القاتل بجثة القتيل وأُلقي في البحر . أما إذا كان القتل على الشاطىء دُفن القاتل مع المقتول . . واذا انتضى رجل سلاحه وهدَّد بهِ آخر أو سبَّب له جرحاً فلتقطع يده ... واذا ضرب رجلٌ آخر ولم يسل دمه غطس الضارب ثلاث مرات في ماء البحر... ومن يتفوَّه بالزور والبهتان أو يسبب غضب الله ، يدفع أوقية من الفضة اكتساباً للمغفرة . . . وأما من ثبتت عليه السرقة فليحلق رأسهُ وليوضع عليهِ القار وليلصق بالرأس الريش ولينزل من المركب عند أول برٍّ تلمسهُ » على ان المؤرخين المحدثين يرون ان هـذا القانون البحري كان شديداً لأنهُ من نوع الأنظمة العسكرية ، فإِن ريكاردوس سنّهُ للاسطول الذي حمل جيشه الى سوريا لحصار عكاء بعد معركة حطين

أما القوانين التي نمت مع تطور الحاجة اليها فكثيرة ، لعلَّ أشهرها وأكثرها شيوعاً في العصور الوسطى قوانين اوليرون . وبموجب هذه نظمت أمور الموانىء ورسو السفن واستعمال العوامات وغير ذلك مما قلل الاخطار . فالربان كان مسؤولاً عن أخطاء الملاحة الناشئة عن جهل أو سوء نية . فإِما أن يعوّض المسافرين عن خسائرهم وإما أن يفقد رأسهُ . والتجار كان لهم حقٌّ في تقرير الطريق المتبع والموانىء ، وطريقة تعبئة المتاجر وترتيبها . وكانوا هم يتولون الإِشراف على العمال ودفع أجورهم . وكان تحميل السفن فوق الحد الأقصى ممنوعاً بالمرة في شرع المدن الايطاليـة ومدن الهنسا وغيرها

وقد روى ان ربان سفينة من السفن الهنسية جمع الركاب بعيد خروج المركب الى عرض البحر وقال لهم لقد أصبحنا تحت رحمة الله وعواصف البحر ، فليكن الكلُّ متساوين بقطع النظر عن الأشخاص . وما دمنا معرّضين في كل ساعة لخروج القرصان علينا أو غير ذلك من الأخطار ، فانهُ يتحتم علينا أن نتدبر أمر إدارة هذه السفينة . لذلك يجب أن ننتخب قاضياً لها وأربعـة مستشارين وهؤلاءِ الخمسة يفصـلون في الخصومات . فلما انتخب هؤلاء قرأ الربان على المجتمعين خلاصة القوانين المعمول بها ، وهي المأخوذة من قوانين اوليرون المذكورة . ولما اقتربت السفينة من ميناء الوصول

استدعى الربان الركاب ثانيةً وطلب اليهم أن يسامح كل أخاه ، وينسوا ما كان بينهم ويدفنوا الماضي

وقد كانت سرعة السفن مختلفة فقد تراوحت بين ١١٥ و ٣٥٠ من الكيلومترات في اليوم الواحد . فقد جاء في رحلة الراهب نقولا الاسلندي سنة ١١٥١ ان سرعة سفينته الصغيرة تراوحت بين ١١٥ و ١٥٠ ك . م . يوميًا . وقد احتاجت سفن الحملة الصليبية الاولى أربعة عشر يوماً بلياليها لقطع المسافة بين مسينا وعكا أي ان معدل سيرها كان ١٣٠ ك . م لليوم والليلة . هذا مع العلم بأن المسافة من دمياط الى عكا كانت تقطع في ٣ أيام أي بمعدل ١٣٤ ك . م . لليوم ، وكانت السفينة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر تحتاج الى ٦ أيام للسفر من كنديا الى عكا ، أي بمعدل ١٤٠ ك . م . لليوم

أما فردريك الثاني فقد غادر برنديزي في ٢٨ حزيران (يونيو) سنة ١٢٢٨ م فوصل عكا في ٧ ايلول (سبتمبر) .

على أننا نعرف ان السفن التي كانت تسير محاذية للشاطىء الافريقي الشمالي في القرن الثالث عشر كانت تقطع مسافة تتراوح بين ٢٠٧ و ٢٢٥ من الكيلومترات في اليوم الواحد . أما السفن النورمانية في غرب اوروبا وجنوبها فكانت المسافة التي تجتازها في اليوم الواحد تتراوح بين ٢٥٠ و ٣٥٠ ك . م .

والذي نعرفه ان وليم واي جاء مرتين الى فلسطين في القرن الخامس عشر وكان في كل مرة يبدأ من البندقية وينتهي في يافا ، فاحتاج في المرة الاولى الى شهر واحد وفي المرة الثانية قضى أكثر من شهر ونصف الشهر في الطريق

أما السفر البري فقد كان قلما يتجاوز ٤٨ ك . م . في اليوم الواحد في أوروبا . وقد قطعت جيوش الحملة الصليبية الاولى المسافة بين متز في المانيا والقسطنطينية في ستة وخمسين يوماً وتراوحت المسافة التي سارتها في اليوم الواحد بين ٣١ و ٥٨ ك . م . وكان المسافر العادي يحتاج الى سبعة أسابيع بين لندن وروما ، مع اننا نعرف ان ثمة من قطعها في تسعة وعشرين يوماً فقط . وكان نقل المعاملات المالية من شمال ايطاليا الى شمبانيا يستغرق عشرين يوماً أو يزيد

أما في الشرق فقد كانت أحوال الجو تجعل السفر أبطأ فقد قطع بركارد المسافة من الاسكندرية الى القاهرة في ثلاثة أيام برًّا ، وقدرها بسبعة ايام في النهر . ولما

سافر بركارد من القاهرة الى دمشق بطريق شرق الاردن احتاج الى خمسة وعشرين يوماً بمعدل ٣٠ ك . م . لليوم الواحد . واحتاج الى اربعة أيام للسفر من دمشق الى عكاء بطريق طبريا . والمسافة من انطاكية الى صيدا (٢٩٧ ك . م .) كانت تحتاج الى نحو عشرة أيام لاجتيازها

وكانت جيوش ريكاردوس إبان وجودها في فلسطين تقطع أقل من خمسة وعشرين من الكيلومترات في اليوم الواحد عادة . لكنها اضطرت في مناسبات كثيرة الى تجاوز هذا الحد . ففي ٣٠ آب (اغسطس) سنة ١١٩١ م اجتازت ٢٥ ك.م . وقد عُـدَّ هذا شيئاً غير عادي بسبب الحر الشديد . أما في سنة ١١٩٢ م فقد حفظ لنا عنها انها قطعت حتى ٤٠ متراً في يوم ٤ حزيران (يونيو)

ومن طريف ما يروى ان فتح العرب لسوريا في القرن السابع الميلادي وصل الصين بعد ثماني سنوات . ولما توفي فردرك بربروسا في كيليكيا سنة ١١٩٠ م لم يعرف أهل المانيا بذلك الاّ بعد أربعة شهور. أما خبر أسر ريكاردوس في دلماشيا في السنة نفسها فقد وصل انكلترا بعد أربعة أسابيع

وقد لقي بروكييه قرب دمشق رسولاً وصل من القاهرة في ثمانية ايام . وأجتاز الحاخام يعقوب من دمشق الى تدمر في ستة ايام (١)

﴿ السفينة التي سافر بها ابن جبير ﴾ : هم من هذا المركب بمنة الله تعالى في مدينة جامعة للمرافق ، فكل ما يحتاج شراؤه يوجد من خبز وماء ومن جميع الفواكه والأدم كالرمان والسفرجل والبطيخ السندي والكمثرى والشاه بلوط والجوز والحمص والباقلانيا ومطبوخاً والبصل والثوم والتين والجبن والحوت وغير ذلك مما يطول ذكره ، عاينا جميع ذلك يباع . وفي خلال هذه الأيام كلها لم يظهر لنا برٌّ والله يأتي بالفرج القريب . ومات فيه رجلان من المسلمين رحمهما الله فقذفا في البحر ومن البلغريين اثنان ايضاً ، ومات منهم بعد ذلك خلق وسقط منهم واحد في البحر حيّاً فاحتملهُ الموج اسرع من خطفة البرق.وورث هؤلاء الأموات من المسلمين والنصارى البلغريين رئيس المركب ، لانهُ سنَّة عندهم في كل من يموت في البحر ولا سبيل لوارث الميت الى ميراثه فطال عجبنا من ذلك (ابن جبير ٣١٤)

﴿ الاذن الملكي الصادر لوليم واي بالسفر لاداء فريضة الحج ﴾

«... لما كنا قد عرفنا ان الكاهن المحبوب السيد وليم واي ، أحد التابعين لكم ، ينوي بنعمة الله ، ان يعبر البحر بعد مدة قصيرة لاداء فريضة الحج في روما والقدس وغيرها من الاماكن المقدسة ، وقد تقدم الينا متضعاً بطلب الاذن للقيام بهذا الامر فقد رأينا ان ننظر بعين العطف الى غرضه المبارك . قد أذنا له أن يقوم بحجه ، ومتى عاد يقبل تابعاً لكم بنفس الطريقة والعمل الذي هو فيه الآن . والأجر السنوي وبقية ما يحق له من كليتنا اثناء غيابه ، يحفظ له ليتمتع به متى عاد . وهذا الاذن يلغي كل أمر يحول دون تنفيذ هذه الرغبة . اعطي تحت ختمنا في قلمة كنلورث في اليوم الحادي عشر من آب (اغسطس) سنة ١٤٥٧ م (واي ص ٣ من المقدمة).

﴿ اتفاقية مع ربان المركب الذي سافر فيه فابري ﴾

المادة الاولى : — يتعهد الربان بأن ينقلنا نحن الحجاج من البندقية الى يافا — ميناء في الارض المقدسة — وأن يعيدنا من يافا الى البندقية ، على أن يكون حاضراً للابتداء في مدة لا تزيد عن أربعة عشر يوماً ...

المادة الثانية : — يتحتم عليه (الربان) أن يهيء سفينة لها ملاحون ماهرون يستطيعون تسييرها مهما كان نوع الريح ، وعليه ان يجهزها بالسلاح اللازم للدفاع عنها ضدّ العدوّ والقرصان

المادة الثالثة : — يحذر الربان من الدنوّ في موانىء غريبة . فلا يرسو إلاّ في الاماكن التي اعتادت السفينة أن تحصل فيها على حاجاتها ... ويتحتم عليه خاصة أن يتجنب قبرص لأن هواءها ضارٌ بنا ...

المادة الرابعة : — يقدم الربان لكل حاج وجبتين من الطعام والشراب يومياً واذا تخلف أحدنا عن الحضور الى مائدة الربان لأي سبب كان ، يتحتم على الربان أن يبعث بطعامه وشرابه الى مكانه

المادة الخامسة : — يجب ان يكون الخبز والبقسماط من النوع الجيد وكذلك

الخمر ، ويجب أن يكون الماء عذباً . ويلزم ان يكون البيض واللحم وبقية المأكولات طازجة بقدر المستطاع

المادة التاسعة : — على الربان أن يحمي الحجاج من عبيد المركب ، سواء في البحر والبر ...

المادة العاشرة : — يتعهد الربان بأن يسمح للحجاج أن يقيموا في الارض المقدسة الوقت الكافي فلا يحملهم على الاسراع ، وعليهِ أن يرافقهم بنفسهِ في تجوالهم ونريد منهُ أن لا يقيم صعوبات في طريق زيارتنا للاردن

المادة الحادية عشرة : — كل الرسوم والنقود اللازمة للامان وللركائب وغير ذلك من النفقات يدفعها الربان دون أن يتقاضاهم شيئاً على ذلك ...

المادة الثانية عشرة : — على كل حاج ان يدفع أربعين دوكة جديدة ، بحيث يدفع نصف المبلغ في البندقية قبل السفر والنصف الآخر في يافا . وهذا المبلغ هو كل ما يدفعهُ الحاج لقاءَ السفرة وما تتطلبه

المادة الثالثة عشرة — اذا توفي أحد الحجاج فلا يجوز للربان ان يمدَّ يده الى مخلفاتهِ ، وانما تبقى هذه في حوزة الشخص أو الاشخاص الذين يوصي المتوفي بترك مخلفاته معهم .

المادة الرابعة عشرة : — اذا توفي أحد الحجاج قبل وصوله الى الارض المقدسة تحتم على الربان ان يعيد نصف ما دفعه المتوفي على ان ينفق المبلغ حسب تواصي الشخص الميت

المادة الثامنة عشرة : — يتعهد الربان بتخصيص مكان على ظهر المركب يحفظ فيه الحجاج الدجاج او الطيور ، ويتعهد ايضاً بأن يسمح طباخوه لطباخي الحجاج بطهي الطعام على نارهم متى رغبوا في ذلك (فابري ٧ — ٨٧—٩٠)

﴿ واي ينصح المسافرين ﴾ : تدفع أجرة نقلك من البندقية الى يافا ذهاباً وإياباً وثمن الاكل والشرب على السفينة اربعون دوكة [1] ...

---

(١) كانت زيارة واي وزيارة فابري للارض المقدسة قريبة إحداها من الاخرى

احمل معك ثلاثة براميل سعة كل منها عشرة غالونات ، فتملأ اثنين منها خمراً والثالث ماءً ...

وخذ معك صندوقاً له قفل ، تحفظ فيه برميل الخمر وأشياء أخرى تبتاعها لنفسك كالخبز والجبن والتوابل . واحمل معك بقسماطاً · ومع انك ستتناول طعامك مع الربان فانك ستحتاج الى ما معك من مأكولات — كالخبز والجبن والبيض والفواكه والخمر وغير ذلك ، لأن الربان قد يقدم لك أحياناً خبزاً أو خمراً من النوع الرديء أو ماءً ذا طعم كريه

واحمل معك قدرة صغيرة ومقلاة وصحوناً وكؤوساً وما شابه ذلك

وابتع من البندقية فرشة من مكان قرب كنيسة القديس مارك . وثمن الفرشة الريش مع وسادتين ولحاف ثلاث دوكات · ومتى عدت الى البندقية فان البائع نفسه يسترجع هذه كلها بنصف ثمنها الاصلي

وفي البندقية يجب ان تصرف بعض الدوكات نقوداً صغيرة مختلفة تتناسب مع الموانىء التي ستمر بها ، حتى تتمكن من شراء حاجياتك دون صعوبة . وفي سورية في الارض المقدسة ، تقبل النقود البندقية (واي ٤ — ٧ من الرحلة)

﴿ نصائح فابري للمسافرين في البحر ﴾ : اذا رغب الحجاج في الحصول على شيء خاص من المطبخ ، عليهم ان يعطوا الطباخين نقوداً . فانه يوجد هناك ثلاثة او أربعة من الطباخين الذين لا يقبلون بغير النقد . ولا يقيمون وزناً للوعد . وليس ثمة غرابة في ان يسوء خلق الطباخين اذا تذكرنا ضيق المطبخ وتعدد الحال وتنوع المطبوخات وصغر الوقد وكثرة الاصوات وارتفاعها ... واللحم الذي يقدمهُ الربان هو عادةً رديء ، لانهُ يأمر بقتل الحيوانات المريضة والتي يخشى عليها من الموت (فابري ٧ — ١٥٣ — ٤)

﴿ تنظيم الزيارة في سوريا في القرن الخامس عشر ﴾ : وليعلم الذين يرغبون في زيارة دير القديسة كاترينا ان العادة هي ان يطلب المرء من رئيس التراجمة بالقدس ان يعنى بالامر ، ويدفع لقاء ذلك ضريبة للسلطان وأجراً لرئيس التراجمة نفسه . والرئيس هذا يتصل بالترجمان الموجود في غزة وهـذا يفاوض العرب المقيمين في الصحراء . ويعرض هؤلاء على المسافرين استئجار إبلهم . وأجرة الواحد منها عشر دوكات ...

ولما وصل الجواب من غزة بالسماح لنا جمعنا رئيس التراجمة وسألنا عن أسمائنا وأعمارنا وقيّد ذلك في سجل خاص وأضاف أوصافنا ثم بعث بنسخة من هذا كله الى الترجمان المقيم في القاهرة . وهذا التنظيم يقصد منهُ المحافظة على حياة المسافرين فلا يستبقي العرب منهم أحداً . لكنني (أي بروكييه) مقتنع أيضاً بأنهم يفعلون ذلك لانهم لا يثقون بالمسافرين (بروكييه ٢٨٩)

﴿ تنظيم شؤون الحجاج في القدس ﴾ : يعنى بشؤون الحجاج في القدس رئيس ومساعده . والاول اسمهُ كاليندوس والثاني اسمه الفاهالو . ويقوم هذان بالترجمة والارشاد والحماية والحراسة للحجاج المسيحيين . وفي كل مدينة نجد جماعة يمنحهم السلطان حق العناية بالحجاج وحمايتهم ، ويعدّون من موظفي الدولة . وثمة تراجمة خاصون بالسياح اليهود

وفي كل مدينة كبيرة ، مثل القدس والقاهرة ، يوجد اثنان كما ذكرنا . والرئيس يتقاضى أجره من السياح والحجاج ، أما المساعد فيأخذ مرتبه من الرئيس . فاذا كان هذان نصوحين أمينين ، جرت الامور على خير ما يرغب الحجاج

كان رئيس القدس رجلاً طويل القامة ، متقدماً في السن ، غنيًّا ، متين الخلق ، لكنهُ كان شديداً على الحجاج ، يستعجلهم في تنقلهم ، ويتقاضى منهم النقود في شيء من الجشع . ومع انه تقاعس عن تنفيذ بعض شروط الاتفاقية ، فقد حرسنا ودافع عنا بأمانة ، وأتى لنجدتنا لما استنجدنا به

أما مساعده فكان عمره يتجاوز الثمانين ، وقد كان مسلماً مستقيماً . . . وكان يؤمن بأن سبيل الخلاص الروحي ميسور لكل امرىء اذا اتبع أصول دينه ، وحافظ على تعاليمه محافظة تامة ، وكان نقيًّا في قلبه ، مستقيماً في معاملاته ... كان يعرف الايطالية ، لذلك كنا نتحدث كثيراً حول هذه المواضيع ... وقد زار هذا الرجل فينّا ومثل أمام الامبراطور فردرك الثالث ثم زار روما حيث مثل أمام البابا نقولا الخامس (فابري ٩ — ١٠٥ — ٧)

﴿ سوق في الرملة ﴾ : جاءَنا الباعة يحملون الفراخ المنضجة والحليب المطبوخ والمعجنات والارز المصنوع بالحليب وأرغفة الخبز الممتاز والبيض والعنب الحلو والرمان والتفاح والبرتقال والبطيخ والتين — الكبير منهُ والصغير —

والمسكّرات المصنوعة من اللوز والعسل والتين اليابس (القطين) والسكرات المصنوعة من التمر واللوز والسكر ، والماء البارد . وجاء بعضهم بقوارير جلدية فيها شراب طيب يغني المرء عن الخمر ، يستعمله أشراف المسلمين

وبعد الغداء زرنا أسواق الرملة التي تحوي كل المتاجر ، ثم دخل بعضنا الحمام (فابري ٧ : ٢٧٠)

﴿ في الطريق ﴾ : ان الطريق من حديقة البلسان (قرب القاهرة) الى غزة ، وحتى الى القدس ، صحراوية ، لذلك يتحتم على كل مسافر ان يحمل معهُ على دابته كيسين — يملأ أحدهما بالبقسماط والثاني بالقش للركوبة . وعليه أن ينقل معهُ الماء في قرب من جلد ، لان الماء الموجود في الطريق كله مَلح . وليأخذ معهُ ليمونا . ويحسن ان يسافر مع قافلة كبيرة ليأمن على نفسه من قطاع الطرق ... وليحاول الأجنبي ان يتخفى فيتزيا بزي أهل البلاد[1] ... وليتعلمْ عاداتهم في القيام والسير والجلوس ... وليحاذر ان يعرفوه ، والاّ دفع ما عليه من الرسوم والغرامة (ميشولم — ادلر — ١٨١) .

﴿ ليلة في خان ﴾ : وصلنا قرية زخريا مع غروب الشمس ، ودخلنا الخان القائم خارجها . فأنزلنا الاحمال عن الدواب وأخذنا نستعد لقضاء الليلة هناك وكان الخان كبيراً متسعاً كأنهُ قلعة ، كثير الاسطبلات والغرف ، يدور به كله سور . ولم نجد فيه أحداً . وبدأنا نعد طعام العشاء فأخذنا نجمع الحطب من جهات مجاورة وانتزعنا بعض القطع من الأسيجة والأسوار فلحقنا أصحابها وضربونا بالحجارة . ثم جاءنا جماعة من القرى القريبة يحملون الفراخ والطيور والخبز والماء فابتعنا منهم حاجتنا ونعمنا بعشاء هنيء (فابري ١٠ — ٤٤٧)

﴿ مرض بروكييه ﴾ : في اليوم الثاني[2] أصابتني حمى شديدة فاضطررت الى التخلف عن رفاقي ، وعدت مع أحد مرافقينا العرب الى غزة وقد عُني بي الرجل عناية كبيرة ... وقضينا ليلة في خيام العرب .. ولقيت هناك ضيافة حسنة . فقد أعانني أربعة منهم في الترجل ، وأضجعوني على فراش كنت أحمله وعالجوني بالتمسيد والفرك ، فنمت على أثر

---

(١) من عادة اليهود ان يتظاهروا بالفقر في بلاد العرب . فانهم يتنقلون كما لو كانوا مستجدين (عوبديا — ادلر — ٢٢٨) والغرض من ذلك التهرب من دفع الرسوم

(٢) كان في طريقه من غزة الى دير القديسة كاترينا

ذلك ست ساعات متوالية . ولما صحوت وجدت ان ثيابي ونقودي وبقيـة حاجاتي لم تمسسها يد ، هذ مع العلم بأني كُنت أملك مئتي دوكة وحملي جملين من الحاجيات (بروكييه ٢٩٠)

﴿ بروكييه مع القافلة ﴾ : وفي مساء ذلك اليوم تناولت طعام العشاء [1] بصحبة المملوك ولم يكن لدينا سوى الخبز والجبن والحليب . وقد كان معي غطـاء ، وفي أثناء الاكل فرشتهُ أمامي ووضعت عليهِ زادي ، على عادة الاثرياء في تلك البـلاد . والغطاء هـذا مستدير قطره نحو أربعة أقدام وفي أطرافه قيطانات بحيث يمكن طيّ الغطاء وربطه كما لو كان كيساً ، فيجمع فيهِ ما تبقى عليـهِ من خبز أو زبيب أو ما شاكل ذلك . وقد لاحظت ان المسلمين يشكرون الله ويحمدونه على ما أكلوا بقطع النظر عن نوع الطعام (بروكييه ٣٠٠)

﴿ السفر في الصحراء ﴾ : مما ينعش المسافر في الصحراء ، بالاضـافة الى أشياء أخرى كثيرة ، هو التنوع الذي يشعر بهِ الواحد يوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة . والتنوع والتجـدد في الارض والتراب والجو والجبال المتباينة الاشكال والالوان ، فيعجب المسافر بما يرى ويترقب ما سـيأتي . وفي كل وقت تقع العين على ما يملأ النفس اعجاباً ولقد شعرت في الصحراء القاحلة بسرور وغبطة لم أحصل عليهما حتى في سهول مصر الخصبة (فابري ١٠ — ٥١٢)

﴿ نصائح رئيس جبل صهيون للحجاج الاوروبيين ﴾ : أعطيت هـذه التعليمات للحجاج عقيب وصولهم الى الرملة ، وبعد اقامة القـداس . وقد ألقاها رئيس جبل صهيون باللغة اللاتينية ، وترجمها فابري الى الالمانية ، لأن الحجاج الذين كانوا هناك كانوا كلهم المانيين

تقع هذه التعليمات في سبع وعشرين مادة (راجع ص ٢٤٨ — ٢٥٤) وهذا أهم ما جاءَ فيها : —

(١) الحجاج الذين جاؤوا الى الارض المقدسة دون أن ينالوا بركة البابا ، وبذلك حرموا ، عليهم أن يتقدموا بعد القداس لينالوا الغفران

---

(١) كان في شمال سوريا

(٢) لا يجوز لأي واحد من الحجاج ان يتجول في الاماكن المقدسة في المدينة (القدس) دون ان يرافقه دليل مسلم ، لان عملاً مثل هذا خطر ...

(٣) يجب ان يتجنب الحجاج تخطي قبور المسلمين

(٤) اذا اعتدى أحد أهل البلاد على حاج ، فلا يجوز للحاج ان يرد عليه بالمثل وانما يشكوه الى حارس جبل صهيون او الى الترجمان او مساعده ، وهؤلاء يفعلون ما يرونه مناسباً

(٥) يجب ان يمتنع الحجاج عن قطع اي شيء من كنيسة القبر المقدس أو غيرها من الابنية ، لان عملاً كهذا يؤدي الى القاء الحرمان على فاعله

(٧) زيارة الحجاج ، يجب ان تكون منظمة

(٩) يجب ان يتجنب الحجاج المزاح مع الشباب او الأولاد الذين يلقونهم في الطرق

(١٠) على الحجاج ان يتجنبوا النظر الى النساء في الطرق

(٢٢) على الحجاج ان يحذروا من دخول المساجد والجوامع

(٢٣) على الحجاج ان يجتنبوا السخرية من الناس أثناء تأديتهم فريضة الصلاة

(٢٥) يجب ان يدفع الحجاج النقود المطلوبة منهم دون تذمر او سخط ، لأن الدفع يريحهم من متاعب كثيرة (فابري ٧ — ٢٤٨ وما بعدها)

ثبت المصادر

نذكر فيما يلي أمهات الكتب التي رجعنا اليها

---

١ — ابن بطوطة ، رحلة القاهرة ١٩٣٨

٢ — ابن جبير ، رحلة ليدن ١٩٠٨

٣ — أبو البقا جيعان — « القول المستظرف في رحلة مولانا الملك الأشرف » لم يتيسر لنا الحصول على الاصل العربي فرجعنا الى ترجمة فرنسية للسيدة ديفونشير القاهرة ١٩٢١

٤ — أسامة بن منقذ — «الاعتبار» — نشره ف . حتي برنستون ١٩٣٠

٥ — البغدادي ، عبد اللطيف — « الافادة والاعتبار » القاهرة

٦ — الحسني ، علي عبد العزيز — «تاريخ سوريا الاقتصادي» دمشق ١٣٤٢

٧ — ناصري خسرو — « سفر نامه » — نشره شيفر مع ترجمة فرنسية باريس ١٨٨١

٨ — الهروي — « الاشارات في معرفة الزيارات » مخطوطة مصورة (فوتوستات) موجودة في مكتبة متحف روكفلر الأثري بالقدس

٩ — Jewish Travellers — Adler, N. E. London 1930

١٠ — "Le Saint Voyage de Jerusalem" —Anglure Paris 1878

١١ — Archives de l'Orient Latin (AOL), 2 vols.
Paris 1878—1884

١٢ — "Benjamin of Tudela"—Asher, London & Berlin 1840-1

١٣ — Beazley, C. R.
"The Dawn of Modern Geography"
Vols I & II, London 1897-1901 , Vol· III Oxford 1906

١٤ — Bernhard Von Breydenbach and His Journey to the Holy
Land, London 1911

١٥ — Bibliotheca Geographorum Arabicorum, 8 Vols
Leyden 1870-1894

١٦ — Brehier, L.
"L'Eglise et l'Orient au moyen âge : les Croisades", Paris 1928

١٧ — Carmoly, E.
"Itineraires de la Terre Sainte des XIII, XIV, XV, XVI et XVII
Siecles", Bruxelles 1847

١٨ — "Medieval Scene" — Cutts London 1896

١٩ — Delaville le Roux, J.
"La France en Orient Latin au XIVme Siècle", Paris 1886

٢٠ — Gaudefroy—Demombynes
"La Syrie à l'époque des Mamelouks" Paris 1923

٢١ — Geyer, P.
Itinera Hierosolymitana Saeculi III—VIII" Leipzig 1898

٢٢ — Grousset, R.
"Histoire des Croisades", 3 Vols. Paris 1934-6

Grünhut — ٢٣

"Rundreise des R. Petachja von Regensburg"

Jerusalem 1904-5

Heyd, A. — ٢٤

"Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age"

Leipzig 1885-6

Hitti, P. K. — ٢٥

"History of the Arabs" London 1937

Lannoy, G. de — ٢٦

"Voyages et Ambassades" Mons 1840

Library of the Palestine Pilgrims Text Society (PPT), — ٢٧

13 Vols and an index volume London 1896 ff

Ed. M. Komroff — ٢٨

"Travels of Marco Polo", New York 1930

Maundeville, Sir John — ٢٩

"The Book of Travels of—", London 1848

Michelant, H. & Raynaud, G. — ٣٠

Itineraires a Jerusalem et descriptions de la Terre Sainte'

Genève 1882

Mickley, — ٣١

"Das Land der Bibel", Leipzig 1917

Miller, K. — ٣٢

"Mappae Arabicae", Vols. I—IV, Stuttgart 1926-7

Newton, P. (ed.) — ٣٣

"Travels and Travellers in the Middle Ages"

London 1926

Prévost, L. — ٣٤
"Le Sinai Pelerins du Moyen Age", Paris 1936

Prûtz — ٣٥
Kulturgeschichte der Kreuzzuege", Berlin 1883

Rainaud, A. — ٣٦
"Geographie d'Aboulfida", Paris 1848

Roericht, R — ٣٧
"Bibliotheca Geographica Palastina" Berlin 1890

Roericht, R. — ٣٨
"Deutsche Pilgerreisen" Innsbrück 1900

Sanuto, Marino — ٣٩
Liber Secretorum fidelium Crucis super Terra Sanctae recuperatione et conservatione", Published in Bongars (Gesta Dei, Per Francos) Hanoviae M. DC. XI (1611)

Stevenson — ٤٠
"The Crusades in the East" Cambridge 1907

Strange, G. Le — ٤١
"Palestine under the Moslems" London 1890

Tobler, T. — ٤٢
"Itinera Hierosolymitana et descriptiones Terrae Sanctae"
Genevae 1897

Wey, William — ٤٣
"Itinerarium of W. W. (Roxburgh Club Edition) — London 1857

Wilbrandus de Oldenborg — ٤٤
"Peregrinatioh" (ed. by I. C. M. Laurent) Leipzig 1864

Wright, Th. (ed.) — ٤٥
"Early Travels in Palestine", London 1848

فهرس الاعلام

الواردة بهذا الكتاب

هذا الفهرس مرتب على حسب الحروف الهجائية ، ولتسهيل الرجوع اليه اعتبرت ألفاظ « أب » و« ابن» و « ال التعريف » لغواً ، فأبو العلاء يُبحث عنها في العين مع اللام ، وابن بطوطة في الباء مع الطاء ، وابن أبي أصيبعة في الألف مع الصاد . وتقيدت في كثير من المواطن برسم صديقي المؤلف الفاضل للأعلام الغربية الى أن يأذن الله بتوحيد رسمها

محمد عبد الغني حسن

فهرست
فصول الكتاب

صفحة

